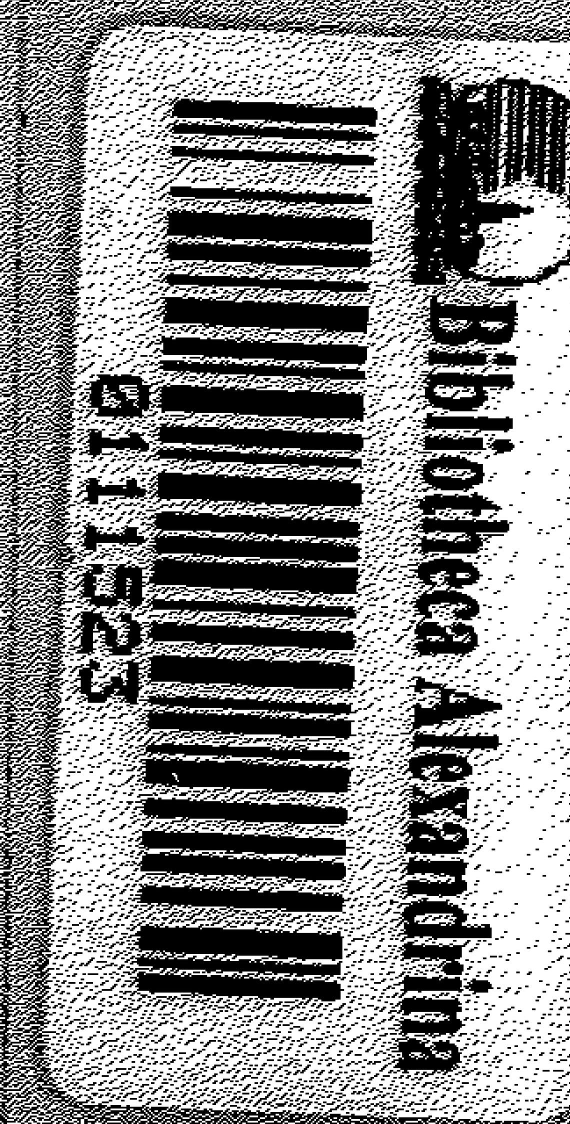
أ.د. نعمان عبد الرزاق السامرائي

نحن .. والصديق اللدود

دراسة تحليلية للفكر الغربي وموقفه من الإسلام

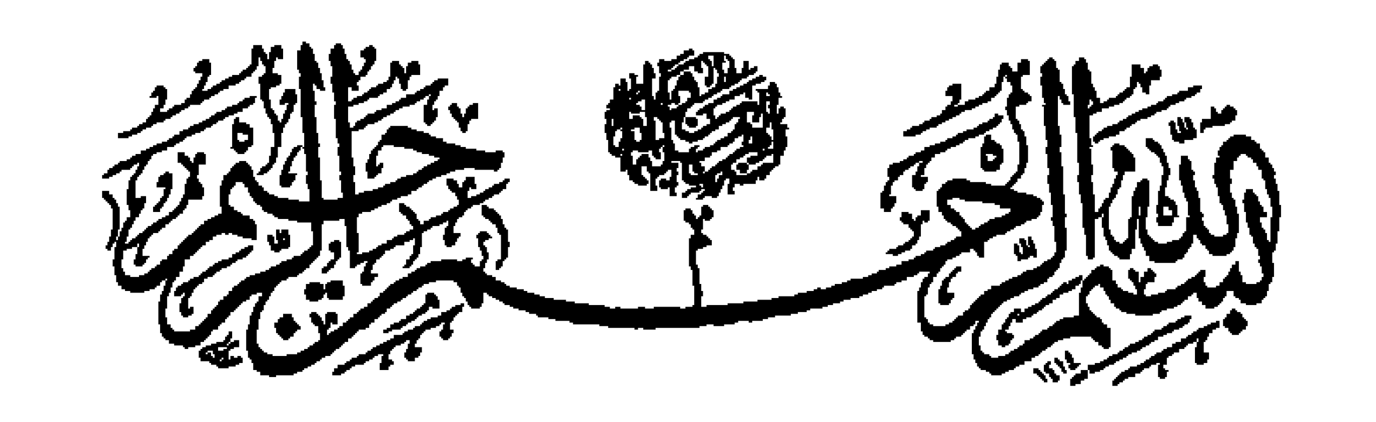


دار الحكمة
لندن

أ.د. نعمان عبد الرزاق السامرائي



دار الحكمة



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السامرائي ، نعمان عبدالرزاق

نحن والصديق اللدود .ـ الرياض.

٠٠٠ص ؛ ..سم

ردمك ٦-٤٤٥-٣١-٩٩٦٠

١- الإسلام والغرب ٢- العلمانية ٣- الإسلام والمذاهب السياسية أ- العنوان

ديوي ٢١٤,٣٢٠٥ ١٧/٠٤٦٩

رقم الإيداع : ١٧/٠٤٦٩

ردمك : ٦-٤٤٥-٣١-٩٩٦٠

دار الحكمة

DAR AL-HIKMA

Publishing and Distribution

88 Chalton Street London NW1 1HJ Tel: 0171 - 383 4037 Fax: 0171 - 383 0116

الإهـــــداء

إلى روح شـيخي وأسـتاذي

الشـيخ محمد محمود الصـواف

وفاءً وتقديراً

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

وجه الخليفة أبو بكر رضي الله عنه الجيوش نحو العراق والشام ، فاصطدمت بالإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية .

وقد قضى على الفارسية بسرعة بحيث وصل المسلمون إلى بخارى وسمرقند كما عبروا إلى الهند ، أما الإمبراطورية البيزنطية فارتدت محتمية بالبحر الأبيض ، ولكنها لم تستطع قبول الواقع الجديد ، وراح الفاتيكان يحرض أتباعه لتخليص « مهد المسيح » من أيدي المسلمين . أما المسلمون فكانوا يتطلعون لفتح « القسطنطينية » حيث ورد خبر ذلك الفتح على لسان رسول الله عليه السلام مع الثناء على فاتحها وجيشه ، فظل المسلمون يتطلعون لذلك ، فلم يكتب لأحد حتى جاء السلطان « أحمد » العثماني ففتحها .

وقد توجهت جيوش المسلمين نحو أفريقيا ففتحت مصر والشمال الإفريقي ، ومن هناك عبرت جيوشهم إلى « إسبانيا » وربما كان الهدف البعيد فتح القسطنطينية من البر الأوروبي ، وهنا زاد الصراع حدة حتى قيل بأن المسلمين التحموا مع الغرب بأكثر من (٣٧٠٠) معركة في أوروبا وحدها .

ثم باشر الغرب يحشد الجيوش لاسترداد الساحل الشرقي من البحر الأبيض ، وعلى الأخص بيت « المقدس » وتوالت الحملات كما

توالى الفشل حتى جاء « صلاح الدين الأيوبي » فاقتلعهم ، وبقي العثمانيون يقاتلون ويفتحون في أوروبا حتى نهضت أوروبا ، فاختل ميزان القوى ، وراح يميل لصالح الغرب ، فتوالت على العثمانيين الهزائم داخلياً وخارجياً ، حتى إذا جاءت الحرب العالمية الأولى ، ودخلها الأتراك خطأ فقضي على دولتهم ، كما سقطت بعض أقطار المسلمين قبل ذلك فريسة بأيدي الغرب ، فسقطت الجزائر وليبيا وتونس ومصر وأندونوسيا وفطاني والهند ، وهكذا عاد الغرب من جديد فاتحاً يحمل حضارة ، يريد فرضها بالقوة ومعه « المبشر » ومدير الشركة الذي يريد أن يستغل هذه البلاد للربح ، وأحياناً المستوطن الذي يتطلع للإقامة بالبلاد المفتوحة ، لنهب خيراتها والتنعم بثرواتها ، وكما يقول سارتر فقد أقيمت مدن وعواصم ، وأنشئت كنائس وجامعات من أموال هذه المستعمرات وعلى حسابها ، الجديد في الأمر أن الغرب القوي ، جاء بحضارته محاولاً فرضها على العالم كله ومنه العالم الإسلامي . فكانت الممانعة بل المقاتلة والرفض التام ، لهذا الغازي وما جاء به ، ونظراً لعدم وجود توازن في القوى ، لذا فإن المقاومة فشلت ، فأعقب ذلك جيل آخر ، يرى عدم جدوى محاربة هذا الغازي ، بل لا بد من مهادنته ، مع الاحتفاظ جهد الإمكان « بالهوية » وعدم الذوبان في التيار الغربي القوي الجارف ، وقام بعض أبنائنا محاولاً التوفيق بين الإسلام وحضارة الغرب ، ثم انفتحنا على الغرب بلا شرط ولا قيد ، وبهرتنا حضارته ، فراح بعض أبنائنا يطالب بأخذ هذه الحضارة « حلوها ومرها » ، كما راح الغرب يتدخل في كل أمر من أمورنا ، الكبير والصغير ، وأجدني أقف إلى صف د . محمد عمارة حين يقول[1] (إن الغرب بالنسبة لنا لم يعد عاملاً خارجياً ، بل أصبح في داخلنا . وثمة ألف سبب وسبب يؤكد هذا ، فلو نظرنا مثلاً في كثير من النظم « الاستبدادية » ، التي توجد في

(١) المسلمون العدد ٤٢١ في ٥/٩/١٤١٣ .

العالم الإسلامي ، ونأخذ عليها ، من أين جاءت ؟ إنها صناعة غربية ، أو هي على الأقل « محروسة » بحراب الغرب ، فبماذا نفسر مثلاً أن هذا الغرب ، قد أزال كل نظم الاستبداد الموجودة لديه بالعنف ، حين يقتضي الأمر ذلك ، كما فعل مع « شاوشيسكو » في رومانيا ، فإذا جاء الأمر إلى العالم الإسلامي ، وجدناه حريصاً على عدم سد مثل هذه الثغرات ، فإذا أردنا أن نداوي عيوب الاستبداد بالحرية منعنا ، والتاريخ العربي حافل بذلك ، فإذا أراد « محمد علي » تجديد شباب الدولة العثمانية ، سارع الغرب إلى ضربه ، وإذا أراد « أحمد عرابي » أن يسد ثغرة الاستبداد ، فلا بد من هزيمته والقضاء عليه .

إن الغرب لم يكن أبداً عاملاً خارجياً ، بل كان عاملاً داخلياً بيننا ، لننظر إلى التيارات الفكرية « العلمانية » التي تخرّب مجتمعنا من الداخل ، فهل هذه التيارات مذاهب داخلية ؟ لا ، ولكنّها امتدادات سرطانية للغرب .

لقد عانى الغرب الكثير من المشكلات ، لكنّه تغلب عليها وحقق نهضته ، لأنه لم يكن هناك عدو يتربص به ، وينفذ إليه من الثغرات ، أما ما يحدث للأمة الإسلامية فغير هذا تماماً ، فقبل الغزو الاستعماري الحديث ، شهدت الأمة حركات للتجديد الفكري ، واليقظة الإسلامية ، ولو تركت وشأنها لتم حل المشكلات ، لكن الغرب كان حريصاً على أن لا يتم ذلك . وهنا نتساءل : من الذي حرس أمراض دولة « الرجل المريض » لكي ينفذ منها ؟ لماذا لم يسمح بتجديد شباب الدولة العثمانية ، وفق القوانين الداخلية لحركة الحياة ؟ .

لقد حلت المشكلة بين العثمانيين والمماليك وفق الصراع الداخلي ، لأنه لم يكن هناك تدخل من الغرب . لكن الذي يحدث الآن هو أن مشاكلنا الداخلية ، لا يترك حلها للقوانين الذاتية ، التي تحكمها ، بل يتدخل الغرب فيها بشكل مباشر ، بما يعني أنه أصبح في داخلنا .

قضايا التنمية عندنا : من الذي يحرص على أن لا نزرع ما نأكل ؟

من الذي يعمل على أن لا تكون فوائد أموالنا في داخل بلادنا ؟ من الذي يصنع هذا التفاوت الفادح بين أسعار المواد الخام والمصنعة من هذه المواد ؟ هل هذا من صنعنا ، أم هناك قوى خارجية تلعب دوراً رئيساً في هذا الأمر ؟ ثم من الذي يمنع عنا التسلح حين نكون بحاجة إليه ، ومن الذي يفرضه علينا لنتقاتل به بعضنا ؟ من الذي يجعل الكيان الصهيوني أقوى من العرب مجتمعين ، فضلاً عن زرعه في قلب الأمة ؟ من الذي يجمد منظماتنا الإقليمية ؟ . . . عشرات الأسئلة تعبر كلها عن معنى واحد ، هو أن الغرب ـ الذي نتحدث عنه ـ لم يعد هو « الآخر » الخارجي ، بل أصبح عنصراً داخلياً في قلوبنا ، وإن كنا لا نغفل ـ ولا ينبغي ـ عن عيوبنا ونقائصنا الداخلية ، ولكننا يجب أن نميز بدقة بين ما هو خارجي عنا ، وما هو داخلي فينا) ا. هـ .

إن هذا الموقف من الغرب ، هو الذي حملني ويحملني على الدراسة والاهتمام ، ومحاولة الكشف عن طبيعة العلاقة بيننا وبين هذا « الصديق اللدود » الذي نجده في عقولنا وقلوبنا .

إن الغرب بعد سقوط الشيوعية ، وتفكك الإمبراطورية الروسية ، راح يصرح بأن الإسلام عدو حضارته وأن المسلمين هم العدو الأول له ، والمحرض الأول والمستفيد الأول هو الشيطان الصهيوني ، الذي يعمل بكل قواه لإشعال نار الفتنة ، بيننا وبين هذا « الصديق اللدود » ، فبفضل ذلك يبقى الصهاينة بعيداً عن الحرب ، ويحققون شعار « قاتلهم ومقتولهم في نار جهنم » ، فالعداوة بيننا وبين الغرب مكسب عظيم للشيطان الصهيوني ، والحرب بيننا مضعفة لنا ولهم ، والشيطان هو الرابح ، إضافة إلى أنه يقدم نفسه كحامي لحضارة الغرب ، وممثل لها في المنطقة .

من هذا المنطلق ، أجد المبرر للإسهام بجهد في هذا المجال ، وسوف أحاول رسم العلاقة مع الغرب ، وتحديداً مع حضارته ، وقد

وجدت الدكتور علي الشامي يكتب بحثاً تحت عنوان « علموية الغرب والألوهية » يتحدث فيه عن تطور الغرب وحضارته ، مع التركيز على الموقف من الدين ، وقد فضلت نشر المقال كاملاً ثم التعقيب عليه ، وقد استرسلت في ذلك وآمل أن يعذرني القارىء ، وأعقبت ذلك الحديث عن طبيعة العلاقة مع حضارة الغرب ، وهي لب الموضوع ، لذا فقد حاولت أن أحيط بالموضوع ، بما يسمح به حجم الكتاب ، وأخيراً وجدت الكثير من « المصطلحات » تترجم لنا بشكل غير سليم ، أو تحمّل « قيماً » لا تحتملها ، والعلمانية خير دليل ، فهي في لغاتها الأصلية تدل على الفصل بين وجود الله وتأثيره في الحياة .[1] (SEWLARISM) .

لكنها حين ترجمت للعربية وضع لها لفظ « علمانية » ولا علاقة مطلقاً للعلم بالقضية ، وكثير من المصطلحات حُمّلت معاني ليست منها في شيء ، لذا فقد وجدت من المفيد ذكر بعض المصطلحات وشرحها .

آملاً أن أكون قد ساهمت في طرح أفكار ، ورسم علاقة ، وأنا أردد قول الشاعر « لا خيل عندك تهديها ولا مال . . . . » هذه « الساحة » التي أعتقد أني أستطيع تقديم شيء فيها ، طالباً من الله العون والسداد ، ومن القراء التجاوز عن الزلات والهفوات ، فنحن نكتب في ظروف يعرفها الكل ، وهي تضغط على الأعصاب ، وتفجر العواطف ، وتثير كوامن الأسى والحزن ، فالأمة تضرب في كل مكان ، من العدو ومن الصديق ، من القوى الكبرى ، والحاكم الصغير ، العاجز عن فعل أي شيء سوى الاعتداء على مواطنيه ، فهو أسد علينا وفي الحروب نعامة ، نلبث خلف إسرائيل ونطلب السلام ، ونصطاد مواطنينا في الشوارع

(١) دائرة المعارف البريطانية ٢/٦٦٧ ، ونظريات التنمية السياسية / د . نصر عارف ص ٣١٤ .

برصاص دفعنا ثمنه من جيوبنا ، اشتريناه لعدونا فوجدناه يتوجه لصدورنا ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

الفصل الأول

القسم الأول : علموية الغرب والألوهية

القسم الثاني : قراءة في العلموية والألوهية

القسم الأول

علموية الغرب والألوهية

١ ـ إرادة رأس المال :

انتقل الغرب ، عبر الحضارة ، من الحالة الصليبية إلى الحالة الاستعمارية ، وبينهما تبرز أكثر المسائل جوهرية بالنسبة لتطور أوروبا . فقد توحّد مستقبلها بقوة مع الخارج ، الذي بدونه ـ أي : بدون السيطرة عليه ـ تدخل حضارة الغرب في نفق مظلم يعيد إلى الأذهان أزمات العصر الوسيط الدموية ، واضطرابات المجتمعات الصناعية ، منذ منتصف القرن التاسع عشر . وبالتالي ، فإن الانتقال الحضاري ـ التاريخي لم يسفر عن تغيير أساسي في رؤية الغرب ونزوعه الدائم لإقرار غلبته على الشرق . بهذا المعنى ، لم تكن الحضارة ، بشكل عام ، تطوراً في سياق تبديل العلاقة بقدر ما كانت جهداً متواصلاً للحفاظ عليها وفق تراتبية أراد جهابذة الغرب أن يجعلوها أزلية . (غلبة الغرب ودونية الإسلام) وفي الحقيقة ، إنَّ الذي تغيّر ليس إطلاقاً مبدأ السيطرة وإنما ، تحديداً ، تقنيتها . وبعبارة أخرى ، لم يكن الانتقال من « الصليبية » إلى « الاستعمار » تجاوزاً لرغبة السيطرة على الشرق الإسلامي ، كما لم تكن منتجات الحضارة الحديثة سوى عامل مساعدة على تكرار المحاولة . لقد تغيّر الغرب ولم تتغير نظرته إلى الإسلام . أما الاختلاف في الزمن والفكر والبنية ، فإنه لم يدخل على الإطلاق تعديلاً في المنهج والإيديولوجيا ، رغم التنويعات الظاهرة في الشكل .

إذن ، دخل الغرب في حضارة عظيمة ، لكنه رأى فيها مادة

وإمكانية رائعتين ، استخدمهما بسهولة أثناء رحلته الجديدة نحو العالم الإسلامي ، ويمكن أن نقول أيضاً إنَّ حضارته نفسها قد نمت خلال هذه الرحلة ، بحيث يصبح اعتبار هذه الأخيرة مرآة لطبيعة النزوع التسلطي الذي خرج من رحم « إرادة رأس المال » ، تلك الإرادة التي لم تنسج فقط مستقبل أوروبا ، بل إنها جعلت هذا المستقبل نفسه مديناً لها ، إذ فتحت له آفاق الخارج ، ودفعت أوروبا كلّها نحو المشرق الإسلامي وغيره ، بحثاً عن تحقيقات سريعة ودائمة لرغبة هذه الإرادة . كما أنّها لا تشكّل ظاهرة استثنائية في تاريخ أوروبا ، إذ أنّ مصحلة عليا كانت قد ترسّخت بعمق على قاعدة السيطرة .

وبهذا المعنى يمكن اعتبار إرادة رأس المال هي ذروة التعبير عن المنهج العام والعالمي لحضارة الغرب ، وفي نفس الوقت ، يمكن النظر إليها كتواصل للتاريخ الصليبي . ورغم المسافة الزمنية والحضارية ، تظهر السيطرة على الشرق الإسلامي على شكل ضرورة حيوية للصليبية والرأسمالية ، كما يظهر العداء للإسلام على صورة حرب إيديولوجية ذات فعالية وفائدة ، ثم اللجوء إليها واستخدامها بعناية فائقة من أجل الاقتصاد والغلبة .

بيد أنَّ ما يميز هاتين المرحلتين ، لا يتعلق إطلاقاً بمستوى وطبيعة العلاقة بين الغرب والإسلام ، ولم يؤد إلى تعديل إيجابي في موقف الغرب من الإسلام ، كما أنَّ التحوّل التاريخي ـ الحضاري شكّل الظاهرة الأكثر أهمية والتي بدونها لم يكن بإمكان الغرب أن يخرج نحو الإسلام على شكل استعمار ، وأن يفرض هذا الأخير بصورة فعلية لسنوات طويلة . وعندما نقول إنّ العلاقة لم تتبدل والرؤية واحدة ، فإن ذلك لا يساوي بين وعي دانتي وتعصب عصره وبين معارف القرن التاسع عشر ونظرياتها حول الإسلام وأهله ، وإنما ، وبشكل حصري ، نقصد استمرار المنطق الذي يتعامل مع الإسلام على قاعدة إخضاعه

واستتباعه . وبينما تختلف الوسائل والمعارف ، تبقى الغاية واحدة . فإذا كان واقع الغرب الوسيطي ، وخاصة حالته الاقتصادية ـ كما ذكرنا سابقاً ـ يرى في استعادة السيطرة على الشرق الإسلامي ضرورة حيوية لمستقبل أوروبا ، والقضاء على الدين الإسلامي بوصفه العقبة الرئيسية بوجه السيطرة ، وإذا كان ضعف البنية الحضارية لذلك العصر قد أنهى أحلام تحالف البابا والتجار ، فإنّ تطورات العلم وتسارع الخطوات المعرفية والحضارية ساهمت بشكل قوي في تأمين انتصار القرن الماضي ، الذي كثيراً ما عبّر عن نفسه في صيغة ثأر لهزيمة صليبية ، وإصرار على تدمير حضارة وعنفوان الإسلام .

مهّد العلم الغربي ، وفق تسلسل تاريخي وتراكم معرفي ، لولادة الرأسمالية التي كان الاستعمار ابنها الشرعي . أمّا العلاقة بين هذا الثلاثي ـ العلم ، الرأسمالية ، الاستعمار ـ فإنها لم تكن مجرد تولدات منطقية بقدر ما كانت إرادة في وضع غايات معينة للعلم ، انحصرت بشكل رئيسي في الاقتصاد والسيطرة . وبالتالي ، لا يجوز الاكتفاء باعتبار العلم الغربي سلاحاً حضارياً ، رغم قفزته النوعية ، بل ينبغي وضعه في سياق مسار عام حدّد للغرب رؤية ذاتية للعالم والطبيعة والإنسان والإلهي ، كما أمدّه بعناصر القوة التي تخدمه في تحقيق مصالحه الإستراتيجية .

وبذلك ، ينتج العلم الحديث نسقاً حضارياً وتقنية سيطرة ، وكل ما عدا ذلك ليس سوى اهتمامات هامشية . بمعنى آخر ، أسّس العلم انتماءً مادياً للإنسان الغربي ، عملت الرأسمالية على تحويله إلى ضرورة وجودية وبنية حضارية ، فألغت بعملها هذا بعداً هاماً من أبعاد الإنسان وأعني بذلك إنتماءه الروحي وعلاقته بالإلهي ، التي تستطيع وحدها أن تعطي للعلم غاياته الأكثر سمواً وإنسانوية . وبينما يعطي العلم لنزعة السيطرة أدوات هائلة جعلته يتحول بشكل مذهل إلى أهم وسيلة للسيطرة

على الشعوب ، ويغيب الحضور الإلهي عن مسار الحضارة التي قامت جوهرياً على العلم ، لا يبقى شيء أمام هذا الأخير لكي يمنعه من أن يتحول إلى علم تدمير رفيع المستوى . ولكنه ، بدون شك ، الأكثر وحشية : العلم النووي .

لا تستهدف هذه الملاحظة تشويه الحضارة الغربية جملة وتفصيلاً ، بقدر ما تسعى إلى توضيح الارتباط القائم في بنيتها وتاريخها بين الإبداع والغائية ، بين العلم والمعنى ، بسبب تأثير هذا الارتباط على حاضر ومستقبل العلاقة بين الغرب والإسلام . صحيح تماماً أن أوروبا نمت وسط تطور حضاري هائل ، زادت عظمته تلك الخطوات الكبيرة التي قطعها العقل البشري في سياق سعيه لتأمين حلول أكثر ملاءمة لظروف الإنسان وحاجاته وكماله . ولم يكن هذا التطور ضيق الفائدة والخصوصية ، وإنما كان أيضاً ينشر آثاره على مستوى العالم برمّته . لقد كاد الغرب أن يصبح « عالمياً » . أو أنه أصبح كذلك بمعنى ما . فقد طبعت أوروبا العالم بطابعها واخترقت حضارتها ثقافات الآخرين بمختلف هوياتهم ومناطقهم ، وألحت على تقديم نفسها كأفضل أنموذج حضاري وكأحدث محاولة للاستقطاب . وكان لها ذلك إلى حدّ كبير . فهي التي قلبت المجتمعات الغربية رأساً على عقب ، فاخترقت البنى القديمة والمتعدّدة وأسست بديلاً عنها نظماً فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وممارسة حضارية وتمدنية جديدة ، تتوضح في تفاصيلها رؤية الإنسان لذاته ولغيره . لكن مفارقة أساسية تطرح نفسها بإلحاح وتجاهد لإبراز المنطق الداخلي لهذا التطور الحضاري الذي لا يشكل تكراره عيباً لغوياً : ارتباط عالمية الحضارة بمبدأ الغلبة . وتبعية الإبداع . والنمو الداخلي لقوانين السيطرة والنهب الواسع النطاق . بعبارة أخرى ، إن الحضارة كمحصّلة نهائية لعظمة الإنسان شيء ، واستخدام الرأسمالية لها شيء آخر . وبنفس المستوى من التحليل يصبح

تفاعل الشعوب الأخرى مع حضارة الغرب شيئاً ، وخوفها منها شيئاً آخر . وكما ارتبط الإنجاز الحضاري وضرورة تعميمه بدوام رغبة الهيمنة والاستغلال والغلبة ، كذلك ارتبط انتشارها في العالم بقلق وتحدّي مستقبليها في المشرق عامة ، ولدى المسلمين بشكل خاص . وفق هذا السياق نفهم الأوّليات التي انتقلت عبرها الحضارة الغربية من الإبداع إلى الأزمة ونفهم كذلك الأسباب التي جعلت « عالمية » هذه الحضارة مدخلاً لحل تلك الأزمة ، بحيث لم تعد عملية التعاطي مع الحضارة ممكنة ، بشكل موضوعي ، كما ينبغي أن يكون الموقف منها قائماً على قدر كبير من الحذر . ذلك أن الحدّ الفاصل بين الحضارة وغايتها قد اعتراه غموض كبير ، على الأقل بالنسبة للأوروبي الذي جعله هذا الغموض ينظر إلى الحالة الاستعمارية كتعبير عن حالة حضارية وهي في طريق التحقق لخدمة الإنسانية ، بالمقابل ، جعل الغموض نفسه صورة مثلى لانتشار الحضارة في بلاد الإسلام . تلك الصورة التي جعلت المسلم والشرقي عامة ينغمس في ارتباك وازدواجية وينتقل من الدهشة إلى الاستلاب أو من الخوف إلى التعصّب . فقد قدّم الغرب حضارته دائماً على طبق رهيب : ساحرة في الشكل ودموية في المضمون .

تبعاً لذلك ، يصبح لزاماً علينا اتخاذ عدة اعتبارات التي بدونها نغرق في رمال متحركة يصعب الفلات منها أو البقاء وسطها . أن نأخذ بعين الاعتبار مثلاً الفرق القائم بين الإنسان الغربي وبين المصير الذي رسمته له الرأسمالية ، ذلك المصير الذي يكاد يوحد بينهما ويقدّمها للعالم في ثوب واحد . ويساهم هذا الاعتبار ليس فقط في توضيح التحليل الذي يعتبر الإنسان الغربي موافقاً على استباحة أرواح وثروات وثقافات شعوب الشرق قاطبة ، وإنما ايضاً في رصد مصير هذا الإنسان نفسه كضحية لنسف الحضارة التي صمّمت أن تكون أكثر مادية وأكثر نزوعاً نحو السيطرة والحروب .

أن نأخذ بعين الاعتبار الفرق القائم بين الرأسمالية كتطور أوروبي ذاتي وبين الشكل الذي وصلت إليه عندما سعت لتجاوز أزمتها الداخلية بواسطة الاستعمار . ذلك أن نمط إنتاج الرأسمالية شيء ، وتحويلها إلى منظومة عالمية شيء آخر ، وإن كان التكامل بينهما حالة طبيعية في منطق الرأسمالية نفسها . وإلا ما معنى أن تبقى هذه الأخيرة ميزة جوهرية للغرب وانتشارها في الخارج تشويه متعمد لها ، بحيث لم يخلق الانتشار رأسمالية شرقية بقدر ما خلق تبعيّة اقتصادية يتوازن فيها غنى الغرب وفقر الشرق : الأول يصنع والثاني يستهلك ، الأول يستفيد من المادة دون أن يملكها ، والثاني يملكها دون أن يستفيد منها .

وأن نأخذ بعين الاعتبار الفرق القائم بين العلم وغاياته . لقد كانت الصورة دائماً ملتبسة ، وكل محاولة لرصد غائية العلم الغربي كانت تفسر وكأنها إيديولوجيا منافية للعلم وممارسة مدافعة عن الجهل والتخلّف . وقد برر ذلك ارتباط تقدّم الغرب مع تقدّم العلم . لكن ذلك ينبغي أن لا يبرر السير وفق الغائية التي أعطتها الرأسمالية لهذا العلم . فهي لم تحوّل العلم إلى ملكية عالمية ومعرفة إنسانية ، بل جعلت منه احتكاراً غربياً واستعملته كوسيلة هامة من وسائل بسط السيطرة ، وكتعبير عن الاختلاف النهائي في مستوى المعرفة واستحالة التطابق أو التصالح بين معرفة الغرب ومعرفة غيره ، خاصة وإن إيديولوجية الرأسمالية والسيطرة تعتبر أن كل تقدم علمي أو معرفي في الخارج يهدّد على المدى الطويل مستقبل المصالح الستراتيجية للغرب . كما أنها لم تجعل من التقنية مجرد تطوير لوسائل الحياة وتخفيف لصعوباتها بقدر ما حولتها إلى سلاح أساسي كانت تشهره في كل زمان ومكان . وبالتالي ، يغدو بديهياً أن يؤدي ذلك كله إلى عزل العلم عن الحكمة ، والمادة عن الروح ، والإنسان عن الآلة ، وذلك طبعاً لصالح العلم والمادة والآلة بحيث يتحول العلم إلى « علموية » ، والمادة إلى حاجة غير محدودة ، والآلة

إلى معبود جديد . أن نأخذ بعين الاعتبار أخيراً ، الفرق القائم بين عالمية الحضارة وأنويّتها . أي : أن نلحظ بدقة الأسباب التي تجعل الحضارة متماهية مع مبدأ المركز أو المركزة ومتناقضة مع مبدأ التفاعل والاعتراف بالخصوصيات الحضارية والتعايش معها . بحيث يبدو واضحاً أن إلحاح الغرب على أنويّته - أي : على تقديم نفسه كأنموذج عالمي يقوم على غلبة الذات ونفي الآخر - ليس مجرد ظاهرة بريئة ترتدي ثياب الإنسانية والعالمية وإنما هي محاولة واعية لإقناع الغربيين بسموّ حضارتهم وبضرورة نشرها في العالم وبأهمية قبول القيام بهذه المهمة والتضحية في سبيلها . وفي نفس الوقت تسير هذه المحاولة جنباً إلى جنب مع مهمة إقناع « الآخر » بدونية حضارته وبحتمية خضوعه لحضارة الغرب وقبوله بها ، إذ بدون ذلك يسير بخطى ثابتة نحو زواله ؟

عندما نأخذ كل ذلك بعين الاعتبار ، نفهم كيف سارت حضارة الغرب باتجاه مادي صرف فتجاوزت الحد الأدنى من الروحانية المسيحية ، وتخلت بشكل ملحوظ عن حلول الألوهيّة في العالم وأطلقت العنان لشهوات الإنسان وصاغت نظاماً أخلاقياً جديداً يبرز الأنانية والفردانية والحيوانية ، بحيث يغدو « الشوق إلى الرفاهية والدعة أقوى بكثير من السعي وراء تحقيق حاجات الروح »[1] . وبحيث يصبح الفرد الغربي ، من أجل ذلك ، أكثر استعداداً لممارسة فن العنف ضد الذات وضد الآخر . كأن يقبل بمحاربة أقرانه من الغربيين أو يشارك في مسيرة استعمارية لم تستقر إلاّ على سيل جارف من الدماء والدمار . وبالتالي فإنّ ميزة الحروب والسيطرة لم تكن استثناءً طارئاً وغريباً عن حضارة أرادت أن تنمو على قاعدة إخضاع الآخرين مهما كان الثمن ، وعندما يقول نيتشه أنه : « ستحدث حروب لم يحصل مثلها على

---

(١) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب - صفحة ٤٣ - دار الآفاق ، بيروت ١٩٨١ .

الأرض » ، ويصف القرن العشرين معتبراً أن « القرن المقبل سوف يحمل إلينا صراعاً من أجل السيطرة على الأرض » ، فإن ذلك لا يعني أكثر من تحوّل الإبداع الحضاري إلى تقنية حرب ونزعة سيطرة لم تقف بوجهها أسوأ النتائج وأكثرها بشاعة بالنسبة للإنسانية كلها[1] .

لا تبخل الوقائع التاريخية في تقديم المعطيات التي تجعل من هذه الرؤية بداهة منهجية . ذلك أنه ، وقبل أن يشارف نجم القرن التاسع عشر على الأفول كانت حضارة الغرب قد نسجت مسارها العام وتماهت بقوة مع ذروة الازدهار الاستعماري : تحوّل بريطانيا العظمى إلى إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس ، وفرنسا ما بعد هزيمة نابليون استقرت في أفريقيا وتنتظر في الشرق الأوسط تعويضاً عن الفرص الضائعة في جنوب أميركا ؛ وبينهما ، باشرت الدول الأوروبية الأخرى بعد خسائرها في حروب القرن الماضي ، البحث عن مواقع لها في العوالم الأخرى حيث تتعاظم ثروات بريطانيا وفرنسا ، وتبدأ معهما تنافساً بطيئاً انتهى بحربين عالميتين وضحايا بشرية لم يعرف التاريخ لها مثيلاً . وهكذا يتحدد المنهج : الحضارة تنتج ازدهاراً عالمياً ـ بالمعنى الاستعماري ـ وتبرّر النزوع الغربي العام نحو السيطرة والتنافس على « ضحية » واحدة . وإذا كانت سمة المسار الحضاري قد تماهت مع عنف في الخارج وحروب بين دول الغرب ، فإن تلك السمة نفسها لم ترخ أثقالها فقط على ذلك « الخارج » ، وإنما كانت قد جعلت لمسار الحضارة منطقاً داخلياً سارت سلبياته ونمت وسط الانبهار الكبير أمام انتصارات العلم والحروب ، ووضعت الإنسانوية الغربية كلها أمام مأزق حاد بات يهدد بتحويل عظمة الحضارة إلى مأساة .

---

(١) حول هذا الموضوع ، من المفيد مراجعة مؤلف شار اندلر : نيتشه ، حياة وفكرة ، الجزء الأول .

Charles Andler : Nietzsche , Savie dt sa pensée. 3 volumes, Ed. N.R.F. Paris, 1358 .

إن حديث نيتشه عن حروب تهدف للسيطرة على الأرض لم يعط للمسألة سوى نقطة البداية : إنسجام النسق الحضاري ووحدة حركته العامة باتجاه الخارج والداخل في آن واحد . استعمار الخارج وتمدين الداخل يشكلان التجسيد الفعلي لمسار الحضارة الغربية . أمَّا الغاية التي يسعى إليها هذا المسار فقد توضحت وبرزت من خلال المنطق والمنهج الذي تنضبط وفق شروطهما أهداف الحضارة وتجلياتها وانهيارها . . . وتتأكد هذه الشروط من خلال المنطق الذي يعتمد العلم والتقنية كأدوات للرأسمالية ، ويتمظهر في تحويل هذه الأخيرة إلى استعمار « الآخر » وتمدين الذات . وتبعاً لذلك ، ومن خلاله ، يسعى الإنسان الغربي ، بعد أن أصبح بدوره ضحية واعية لحضارة رأس المال ، للبحث عن تحقيق دائم لرغباته الأكثر مادية وحيوانية على حساب ماهيته الأكثر إنسانوية وروحانية . خاصة وأن الرأسمالية - برأي نيتشه - هي التي جعلت القرن التاسع عشر « أكثر حيوانية وغموضاً »[1] ، وهي التي حدّدت للإنسان بعده الواحد وأقنعته باستحالة رفاهيته من دون نهب « الآخر » ونفيه ، بحيث بدأت سعادة الذات تتماهى مع تعاسة الآخر وتتوحد معها في علاقة وجودية . من أجل ذلك كان يجب أن يتحول رأس المال إلى مشروع حضاري ، والعلم إلى « علموية » نفعية ، كما كان على التقنية أن تجعل ، بدورها ، من الآلة معبوداً جديداً ، ممهدة بذلك إلى نشوء مدنية تعلن تراجع الإبداع الحضاري وولادة الفرد المستهلك والمستلب والضحية باختصار ، كان منطقياً أن تمارس

---

(١) يقول نيتشه في كتابه « العدمية الأوروبية » أن « القرن التاسع عشر هو أكثر حيوانية ، أكثر غموضاً ، أكثر بشاعة ، أكثر واقعية ، أكثر عافية ، ومن هنا هو « الأفضل » ، الأكثر ملكية ، الأكثر خضوعاً لكل واقعية ، الأكثر حقيقة لكنه ضعيف الإرادة ، حزين ومليء بالرغبات السوداوية ، قدري . . . » .

Nietzsche : Nihilisme Européen . Ed . kroner, vol. XV. P.P.137-238 .
Traduction francaise par Angéle Kremer Marietti . Ed . 10\18, Paris 1976. P.P. 255-256 .

الحضارة المذكورة ، وهي في سبيل تحقيق أهداف الغلبة في الخارج ، نوعاً من العقلانية التي ترفع قيمة المادة وتخفض قيمة الروح . لقد وجدت مناسباً تماماً أن تقتل الله من أجل رخاء الإنسان ؟ من الناحية العملية ، تحول رأس المال من نقد إلى إيديولوجية ، ومن خصوصية غربية إلى ظاهرة عالمية . كما أصبح « المال » نوعاً من « الشيء في ذاته » يبحث عنه الإنسان في كل مكان ويربط مصيره به ولا يتردد من أجل ذلك في القيام بأي عمل يؤدي إليه . والاكتشافات العلمية التي زادت من وتيرة التصنيع ، فقد تحولت بشكل متسارع إلى أداة ضرورية لتحصيل المال . وهكذا تصبح الرأسمالية بما هي تجميع وتكديس للمال عقيدة جديدة . وحسب ما جاء على لسان آدم سميث في كتابه « ثروة الأمم » ، فإن المال قد احتل مقام الأنبياء : جمّعوا ، جمّعوا تلك هي الشريعة والأنبياء »[1] . وتعطي شريعة آدم سميث صورة عن مسار لم يقف عند حدود الاقتصاد بل تعدّاه إلى مجمل الطبيعة الإنسانية التي بدأت ترتسم معالمها وسط نمو جديد للمفاهيم : مبادىء العقل ، حرية الفرد ، الاقتصاد ، التجارة ، الصناعة ، رأس المال ، الربح ، الخسارة ، العرض والطلب ، المؤسسات ، السوق الخارجية ، السعادة القائمة جوهرياً على المادة التي ترمز إليها هذه المفاهيم مجتمعة ومنفردة . . . وأكثر من ذلك ، تأخذ هذه « الشريعة » صفة أكثر شمولية يظهر من خلالها أن ضرورة تحويل كل شيء إلى نقد - رأس مال قد أصبح مهمة تاريخية حملت لواءها برجوازية القرن التاسع عشر ، أو كما يقول كارل ماركس : « وفّروا ، وفّروا ، أي : أعيدوا من جديد وباستمرار تحويل أكبر قسم ممكن من القيمة الزائدة أو من المنتوج الصافي إلى رأسمال !

---

(١) ينقل ماركس عن آدم سميث قوله : « جمعوا ، جمعوا ، تلك هي الشريعة والأنبياء ! أن السبب المباشر لزيادة رأس المال هو الاقتصاد لا الصناعة . وفي الحقيقة ، أن الصناعة تقدم مادة المدخرات التي يخلقها الاقتصاد » . رأس المال ، الجزء الثالث - باريس ١٩٥٧ ، صفحة ٣٣ .

التكديس لأجل التكديس ، والإنتاج لأجل الإنتاج ، ذلك هو شعار الاقتصاد السياسي الذي أعلن المهمة التاريخية للعصر البرجوازي »[1]

. وعلى قاعدة هذه الشريعة يتحول النقد إلى إرادة من نوع آخر ، إرادة رأس المال ، التي لا تلغي الإنسان مباشرة ولكنها تعطيه: « الشعور بالقوة الأكثر علواً ، والوعي الأفضل » كما يقول نيتشه[2] .

لا شك أنَّ علاقة كهذه مع رأس المال سوف تنعكس على مجمل الحياة في أوروبا ، كما أنها لم تنحصر في مجال واحد من مجالاتها ، وأعني به الاقتصاد . فقد أفرزت مجموعة تحولات ترسخت بعمق في البنية التاريخية للغرب الحديث وذهنيته ، إضافة إلى أنها غرست في الوعي الجماعي صورة محددة عن الطبيعة والعالم والإنسان والمستقبل بحيث يمكن القول أن معظم الغربيين ارتضوا بوعي وبغير وعي أنموذجية الرؤية التي أضفتها الرأسمالية على الوجود ، وأن عدداً قليلاً جداً منهم استطاع التخلص من هذه الرؤية أو رفضها ، وإن كان ذلك في وقت متأخر أو في سلبية لا تعكس أكثر من حروب خارج سجن الحضارة ورساميلها وآلاتها . بيد أن ما يهمنا أكثر من غيره في هذا المجال ليس مجرد التوقف عند هذه التحولات أو تلك الرؤية ، وإنما انعكاساتها على تعامل هذا الوعي الجماعي مع « الآخر » أيّاً كان .

لقد أعمى المال بصيرة الغرب ، ولم تعد الحياة بالنسبة إليه أكثر من مجرد سعي حثيث لإغراقها في مادية لا نهاية لها . ولم يعد « رأس المال » مجرد حالة عابرة أو خاصة ، فقد طبع كل شيء بطابعه ، وصار هناك رأس مال للفرد والطبقة والدولة . . . وبات كل شيء رهين إرادته ، وأصبحت هذه وفق هذا التحليل ، تغدو الرأسمالية نقطة ارتكاز في مسيرة الغرب نحو الخارج . فهي لم تكتف بأن أفلتت النمو الداخلي

(١) المرجع السابق ، الصفحات ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) نيتشه : العدمية الأوروبية . مرجع مذكور ، صفحة ٢١٥ وما بعدها .

وأوصلته إلى أزمة عبّرت عن نفسها بزيادة الإنتاج على الحاجات وبعجز تطويع هذه الأخيرة لصالح السلعة ، بل تعدّت ذلك إلى نشر رغباتها في بلاد الآخرين كحل مؤقت لأزمتها وكإصرار على عدم تجاوز منطقها الاقتصادي نحو الأفضل ، لها ولغيرها . لذلك لم تتردد « إرادة رأس المال » في تبرير الاستعمار ومكننة الإنسان الغربي الذي سرعان ما وجد نفسه مندفعاً نحو الخارج ، ليمارس هناك التنافس والقتل والنهب والسيطرة أثناء بحثه عن أرباح اقتنع بأنها وسعادته شيء واحد ؛ وترسخ في وعيه اعتبار زيادة الأرباح ، زيادة في السعادة والرفاهية ، والحفاظ عليها يعني الاحتفاظ بمعنى الحياة القائم على نشوة الجسد .

وهكذا كان . فقد اندفع الغرب نحو الخارج ـ الشرق ، أميركا ، أو العالم الثالث ـ مدججاً بالعلوم والرساميل وباشر عملية نهب جماعية أطلق عليها اسم النمو ، وهو ما سوف يرتكز عليه حاضر الغرب ومستقبله ، والذي انطلاقاً منه ، سوف يقام صرح المدنية وسوف تتواصل رفاهية الفرد وانتظام الحياة وتوازن المجتمع ، ثم لا يلبث هذا النمو أن يتحول إلى حاجة وجودية وبالتالي إلى حالة إيديولوجية ، بحيث لا يعد باستطاعة الغربي العاذي أن يرى نفسه خارج هذا النمو ، الذي أصبح هو ذاته أسيره ، ويمارس نتائجه بدون تردد بوعي أو بشكل آلي . غير أن النمو ـ بما هو تجسيد لشريعة رأس المال وإرادته ـ قد تجلّى في وقائع تاريخية يغلب عليها العنف كوسيلة لتحقيقه والتوصل إلى سيطرة عالمية على الطبيعة والبشر أي : إلى نمو قائم على نهب منظم وغير محدود . وطالما أن « الخير هو أن تكون لديك الرغبات الممكنة وإيجاد الوسائل لإرضائها » ، فإن العنف سوف يصبح ضرورة حيوية لاقتصاد يقوم على مبدأ « النمو من أجل النمو » . أما العنف نفسه فإنه لا يحتاج إلى كثير من التبرير أو البحث ، وكل تفكير فيه « يكون عقيماً ووهمياً ، إذا لم يبرز أصله الحالي : أعني مجتمع النمو والتنافس الهمجي بين

الأفراد ، بين الجماعات والشعوب ، الذي يحمل في ذاته الجريمة ويولدها بالضرورة »[1] .

انطلاقاً من إرادة هذا « الإله الخفي » - وهو النعت الذي يطلقه غارودي على النمو - تكونت علاقة الغرب الرأسمالي مع « الآخر » ، واتضحت صورة الأنموذج الذي يسعى إلى تعميمه : أنموذج الإشباع السريع واللامحدود للرغبات الأكثر مادية في الإنسان . وكما أدى الأنموذج نفسه إلى حروب كبرى بين دول الغرب ، عندما أراد من الغربيين أن يستهلكوا في نصف قرن كمية من السلع يحتاج تصريفها إلى مضاعفة الزمن والناس ، فإنه - أي : أنموذج النمو - يسدّ منذ الآن آفاق المستقبل ، ليس فقط بالنسبة لنفسه - أي : للغرب - بل أيضاً بالنسبة للعالم برمته . وهنا بالذات تكمن الجريمة التاريخية للرأسمالية في لحظة تحولها إلى حالة وجودية وأنموذج عالمي . وقد تحدث غارودي عن هذا المستقبل المعلق بكثير من الألم والتشاؤم ، ولكن أيضاً بكثير من الحقيقة :

« . . . إن طاقات وموارد قد تراكمت منذ ملايين السنين في أحشاء الكوكب وقد سمحنا لأنفسنا بالاستئثار بحق استهلاكها في مدى جيل واحد . هكذا يرجع تاريخ الاستخراج المنجمي للفحم إلى ثمانمائة عام ولكن نصف هذا الفحم تمَّ استخراجه في غضون الثلاثين سنة الأخيرة . ونصف البترول الخام المنضوح منذ بدايات البشرية قد تم نضحه في غضون السنوات العشر الأخيرة . وإذا تمَّ إنشاء المراكز النووية المنظور إنشاؤها سوف لا يبقى من الأورانيوم شيء بعد عشرين سنة . وحتى إذا كنا سنكتشف بالنسبة للبترول والأورانيوم ، حقولاً ومناجم جديدة يمكن استثمارها كالحقول والمناجم المعروفة حالياً ، فإن أجل النضوب ، إذا استمر الإنفاق يزداد بالمعدل الحالي ، سوف لا يتأخر أكثر من سنوات » .

---

(١) روجيه غارودي : نداء إلى الأحياء . الصفحات ١٨ ـ ١٩ ـ دار دمشق ١٩٨١

وتعاني الطبيعة أيضاً من نفس المصير . فالغابات على سبيل المثال تعيش مرحلة الفناء التدريجي ذلك أن « ثلث الأشجار التي كانت موجودة عام ١٨٨٢ (حوالي مليارين من الهكتارات) قد أزيل حتى عام ١٩٥٢ . والإتلاف المستمر وهو آخذ بالتسارع : كل دقيقة يتلف الإنسان عشرين هكتاراً من الغابات في العالم . فإن كمية الورق اللازمة لصدور عدد الأحد من النيويورك تايمس ، الذي يحتوي على ٨٠ ٪ من الإعلانات الدعائية ، تتطلب قطع ١٥ هكتاراً من الغابات الكندية ، ويتطلب عددها اليومي ستة هكتارات ، فاجتثاث الأحراج الجاري بلا روية وتبصّر عن أطراف الهيمالايا يحدث اليوم فيضانات البنجالاديش المدمرة كما تولد أشكال الزراعات الموروثة عن الاستعمار ، ألوان الجفاف في الساحل »[1] . وأخطر من ذلك كله ، أن هذا النمو بات يهدد الجنس البشري ويضعه في مأزق وجودي . « والحال أن الأرض قد قضت مليوني سنة من أجل أن تصبح مأهولة بأول مليون من السكان . وأتاحت ستة آلاف سنة من الزراعة فحسب التوصل إلى مائتي وخمسين مليوناً . وكفت ألف وخمسمائة سنة لمضاعفة هذا الرقم . ومنذ التصنيع تزايد المعدل بسرعة تبعث على الدوار : ففي ١٨٣٠ بلغ العدد أول مليار ، والمليار الرابع في عام ١٩٧٨ . كيف نستطيع أن نستقبل من هنا إلى مدى عشرين عاماً ، حتى مع تحديد النسل ، مليارين جديدين من الكائنات البشرية ، على كوكبنا ؟ ولا ينبغي أن ندين نسبة الولادات لدى الفقراء وحدها ذلك أن عشرة ملايين من الغربيين يستهلكون ويلوثون أكثر مما قد يفعل ، على المستوى الحالي ، أربعة مليارات من الفلاحين الهنود . . .

في جنوب شرق آسيا يسمح التقدير الاستقرائي البسيط للاتجاهات الحالية أن نتوقع في مدى عشرين سنة ، بأن ثمانين مليوناً من الأشخاص

(١) المرجع السابق ، الصفحات ١٢ ـ ١٣ .

سوف يموتون جوعاً كل عام ، في حين أن هذه المنطقة سوف يكون عدد الشباب البالغين من العمر فيها أقل من خمس وعشرين سنة مليارين ونصفاً . فهل يمكن جواباً أن نسقط من الحساب ألاّ يكون هذا الاقتران بين شبيبة وبؤس يسد المستقبل متفجراً »[1] .

بالمقابل تغرق حضارة الغرب في رفاهية متطرفة ، ويلفّ عقلها صمت قاتل . ما ذكره غارودي عن نمو الغرب على حساب مستقبل بقيّة العالم يلقي ضوءاً ساطعاً على حقيقة المسار الحضاري للغرب ، التي لا تنفصل عن تاريخ الغرب لحظة بحثه عن إشباع لا إنساني لحاجاته المادية . ولا تطال هذه الحقيقة ، بسلبيتها ، الواقع الذي يعيشه حالياً « الضحايا » ومن بينهم المسلمون ، ولكنها أيضاً تخترق الحضارة الغربية في أعمق تفاصيلها . ذلك أنها لم تكتف بوضع الإنسانية في خدمة الاقتصاد ، بل أفسدت أيضاً جوهر الإنسان وشوّهت الحضارة التي ابتدعها . لقد حققت الرأسمالية عبر انتماء حضارتها ، رغبات الإنسان الأكثر مادية ، ولكنها في نفس الوقت ، قضت على تفكيره بوصفه إرادة متدفقة تدفعه دائماً نحو البحث عن توازن بين سعادة « الأنا » وحب « الآخر » .

يقول نيتشه : إنّ زمن الرأسمالية هذا « يتحدث كثيراً عن الاقتصاد ، وهو مسرف بقوة ، ولكنه يفسد أثمن ما فيه ، وهو الفكر »[2] . ويبَشر بمصير العالم الغربي الذي بعد أن أصبح « متخماً بالثروات والأفكار الجاهزة ، وصل عملياً إلى زمن خيبة الأمل »[3] .

كيف تم ذلك ؟ وكيف أفسدت إرادة رأس المال حضارة الغرب

---

(١) المرجع السابق ، الصفحات ١٤ ـ ١٥ .

(٢) ذكرها دوبري في كتابه « سياسة نيتشه » ، صفحة ٤٥ .

Rene-Jean Dupuy : Politique de Nietzsche . Ed . Armand Colin . Paris . 1969 .

(٣) المرجع السابق ، صفحة ٢٦ .

والفكر وأوصلت الإنسان إلى اليأس ؟ لا شك أن الإجابة على هذه التساؤلات تأتي من الخارج ، أي : من نتائج تعميم الحضارة وبسط السيطرة ، ولكن ما هو يقيني أكثر كونها محصلة منطقية للرؤية التي اصطنعتها الحضارة لذاتها في الداخل قبل أي شيء آخر . وأعني بذلك مسار العزل المضاعف : عزل العلم عن الحكمة والإنساني عن الإلهي .

٢ ـ التقنية وموت الله :

كتب هنري هايني إلى صديقه لوب في ١٠ تموز ١٨٣٣ رسالة يعده فيها بأن الغربيين « سيأكلون في المستقبل كل يوم لحم البقر بدلاً من البطاطا ، وأنهم سيعملون أقل ويرقصون أكثر »[1] . وقد حققت الرأسمالية هذا الوعد ، لكن هذا الأخير كان قد سار ، أثناء تحققه ، نحو عدم إنسانية بشكل شامل . وكما ذكرنا سابقاً ، فإن إرادة رأس المال بعد تحوّلها إلى دينامية فردية وجماعية ومقياس لعلاقة الغربي مع العالم ، استوت على نحو داخلي جنوني قائم على نهب خارجي أكثر جنوناً . بحيث اشترط نمو الداخل اللامحدود نهب الخارج بلا حدود ، وباتت رفاهية « الأنا » بوصفها ، التعبير العملي عن النمو أكثر تبعية لبؤس الآخر الذي هو نتيجة طبيعية للنهب .

على قاعدة هذه العلاقة الاشتراطية بين النمو والنهب ، أرست الحضارة الغربية الحديثة مناهجها وغاياتها ، وبات الإنسان تجسيداً للعلاقة وغاية للحضارة التي تؤسسها . فهو ، إذ يقبل برفاهية مطلقة ، أصبح مرغماً على تقبل النهب المطلق بكل نتائجه ، ثم لا يلبث أن يتوحّد القبول بالنهب مع رفاهية الذات ويتحول إلى وعي تنال منه التبريرات

---

(١) هنري هايني : مجموعة رسائل إلى دانيس . برلين ١٩٠٦ ـ الجزء الثاني ، صفحة ٢٧ نقلاً عن أوغست كورنو : ماركس وانجلا ، حياتهما وأعمالهما الفكرية ـ ترجمة محمد عيتاني ، دار الحقيقة ـ بيروت ١٩٧١ ، الجزء الأول ، صفحة ٢٩ .

وتنهمر تقدماً وإبداعاً وسمواً ، لا يعكر صفاءها سوى وخز ضمير عابر تجاه المأساة التي أصابت الإنسانية غير الغربية . فالصناعة المدنّسة التي التهمت ـ داء الليل السماوي ـ كما يقول نوفاليس في أناشيد الليل[1] ـ لم تعد تشكل التعبير الأولي عن تقدم العلم والتقنية ، وإنّما تعدتهما إلى صياغة علاقة معينة بين الغربي والعالم ، تتضمن ميلاً لتحويل نفسها إلى أنموذج علاقة عالمية انطلاقاً من أنموذجية الإنسان الغربي . وبينما تساهم انطلاقة العلوم في ولادة الحضارة ـ تغدو هذه الأخيرة وقد أصبحت أسيرة منهج ومسار ، أتقنت الرأسمالية وضعهما في خدمة إرادة رأس المال والصناعة الاستهلاكية ، وتبعاً لذلك ، لم يعد مستغرباً فهم الأولويات التي تجعل حضارة قائمة على أساس وحيد من العلم والتقنية ، أكثر استجابة لحاجة معينة ووحيدة عند الإنسان . وهي سعادته المادية فقط ، بعد أن تمّ استئصال نصفه الثاني الروحي والتجاوز لزمن المادة والجسد . لقد بدا وكأن كل شيء « يمضي على أحسن وجه في الغرب عند ظهور البخار والكهرباء ، ولكن هذه الحركة العلمية والتقنية قد تسارعت إبان جريانها وأخذت صورة عَدوٍ جنوني واخترقت المادة وحررت فيها طاقات خاصة لا تزال تمضي في فرض نفسها على الإنسان . لا على الإنسان الغربي وحده ، بل ، وفي عالم أصبح عالمياً يسوده الغرب ، على جملة الكرة الأرضية »[2] .

---

(١) يقول نوفاليس في « أناشيد إلى الليل » :

هل ينبغي للصباح أن يعود دائماً ؟

ألا تنتهي قدرة الأشياء الأرضية ؟

إن صناعة مدنسة تلتهم .

رداء الليل السماوي :

ذكرها أرنست فيشر في كتابه « ضرورة الفن » ـ ترجمة ميشال سليمان ، دار الحقيقة ـ بيروت ، ص ٧١ .

(٢) روجيه غارودي : حوار الحضارات ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ، دار عويدات ١٩٧٨ . =

وهكذا ، تنضوي الحضارة تحت صورة الانتشار العالمي لنتائج العلوم والتقنيات ، ويسعى الإنسان الغربي ، استناداً إلى هذه الصورة ، نحو تطابق مفتعل بين ذاته كفرد وبين صفته كرمز للحضارة . وكانت إرادة رأس المال قد استوعبت العلم والعقل والفعل ووضعتهم في خدمة نحو الذات ونهب الآخر ـ الاستعمار كمعطى تاريخي ـ فإن الحضارة الصادرة عنها لن تتأخر في إخفاء معنى معين على حياة الإنسان ، يعزله ببطء ولكن بإصرار عن الألوهية الكامنة فيه والتي تهدد وحدها بمنعه عن القيام بالدور الذي ارتأته له حضارة المادة والسلعة . ولكي لا تحول روحانية الفرد دون القبول بمادية الحياة ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة والسلعة . ولكي لا تحول روحانية الفرد دون القبول بمادية الحياة ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من دلالات ثقافية وسياسية ونفسية واقتصادية على المستويين الغربي والعالمي ، فإنّ منطق الحضارة الغربية لن يتردد في تذليل كافة العقبات أمام سيادة مادية الفرد على كل ما عداها . ومن البديهي أن يلجأ هذا المنطق إلى العلوم والتقنيات لينطلق منهما في عملية تبرير شاملة لسعادة ورفاهية الإنسان الغربي الذي يعيش بفضلها في مدنية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً ، لا من ناحية الإشباعات الفردية ولا من ناحية البنية الاجتماعية أو النظام السياسي والمكانة العالمية . وبالتالي ، فإنّ الفرد الغربي ، بعد أن يقبل بهذا المنطق ، يصبح عديم الروحانية والإنسانوية وأكثر استعداداً لممارسة العنف من أجل إشباع رغباته وغرائزه . وتصبح الحياة كلها بالنسبة إليه بمثابة « امتلاك ، قمع ، إخضاع كل ما هو غريب وضعيف ، ظلم ، قساوة ، فرض لأشكاله الخاصة ، دمج ، وعلى الأقل ، استغلال »[1] . كما تصبح غرائزيته

= طبعة ١٠/١٨ ، باريس ١٩٧٣ .

(١) نيتشه : ما وراء الخير والشر . وكذلك سياسة نيتشه ، مرجع مذكور ، صفحة ٥٤ .

مدخلاً إلى الحضارة نفسها . وبلغة نيتشه ، فإن « القرن التاسع عشر يبحث لنفسه غرائزياً عن نظريات يشعر بفضلها بتبرير خضوعه القدري للفعل »[1] . وبأن علاقة الإنسان بالعالم تؤكد بصورة إجمالية على « أن هناك علامات تشير إلى أنّ أوروبي القرن التاسع عشر عنده خجل قليل من غرائزه »[2] ، وبسبب ذلك استطاع أن يتقدم « خطوة إضافية في الحضارة »[3] .

لكن اختصار الحياة عند حدود المادة والغريزة وما يرتبط بهما من عنف مضاعف نحو الذات ، بقتل الألوهية الكامنة فيها ـ ونمو الآخر ـ باغتصاب وجوده كله ، لم يكن أكثر من تشويه للحضارة والعلم وعزلهما عن غايتهما الفعلية وهي سعادة الإنسان كإنسان بصرف النظر عن أصله وجنسه ولونه وتاريخه . . . الأمر الذي يكشف النقاب عن مأساوية الاستعمال الرأسمالي للحضارة والعلوم ، استعمال جعل من العلم أسطورة لحياة ترى نفسها سبباً وغاية لذاتها ، وتقطع علاقتها نهائياً بكل ما يتجاوزها . فالعقلانية التي هي رمز التعبير عن وحدة الحضارة الغربية والرأسمالية ، لم تستطع حتى الآن تحديد ماهيّة الوجود الإنساني ، بمعنى تفسير الأسباب التي تجعل حياة الفرد عابرة وليست أبدية . ففي تعارض مع عقلانية الإسلام يبدو الفكر الغربي مفتقداً لعلم إنساني ـ أنتربولوجيا ـ محددجيداً ومقبول بشكل عام . صحيح أنه يمتلك كمية هائلة من المصطلحات التي تتناول الإنسان في غموضه وتعدديته . ولكنه يبرهن أيضاً عن عدم قدرته على إعطاء تعريف متماسك للوضع البشري ، ولم تعرف أية حضارة أخرى إهمالاً شبيهاً بإهمال حضارة الغرب بطريقة شاملة ومنتظمة ، للسؤال المتعلق بلغز الحياة ومعناها : « لماذا نحن

(١) نيتشه : العدمية الأوروبية ، مرجع مذكور ، ص ٢٥٦ .
(٢) المرجع السابق ، صفحة ٢٨٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨١ .

ولدنا ؟ ولماذا نعيش ؟ ولماذا يجب أن نموت ؟ »[١] .

إلى هذا الإهمال وعدم القدرة يعيد روجيه دي باسكيه أزمة المنطق الداخلي للحضارة الغربية وعقلانيتها : « هذه هي مفارقة الحضارة التي أرادت نفسها ، في البدء ، « إنسانوية » ، أي : أنّها جعلت الإنسان مبدأ وغاية كل الأشياء ، حتى أنّ مصطلح الإنسان نفسه قد تفكك . فالتطورية جعلت منه فرداً مكتملاً ، ومن ثم جاءت فلسفة العبث لتنزع عنه القليل من التماسك الذي بقي له . فالإنسان ، من الآن فصاعداً ، شبيه بدمية متحركة مهزوزة ومفككة المفاصل بسبب آلية وضعيته في قطار ، لكن حيث لا يتوصل أبداً إلى السيطرة على الاحتياج غير المنتظم والحركة المتسارعة . القول أنها عبثية ، يعني عملياً أن الحياة على الأرض قد فقدت معناها »[٢] . وعندما تصبح الحياة الإنسانية بدون هدف أو غاية تكون قد أصبحت هي نفسها أساساً ونهاية للوجود ، وبالتالي . تكون الألوهية بوصفها أصلاً للحياة ومعنى قد انتفت ، وتكون الإنسانية قد غرقت في وهم سعادة مادية ، يؤكد منطق الوجود نفسه على كونها مؤقتة وعابرة وبدون جذور وتواصلات . لكن ، قبل أن يكتشف الإنسان انفصاله عن « الإلهي » الذي يمنح لوجوده معنى وديمومة ، نشط الغرب الرأسمالي والعلمي والتقني في تطويق الوعي الفردي ، وقذف الإنسان في مغامرة لا ندري ما إذا كان الغرب اليوم قد بدأ يقطف ثمارها ، أو إنّه ينتظر ؟ وفي كل الأحوال ، تمكنت إرادة رأس المال من وضع الفرد في خدمة الغلبة والاستعمار والنهب . كما تمكنت من توحيد رغبة الفرد مع هذه الوضعيات الثلاثة ؛ وأضفت إبداعات العقل والآلة على هذه الوجوه هالة أسطورية أصبح بموجبها الإنسان الغربي ، على وجه التحديد ، سيداً للوجود برمته . وبناء عليه لا مانع في البحث عن السعادة والسيادة

---

(١) روجيه دي باسكيه : اكتشاف الإسلام ، ص١١

Roger Pasquier : Découverte de l'islam. Genéve, sans date .

(٢) مرجع سابق ، نفس الصفحة .

بواسطة الحروب، التي حولتها الإيديولوجية العقلانية إلى بطولة «فالمهم ليس الحرب بل البطولة كما يقول «دوبري» والمهم أيضاً البحث عن شهوات «الأنا» وسط الضحايا والدمار. وفي الحقيقة لا الحرب أنتجت بطولة ولا الأنا انتعشت بلذة العنف.

وها هي الحروب العالمية والموضعية تخلف الانتصارات والرعب. وتنتج السيادة والمأساة في آن واحد. فمن ناحية يوصل منطق الحرب إلى رعب يلجم انفجاره ـ لغاية الآن ـ التوازن النووي، والسيادة الغربية على العالم، وقد ولدت مأساة عامة قضت على حرية الإنسان وسعادته من ناحية ثانية.

«هذه الحضارة التي أرادت لنفسها (إنسانوية) تؤدي هكذا، إلى نظام يحتقر الإنسان ويخونه في نفس الوقت، لكي يدمره آخر الأمر، إنها تحتقره لأنها تختزله في الوظائف المادية والكمية للمنتج البسيط والمستهلك، وتخونه لأنها جعلته يصدق أنه، بفضل التقدم والتطور للعلم، وبنظام اجتماعي أفضل ومتحرر من آخر الأحكام السابقة وأشكال القهر الموروثة عن الماضي، يستطيع أن يبلغ السعادة وينتصر على الألم، والتي هي غالباً ملازمة للوضع البشري وأخيراً تدمره بإفساده بتحطيمه وحرمان حياته من المعنى والأمل»[1].

وإذ تؤدي الحضارة إلى هذه النتيجة ـ كما يقول باسكيه ـ تصبح المسألة حينئذٍ مرتبطة بمنطق الحضارة والعلم الذي أوصل الإنسان إلى المأساة، في حين كان يريد أن يوصله إلى السعادة. كما أنّ المسألة لا تعدو كونها محصلة طبيعية للغايات التي أعطاها الغرب للمعرفة بشكل عام، وهي غايات تدور في معظمها حول ضرورة تمكين الغرب من السيطرة وتوحيد العالم الغربي كله حول تلك المهمة.

---

(١) انتشار الإسلام/ باسكية ص ١٣.

وبينما تسفر السيطرة عن أزمات متحققة متواصلة، تبتدىء في تصرفات المجتمعات الغربية، أكثر بكثير مما هو الحال في المجتمعات الخاضعة لها، تبدد المعرفة القائمة على تمجيد العلم والتقنية وكأنها قد أصبحت «وحياً» جديداً، يرفع الإنسان إلى السماء، ليضعه مكان الله، وينزل الله ليحجزه في زاوية كنيسة تحافظ على نفسها كأثر من الماضي وطقس لا أكثر. وبين هذه وتلك يدخل الإنسان الغربي، رغم عظمة الحضارة التي ينتمي إليها في ظلامية وجودية، وتصبح دنياه بعد انفصالها الفعلي عن آخرته، بدون هدف، وتغرق في عدمية كاملة.

فالظلامية التي رأى فيها «نيتشه» تجليّات العصر والحضارة، والعدمية التي عبرت برأيه أيضاً عن «انخفاض القيم الأكثر علوّاً» هما في نهاية الأمر من نتائج التوظيف الغربي للمعرفة العملية ووضعها في تناقض مع المعرفة الإلهية وروحانية الإنسان.

هكذا تصبح الظلامية والعدمية بمثابة متضادات تاريخية، تحدد نفسها بشكل متبادل. إنها النتيجة النهائية لانفصال حيث تكتمل.

الخطيئة الأصلية الحقيقية للغرب المسيحي : انفصام وحدة الإيمان والمعرفة ، العلم والدين . وينقل داريوش شاياغان عن فرانز فون بادر نتيجتين اعتبرهما هذا الأخير إفرازات طبيعية وحتمية للانفصام المذكور :

أولاً : إنّ الجوهر الداخلي للعدمية يقوم على أن الإنسان ينازع الله ، ومن خلال تجريده للنظام الإلهي ، يضع نفسه في مكان الله . لكن هذه القوة المكتسبة حديثاً تحتوي اندفاعاً بلا نهاية ومتواصل ، إلى درجة أنها تقلب كل ما يريد أن يتبلور في نظام معين : هكذا ، يصبح لدى المنعطف العدمي للفكر الحديث كنتيجة والسيادة المطلقة واللامشروطة للإنسان ، إتجاه يطور غريزة التدمير التي كانت حتى الآن خامدة ، و« يتماهى » على المدى الطويل وبهذه الطريقة مع شعور الوجوب الذي يجب على هذا الإنسان (كارهاً أو مهدداً كل نظام قائم) تدميره ، وذلك بهدف أن يبقي نفسه في استمرار كينونته » . من هنا ينبع واقع أن العدميّة ينبغي أن تؤدي ، بنظر فون بادر ، إلى خلاصتين :

أ ـ نفي الله والعالم المتعالي .

ب ـ ظهور الإنسان الأعلى ، الذي ، بسبب « سيادته المطلقة يقيم نفسه في مكان الله المخلوع » .

والنتيجة الثانية : لهذا التكسر بين الإيمان والمعرفة هي الظلامية . فالمسيحية التي ـ بلجوئها للظلامية ، تبحث لتحمي نفسها ضد هجوم المعرفة العلمية ، لا تكتفي بدعم علم ملحد في صراعه مع الوحي ، لكن تقوي أيضاً عداوة الدين تجاه الشرطة[١] .

وفق هذا السياق ، تؤسس الحضارة الغربية ، بمعارفها وعلومها ، موقفاً إنسانياً في العالم ، تجسد بادىء الأمر ، في إبداع الإنسان وتحول

---

(١) داريوش شايغان : ما هي الثورة الدينية ، ص ١٠٧ .

Daryush Shayegan : Qui est-ce qu,une revolution religieuse ? Ed. Les Presse d'aujourd'hui. Paris, 1982 .

فيما بعد إلى استلاب . لقد اخترع الإنسان التقنية ثم لم يلبث أن أصبح ضحيتها . وعندمايغدو الإنسان خاضعاً للسلعة والآلة ، فإنّه بذلك يفقد ما هيته الحقيقية وينفصل عن العلم الذي هو نتاجه . وبالتالي يصبح العلم إرادة جديدة تعطي للإنسان بعده وغاية وجوده ، وتتحوّل التقنية إلى إله جديد يفرض على الإنسان نظاماً جديداً للأشياء والعالم والحياة البشرية . وفي حين يستسلم الإنسان الغربي لهذه النتيجة ، يظهر وكأنه يسير بشكل حتمي نحو العدمية ، وتبدو السعادة التي وعدته بها العلوم والتقنيات وكأنها عملياً مأساة .

يقول نيتشه في كتابه « إرادة القوة » مختصراً مصير الغرب ومستدركاً بثقة ومرارة : « إنّ ما أقصه عليكم الآن هو تاريخ القرنين التاليين . فأنا أصف إذن ما هو آت ، وما لا يمكن إلاّ أن يأتي ، وأعني به ظهور العدمية . ويمكن أن يقص هذا التاريخ منذ الآن ، لأن الضرورة نفسها تفرض ذلك وهذا المستقبل يتحدث عن نفسه في مئات من الدلائل والعلامات وهذا المصير يعلن عن نفسه في كل مكان ، وكل الآذان قد أصبحت مرهفة السمع لموسيقى المستقبل هذه . إنّ حضارتنا الأوروبية كلها تتحرك منذ وقت طويل في انتظار معذّب ، ينمو من خمسية إلى أخرى ـ الخمسية تدل على تضحية تكفيرية كانت تقام في روما كل خمس سنوات ـ ويؤدي إلى مأساة ؛ قلقة ، عنيفة ، لاهثة ، إنها نهر يريد الوصول إلى منتهاه ، إنها لم تعد تفكر إطلاقاً ، بل إنها تخاف من التفكير »[1]

بديهي ، أن لا تكون هذه العدمية ـ المأساة نتاجاً وحيداً للسيطرة على « الآخر » والتنافس عليه ، بقدر ما كانت محصلة منطقية لطبيعية الانعكاسات التي أفرزتها على الذات الغربية مجموعة العوامل التي ساهمت في امتداد السيطرة الجيوسياسية لأوروبا في مرحلة أولى ،

---

(١) نيتشه : إرادة القوة ، مرجع مذكور ، ص ٢١ .

وأسفرت عن نمو معرفة متنامية قتلت الألوهية في الإنسان بعد أن حوّلت هذا الأخير إلى عقل عالمي وغلبة حضارية ، في مرحلة ثانية . كما أنّ هذه العدمية ـ المأساة قد سارت بشكل متوازٍ مع العنف الخارجي وفضحت غاياته في آن واحد ، بحيث جاءت المفارقة مثيرة للدهشة : كيف يمكن أن يتحول نهب الآخرين إلى مأساة ذاتية في الوقت الذي تكون فيه ممارسته ضرورة لتحقيق رفاهية أوروبا ؟ بمعنى آخر ، ما هي العوامل التي تحوّل نشوة الانتصار والسيطرة والازدهار والتقدم إلى أزمة للفرد تجسدت في تناقض صارخ بين اكتمال ماديته وانحطاط روحانيته ؟

قد يصعب على « شرقي » أن يجيب على هذا التساؤل ، أو يكتب تاريخية هذه المفارقة . ذلك أن عملاً كهذا يشكل نوعاً من « الاستغراب » الذي لا تسعى هذه الصفحات إلى ادعائه . بيد أنّ دراسة العوامل التي أسست رؤية الغرب وموقفه تجاه الإسلام ، لا يمكنها أن تتجاوز ضرورة القيام بحد أدنى من « الاستغراب » ، إذ أنه بدون ذلك تكون الرؤية ناقصة وفي أسوأ الأحوال مبتورة عن أصولها . فالقناعة بغلبة الحضارة الغربية عبّرت عن نفسها ليس فقط من خلال آليات بسط هذه الغلبة في بلاد المسلمين ، وإنما أيضاً وبشكل هام من خلال البنية الفكرية ـ الثقافية للإنسان الغربي ، والتي بواسطتها كانت عصبية الغرب تتمظهر في سلوك الأفراد والدول . ومن المفيد التأكيد أيضاً على أن بسط الغلبة قد ترافق مع تاريخية إنتاجها وشمولية القناعة بها أساساً في الغرب ، وذلك قبل أن تنطلق جحافل الأوروبيين في مهمة تحديث المسلمين ، وأثناء ذلك وبعده .

لذلك تبدو المسألة بالغة الأهمية ، ولا يمكن رصد تجليات الغلبة في الخارج بدون معرفة العوامل التي مهدت لولادة « عصبيتها » في الداخل . فالعنف الاستعماري لم تمارسه الآلات وإنما البشر ، والضحايا لم يكونوا على الإطلاق مواداً وإنّما شعوباً ، وبالتالي فإن

ممارسة العنف لم يكن مقدراً لها النجاح إذا لم تكن مؤسسة بشكل قوي على إيديولوجية تبرّرها وتغذي استمرارها ، وتضفي عليها شكلاً من الشرعية الإنسانوية .

لا يشكل تحليل التفاصيل الداخلية للنسق الحضاري الغربي همّاً رئيسياً في هذه الدراسة ، لكن بعض هذه التفاصيل يدخل مباشرة في صلب الرؤية التي كانت في أساس العلاقة الحديثة بين الغرب والإسلام ، خاصة وأنها ـ أي : هذه الرؤية ـ تساعد أيضاً على إجراء مقارنة بين منطق الحضارة الإسلامية ومنطق الحضارة الغربية وذلك في نقطتين رئيسيتين :

علاقة المعرفة بالألوهية .

وطبيعة البعد الإنسانوي للحضارة القائم على التفاعل بين الثقافات .

بعكس الإسلام تماماً ، نسف العلم الحديث علاقة المعرفة بالإيمان ، بمعنى أنّه عزل العلم عن الحكمة ، الأمر الذي أدّى إلى تهميش « الإلهي » وخلق غاية جديدة للعلم : عبادة الآلة . وسواء كانت هذه الأخيرة عقلانية أو سلعة أو نظاماً أو قيمة أخلاقية واجتماعية ، أو كانت رغبة فردية أو علاقة اجتماعية أو مهنية أو انفعال نفسي أو موقف من العالم والبشر والأشياء ، فإنها وبأية صورة تظهر ، تجسّد حالة مغطاة في العقل والفعل ، تتناثر ظواهرها في تفاصيل الحياة اليومية للغربي العادي، وفي خلفيات مواقفه تجاه ذاته وتجاه الآخرين . فمنذ ما يزيد على الثلاثة قرون والعقل الغربي يتجّه بصورة ملحوظة نحو إلغاء أية معرفة لا تصدر عنه . فالعقل الإنساني هو الأصل والوحي هذيان . وبديهي أن ترتكز مقولة رجحان العقل على السببية الإلهية ، على العلم بوصفه أداة هامة يستخدمها العقل لإثبات غياب الحضور الإلهي عن العالم . وإذ يمارس العلم والعقل هذه المهمة تصبح كل الطرق ممهدة أمام ديانة جديدة ، رمزها الساطع الآلة التي أدّت إلى خضوع الحياة كلها لمنطق

العلم والتقنية ، وتحوّل الوسائل إلى غايات . فبواسطة العقل تتم الإحاطة للإنسان بكل المشاكل التي تعترضه ، وهو وحده القادر على معالجتها . وكذلك العلم ، فهو ، بوصفه قوة العقل وأداته ، الذي يمنح للمشاكل وجودها ، إذ لا يوجد في العالم مشكلة يعجز العلم عن حلّها . « وهذه هي السمة المميزة للمذهب العقلي الكبير ، مذهب « سبينوزا » أو« هيغل » ، وهو يرى أنّ العقل يحلّ مشكلة الغايات ، أو المذهب العقلي الصغير ، مذهب وضعية (أوغست كونت) الذي يرى أنّ العقل يحل مشكلة الوسائل ، وأنّ كل مشكلة أخرى هي مشكلة لاهوتية أو ميتافيزيائية ، وإذاً مشكلة زائفة . وهذه الوضعية قد أنجبت المذهبية العلمية والتكنوقراطية ، وكلتاهما تؤلف ديانة ومسائل ، ديانة حقيقية : إن العلمية والتكنوقراطية تطرحان دوماً سؤال : كيف ؟ ولا تطرحان البتة سؤال : لماذا ؟ »[١] .

وعن هذا العقل ، الذي وصفه نيتشه بأنّه « صنم الفلاسفة الأكبر »[٢] يصدر فعل الإنسان باعتباره ممارسة لا تهتم بالمعنى منها وإنّما بشكلها . وبالتالي يصبح للفعل والعمل قيمة جوهرية مستقلة تماماً عن الغاية الفعلية لوجود الإنسان وأفعاله . فالعمل والفعل تعبيرات عن الإنتاج والاستهلاك ، ولأنهما كذلك يغدوان اختزالاً للإرادة الإنسانية

---

(١) روجيه غارودي : حوار الحضارات ، مرجع مذكور ، ص ٤١ .

(٢) يقول نيتشه : « صنم الفلاسفة الأكبر هو العقل : آمنوا بقدرته على اكتشاف الحقيقة والوجود وجعلوه الحاكم المطلق واعتبروا قوانينه قوانين الوجود . . . ثم فصلوه عن الحياة ، وجعلوه فوق الوجود ، لا جزءاً منه يعبر عن ناحية من نواحيه العديدة . فقال البعض إن مبادئه متعالية قبلية أي : سابقة على التجربة وعليها تقاس محتويات التجربة ، وبها وحدها تدرك وقال البعض الآخر إن العالم جميعه فهو في باطنه وداخله . وقال فريق ثالث إن التطور التاريخي ليس إلاّ العقل وهو يعرض نفسه . وهكذا جعلوا منه إلهاً ، ذا سلطة إلهية وجوهر إلهي » . نقلته عن النص الألماني د . عفاف بيضون ـ محاضرات جامعية غير منشورة ـ كلية الآداب . الجامعة اللبنانية .

وإخضاعاً لها ، وفق المنطقِ الذي سبق وأن حددته إرادة رأس المال . وقد استخلصت هذه الأخيرة « قيمة العمل الأولي وتصور المجتمع على اعتباره تنظيماً للعمل من الاقتصاد السياسي الإنكليزي لدى « آدم سميث » و« ريكاردو » الذين لم يريا في الإنسان إلاّ الإنسان العامل والمستهلك » . وتبعاً لذلك ، تأتي « الموضوعة القائلة بأنّ الإنسان لا يحقق ذاته تحقيقاً تاماً إلاّ بالفعل والعمل »[1] . وبمعنى آخر ، تتحقق ماهيّة الإنسان من خلال انغماسه اللامحدود في نمط وجودٍ كمي ، بعد أن ترك جانباً أسمى الأهداف والغايات التي كانت تعطي للإنسان منذ وجوده الأول قيمة ومعنى للحياة التي يعيشها ، والتي من خلالها ، يتواصل الوجود الإنساني برمته ، ويتحقق في العالم على صورة محاكاة وتواصل مع حضور الألوهية في العالم بالمقابل ، يبدو فقدان الغاية من الحياة على شكل أزمة أوليّة للحضارة القائمة على تغليب ثلاثي الفعل والعقل والكم ، باتت ـ أي : الأزمة ـ تهدد من الآن فصاعداً مستقبل الحضارة الغربية كلها . فالحضارة التي « تحيل الإنسان إلى العمل والاستهلاك » ، « وتحيل الفكر إلى الذكاء » ، « واللانهائي إلى الكم » ، وهي برأي غارودي ، « حضارة مؤهلة للانتحار »[2] . وبهذا المعنى نفهم الأبعاد الحقيقية لغياب معنى الحياة والهدف منها وتحوّل الآلة من وسيلة إلى غاية قائمة بذاتها » . يشهد على ذلك ضروب الفرار إلى المخدرات وانتحار المراهقين بأعداد أكبر من الأصقاع الأغنى » ، ويبرهن عليه الموقف الحضاري من الطبيعة بوصفها حقل تجارب للعلم ومجال إستهلاك مادي لخيراتها . بحيث تتعامل مجتمعات هذه الحضارة وفق منطق خاص يعتبر أنّ كل ما هو ممكن تقنياً أمر مرغوب به ، وضروري ، سواء أكان ذلك في صنع أسلحة نووية أكثر قوة باطراد ، أم

(١) روجيه غارودي : حوار الحضارات ، مرجع مذكور ، ص ٤٠٠ .
(٢) مرجع سابق ، ص ٤٢ .

صنع سيارات أو طائرات أكثر سرعة باطراد ، حتى ولو لم يستهدف الذهاب بها إلى أي مكان ، أم إطالة الحياة ذاتها أكبر قدر يستطاع ، حتى ولو كانت حياة نباتية خالصة تجعل المحتضر موضوع عرضي علاجي مسرحي وضحيته » . وباسم هذه الموضوعة تعمل مجتمعاتنا المسماة « متطورة » تبع المبدأ الذي كان فيما سلف مبدأ المغالطين : تتصّف بأنّها مصطنعة إلى أبعد مدى ومؤذية أعظم الإيذاء ، من أجل اللجوء من ثمة لإنتاج وسائل إروائها »[1] .

بالرغم من كل ذلك ، تستمر الآلة ـ رمز العلم والعمل ـ في توجيه الممارسة الإنسانية وتوسّع أمامها الآفاق ، وبالتالي ، فالحضارة التي تعتمد الإنسان كطاقة عقلية قائمة جوهرياً على استخدام متعاظم للوسائل العلمية المتطورة ، لا تلبث أن تستعيد من هذه الوسائل صورة عنها : فالعلم الذي يخترع وسيلة السيطرة المتنامية على الطبيعة ، يعطي للحضارة القائمة عليه وسيلة للسيطرة على العالم . أمّا الإنسان الذي يخرج من نتائج هاتين الوسيلتين ، فإنّه لا يلبث أن يتماهى معهما ، متحولاً إلى إنسان غالب ومتفوق على كل ما عداه . وبذلك يكون التقدم العلمي العامل الأساسي في قيام نزعة التفوق الحضاري الغربي ، التي محت وبشكل مذهل معظم الإمكانات المتاحة للتفاعلات الحضارية وأخرجت إلى الوجود الأنوية الحضارية بوصفها تعبيراً عن ذات الغرب لحظة إصدارها على أن تكون مرآة للعالم كله . بهذا المعنى ، تتضافر جهود العلم والتقنية مع الأنوية الحضارية ، وتتوحدان في سبيل إقرار غلبة على مستوى عالمي قائمة على العلم والاقتصاد والسيطرة . بيد أنّ غلبة كهذه ـ كمية ولا إنسانوية ـ لم تكن مجرد بداية لبؤس عام عند المغلوبين ، وإنما أصلاً لمأزق وجودي ، ليس فقط بالنسبة للغرب كما هو الحال عند نيتشه ، بل أيضاً بالنسبة للإنسانية كلها ، كما يريد غارودي .

(١) مرجع سابق ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

وفق هذا السياق نفهم المغزى من العدمية ـ المأساة التي أراد نيتشه أن يصف من خلالها حتمية النتائج التي سوف تعّم أوروبا بعد أن قتل العلم الألوهية ـ كما نفهم أبعاد الممارسة الأنوية الحضارية التي لم تنتج العنصرية فحسب وإنما غلّفت كافة التبريرات التي رافقت عمليات التغريب والسيطرة ، وما زالت إلى يومنا هذا تقوم بهده المهمة .

هكذا تنشأ ، بالنسبة إلينا ، الإشكالية الأكثر عمقاً من منطق حضارة الغرب ، وتتخذ صورة رؤية تعطي الأولوية للعلم كأداة نحو التقدم ، وتضع العقل البشري في انفصال شبه نهائي عن الإرادة الإلهٰية . بحيث ينتفي دور الإيمان الذي يعطي أبعاداً للعلم يتوحد فيها الإنساني بالإلهي ، وتتخبط بفضله العلاقات الإنسانية في حركة تنزع باستمرار للتماهي مع إنموذج الوجود الذي تدعو إليها التعاليم الدينية . وقد تجسدت هذه الحركة في وحدة العلم والحكمة أو المعرفة والإيمان ، وكان الإنسان يتطور خلالها ، في عقلانية متصالحة مع الألوهية وقادرة على تحقيق توازن عملي بين الحاجات المادية والروحانية للإنسان والجماعة معاً .

لكن العلم ، الذي بات أسيراً لرغبات رأس المال ، قد رحل بعيداً عن العلم الذي يرفع قيمة الإنسان ، والعقلانية التي كانت تجاهد لإثبات وحدة العالم ، أصبحت منغمسة في مهمة معاكسة : تأكيد انفصال العالم الإنساني عن العالم الإلهي ، وإعتبار الإنسان وحده سيداً ليس فقط على مصيره ، وإنما على مستقبل البشرية برمتها . إنسجاماً مع هذا المنطق العلمي والعقلاني ، يصبح لزاماً على « الألوهية » وتجلياتها في الإيمان والدين أن تتراجع في كل مرة يطلّ فيها بريق العلم ، وورائدته العقلانية الحديثة . وحسب برتراند راسل فإنه « حينما تتعارض المبادىء الدينية مع نتائج البحث العلمي ، يكون الدين دائماً في موقف دفاعي ، ويتعين عليه أن يعدل موقفه ، ذلك لأن الأمر الطبيعي هو أن الإيمان ينبغي ألاّ

يتعارض مع العقل . ولما كان التعارض يقع هنا في ميدان الجدل العقلي ، فإن الدين هو الذي ينبغي عليه أن ينسحب دائماً »[١] .

وبينما تدفع هذه العقلانية الدين نحو التراجع والانزواء ، تبدأ المعرفة المتناقضة مع الإيمان لا بالتحول إلى بنية ذهنية ـ حضارية مؤسسة على علم وضع نصب عينيه التخلص من كل العراقيل التي تحول دون انتشار « إرادة رأس المال » . وبالتالي تنقلب حكمة الإسلام مثلاً إلى « نشر منهجي » ، ولا تجد عبارة « سان بوفانتورا » القائلة بـ : « الإيمان من أجل الفهم » آذاناً صاغية . وكمحصلة نهائية ، تتوارى التراتبية المعرفة التي وحدت باستمرار عقلانية الإنسان بالحكمة الإلهية . تلك التراتبية التي تأسّست على الإيمان بأن العلم ، (La scientia) بوصفه معرفة إنسانية ، يجب أن يعتبر وشرعياً رغم كونه ، ظل خاضعاً ولمدة طويلة للحكمة الإلهية (La sapiantia) . بالنسبة لعلماء الإسلام ، ولأوروبي من طراز سان بوفانتورا ، لا يمكن للعلم أن يوجد إلاّ في وحدة مع الحكمة الإلهية ، وأنّ نبل قدرة العقل يأتي من كونه ـ أي : العقل ـ يوصل إلى التفكير وليس إلى البحث عن استقلالية عن أصله أو احتواء اللانهاية في نهائية نظام فكري ما[٢] .

انطلاقاً مما تقدم ، يظهر التناقض المنهجي الرئيسي الذي يفصل بين حضارتي الإسلام والغرب ، ليس فقط من ناحية تطور كل منهما بشكل ذاتي وإنما أيضاً من حيث علاقة كل واحدة منهما بالأخرى . ففي

---

(١) برتراند راسل : حكمة الغرب ، ترجمة فؤاد ذكريا ـ سلسلة عالم المعرفة . عدد ٩٢ ـ الكويت شباط ١٩٧٣ ، ص ٣٢٢ .

(٢) سيد حسين نصر : العلوم والمعرفة في الإسلام ، صفحة ١٨ نقلاً عن النص الفرنسي :

Seyyed Hossein Nasr : Sciences et Savoir en Islam . Traduit de l'anglais par Jean-Pierre Guinbut . Ed. Sindbad . Paris 1979 .

وكان هذا الكتاب قد صدر في الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٦٨ تحت عنوان « العلم والحضارة في الإسلام » .

حين تؤسس وحدة المعرفة الإنسانية والحكمة الإلهية منهجية حضارية إسلامية قائمة على مبدأ التفاعل والاعتراف بالخصوصيات الثقافية ، تؤدي عزلة العلم والعقلانية ، عن الإرادة الإلهية إلى سيادة علاقة حضارية في الغرب قائمة على مبدأ الإحساس القوي بالأنوية والغلبة ونفي أية خصوصية ذات معنى حضاري خارج أسوار العقل الغربي . وبينما تنتج الأولى إنسانوية يكون العلم خادمها ، تولّد الثانية علماً تكون الإنسانية ضحيته . أمّا المفارقة ـ الإشكالية فإنها لا تتأتى من العلم كحالة عقلية ومادية ، وإنما من كونه غاية وحالة حضارية وانتماءً جغرافياً ومصدراً للأرباح ومادية مفرطة . بمعنى آخر ، إنها تأتي من اللحظة التي يتحول فيها العلم إلى إيديولوجيا قائمة بذاتها . فالعلم مهّد الثورة الصناعية ، وهذه الأخيرة تجسدت في آلات وسلع واستهلاك ، ثم ما لبثت أن تمظهرت على شكل مؤسسات ومصالح وتحولات بنيوية استوعبت مجتمعة ، وبشكل تدريجي ، الفرد وأخضعته لمنطق خاص : التعالم مع العلم بوصفه مصدر القوة والثروة والرفاهية وعظمة الأنا ـ أي : التعامل . . . كحالة انفصال وحلول ، انفصال العلم عن غايته وحلوله مكانها ، بحيث تنتفي من العلم حقيقة كونه وسيلة لغاية تتجاوزه وتقيم توازناً بين الإنسان والألوهية وتجلياتهما في العالم . وإذ تغدو حالة الانفصال والحلول هذه مسلمة حضارية ، فإنّ ذلك يعني أنّ العلم قد أصبح أكثر من وسيلة ، إيديولوجياً . وإذا صحّ التعبير ، يكون العلم قد تحول إلى « علموية » تختصر المعرفة وتحدّها .

لم يكن بإمكان هذا المنطق العلموي المتعارض مع روحانية الحضارة وإنسانويتها أن يرى النور لولا ثلاث صدمات رئيسية عرفها العقل الغربي منذ بدايات عصر النهضة . ذلك أنه بدون خمسة قرون من العلمنة وعدم الترميز ، لم يكن ممكناً التوصل إلى المفهوم الدينوي للديمقراطية ، وبدون موضعة الطبيعة وفكّ سحرها ، بدون الصدمة

الكونية للثورة الكوبرنيكية ورؤية غاليلية الرياضية للعالم ، لم يكن ممكناً الحصول على علوم الطبيعة ؛ بدون الصدمة البيولوجية لم يكن بإمكان مغامرة علم النسل والتطور العضوي أن تصبح معروفة ـ بدون الصدمة ـ علم النفسية لم يكن بالإمكان اكتشاف الأوليات المظلمة بلا وعي . هذه هي الصدمات الثلاث المؤذية ، على حد قول فرويد ، التي اصطنعت وعي الإنسان الغربي . وقد جرى ذلك بدون شك بخسارة القيم الروحية ، وعلى حساب غنى عالم الروح »[1] .

وهكذا ، تضافرت كافة الإبداعات العلمية في مسيرة مجنونة للانفصال عن الألوهية وصياغة عقيدة جديدة حملت لواءها الرؤية الرأسمالية للعالم . تلك الرؤية التي جعلت من العلم وسيلة سيطرة . وجعلت القبول به على هذا النحو حالة إيمانية . بهذا المعنى يقول غارودي في كتابه « نداء إلى الأحياء » ، إنه « منذ النهضة ، يبدو أنّ العلم والتقنيات قد نابا عن الدين . فإن عدداً كبيراً من معاصرينا يعزون لهما الإيفاء بجميع الأماني البشرية ، وإزالة جميع لعنات التوراة القديمة : في وسعهما إتمام عمل الإنسان بغير ما ينجزهما بعرق جبينه ، وتجنيب النساء الولادة بالألم .

لقد وعدنا العلم بالقدرة الكلية ، بالجبروت : « أيها الإنسان ، بدماغك القوي : أصبح إلهاً ، صاحب وسيد جميع العناصر » ! هذا ما كان قد أوحاه إلينا فاوست مارلوي في فجر النهضة ، وكان ديكارت يبشرنا بعلم « ويجعلنا سادة الطبيعة ومالكيها » . بالفعل ، إنه أنجز منذ أربعة قرون صنائع رائعة .

فإنّ الآلة منذ القرن السادس عشر والمحرك منذ الثامن عشر استخرجا من المواد ، وأظهرا من الطاقة ، وحوّلا من الأشياء أكثر مما نجح الإنسان في إيجاده منذ بداية تاريخه . . .

(١) داريوش شايغان : ما هي الثورة الدينية ؟ مرجع مذكور ، ص ١٧ .

ما من شيء أفضل من هذا خدم إرادة القوة في الإنسان ، إلى حد أنه أمّن للغرب ، الذي أخضع كل شيء لتطور العلوم والتقنيات البرومتيين ، أربعة قرون من الهيمنة العالمية ، هي أول هيمنة شاملة في التاريخ البشري كله . . . فقد أتاحت العلوم والتقنيات استبعاد أوبئة الطاعون التي كانت تدمر ملايين الكائنات البشرية ولكنها أتاحت كذلك تدمير ستين مليوناً من الكائنات البشرية الأخرى ، من عام ١٩٣٩ إلى هيروشيما وهي تعدنا بما لا حدود له أيضاً » .

هل هو من قبيل الصدفة إذا كانت آلة الاحتراق الداخلي الأولى ، المدفع ، الذي جلجل لأول مرة في كريسي (Crecy) عام ١٣٤٦ ، هي رائدة جميع المحركات الحديثة ، وإذا كانت قنبلة هيروشيما هي رائدة جميع المراكز النووية ؟

إنه لغريب ، أليس كذلك ، ألاّ يكون قد اشتبه ، طيلة هذا الزمن الطويل ، بهذه « الثورة الصناعية » الظاهرة أهميتها منذ مهدها وفي كل مرحلة من مراحلها بـ « تقدم » في فن الحرب والتدمير »[(١)] . لكن العلم لم يكن مجرد فن حرب وتقنية مسيطرة وتدمير في الخارج ، بل كان أيضاً ، وبنفس الدرجة نوعاً من التدمير الذاتي . فالعلم الذي تخصص بالوسائل لا يكترث للغايات ، ولا يلبث أن يتحول إلى « دين الوسائل » ، وبذلك يكون قد بدأ يرضي سلبياته على الغرب لحظة قيامه بدور « أفيون الشعوب » . وعندما تندفع الحضارة بعفوية آلية نحو علم يقدم لها أفضل الوسائل للعيش المترف ، سبل التحصيل ومادي المنفعة ، فإنّ إنسان هذه الحضارة لا يتردد بعد ذلك في التسليم بعظمة هذا العلم وبارتقائه عرش الله . إذ على قاعدة هذا التسليم يجري القبول بالعلم كوسيلة وبالعلموية كدين جديد . وقد اختصر جاك مونود في كتابه « الصدفة والضرورة » المسافة بينهما ، وقدم فلسفة للعلموية تلتقي مع

(١) روجيه غارودي : نداء إلى الأحياء ، مرجع مذكور ، ص ٣٨ ـ ٤٠ .

البعد النفعي للعلم الحديث . فيقول عن كيفية الانتقال من العلم إلى العلموية : « العلم باعتباره جملة الطرائق الرياضية والتجريبية التي أمنت للإنسان سيطرة رائعة على الطبيعة . والعلموية باعتبارها جملة الخرافات والمعتقدات الباطلة التي تدعي الإفادة من شرعية خطوة هذه الطرائق من أجل أن تفسر بها أو تنفي باسمها جميع الأبعاد الأخرى للحياة ، كالفن ، على سبيل المثال والحب والتضحية والإيمان أو ببساطة الإنسان الآخر في نوعيته . فما يدعى أحياناً ، خطأ ، « أضرار » العلم لا تصدر عن العلم وإنما عن فلسفة جعلت من العلم ديناً لا تجرؤ على الإجهار باسمه »[١] .

وفق هذا السياق ، تتأسس العلموية ، كدين أو أيديولوجيا ، لحظة انخراط العلم في مسار التقنيات وتحوّل هذه الأخيرة إلى فلسفة للحياة والحضارة . فالعلموية والآلية مظهران لحقيقة واحدة هي العقل العلمي والعملي : فالعلموية هي التعبير النظري بينما تشكل الآلية التعبير العملي . وبذلك تصدر العلموية كدين عن تلك النظرة الكونية الصادرة عن فكر هيّأته الآلية . أمّا المادة فقد أصبحت « ألوهية جديدة » دعت إلى عبادتها العلموية الغربية ، بينما قامت التقنية بلعب دور الرسول المناسب لهذه الألوهية عندما حملت لواء المادة وتحدثت بلغتها واختصرت بها الحياة ومبادىء الإنسانية ودعت إلى تهميش الروح واعتبارها مظهراً من مظاهر المادة لا أكثر ؛ فتنتفي تبعاً لذلك ، ازدواجية العالم وتعارض العالمين المزعومين (المادي والروحي) ، وتصبح الحقيقة كلها في هذا العالم . أمّا ما يمكن أن يكون خارج هذا العالم ، قبله أو بعده ، أصله أو غايته ونهايته ، فإنه أمر لا يعدو كونه ثرثرة عقلانية مؤمنة لا تدلّ إلاّ على لحظة احتضارها أمام الإله الجديد : التقنية ؟

---

(١) نقلاً عن غارودي : المرجع السابق ، ص ٤٤ . للمزيد من التفاصيل راجع :
Jacques Monod : Le Hasard la Nécessité.Ed. Du Seuil, Paris, 1970 .

ليس هناك أدل من التقنية للتعبير عن النهاية التي آلت إليها علموية الغرب . وقد غدت التقنية بدورها « إرادة الإرادة » . بمعنى أنها بدأت تحل محل إرادة الإنسان في اختيار مصيره وفي نفس الوقت ، سعت إلى تجاوز ونفي الإرادة الإلهية التي كانت وما زالت ، تعطي للعالم وللإنسان أنموذجاً مناسباً للبقاء . وأكثر من ذلك ، لم تكتف هذه التقنية بمصادرة إرادة الإنسان الغربي ، بل تعدت ذلك في محاولة لتعميم ذاتها على مستوى عالمي . وهذا ما دفع مارتن هايدغر إلى اعتبار « المرحلة الحاضرة ومرحلة السيطرة العالمية للتقنية »(١) .

وبذلك تكون « الآلية » هي التعبير الأكثر وضوحاً عن طبيعة التدمير الذاتي ، الذي تزداد حدته كلما ازدادت خطوات العلم نحو التقنية المحترفة . مما يجعل الإنسان الغربي في حالة ذهول مستمر أمام زحف علمي متواصل لم يملك أمامه سوى الخضوع لمنطقه . أمّا هذا الأخير فإنه لن يكون أكثر من صيرورة إرادة رأس المال وتحولها إلى عقلانية تتربع في أحضانها أبشع مظاهر المكننة للإنسان والمجتمع . فالعلم لم يصل إلى مكننة شاملة بصورة اعتباطية أو بحركة ذاتية ، بل إن إرادة رأس المال هي التي جعلت نموه يسير متسارعاً نحو تحوله إلى وسيلة هامة لسيادة التقنية ، وهي التي أدت بدورها إلى أزمة الإنسانوية الغربية وفتحت الآفاق أمام العدمية ـ المأساة التي لاحظ نيتشه تباشير ظهورها : « فالتقنية هي أكثر بكثير من جهد يعالج المشاكل التي يطرحها البؤس الإنساني الذي تغوص جذوره في المجال الاجتماعي ـ الاقتصادي ، إنها أيضاً وبشكل خاص ، مغامرة لتجاوز المأساة الوجودية : التقنية هي إغراء ومحاولة تجسيد داخلي حيث ينتظر الإنسان شفاء ذاته »(٢) . وهذا ما يفسر المكننة الشائعة في الغرب ، وبصورة متبادلة بين الإنسان

(١) Philippe nemo : Que la technique ne résume pas l'accident : de Heidegger á la Bible, in " L,impact de la pensée Occidentale ... " . Ed. Berg into. Paris, 1969 .

(٢) Jean Brun : Le retour de Dionysos: Ed: Deschée, Paris 1969, p.61 .

والآلة : مكننة الإنسان وأنسنة الآلة[1] .

باختصار ، تعني التقنية وتبرر تحوّل الإنسان إلى مستهلك يعيش حالة استلاب قصوى تجاه الآلة . أمّا الاستهلاك فإنه عبارة عن خضوع الإنسان بوجوده كله ، لمقاييس الصناعة وليس العكس بمعنى آخر ، يجري تفصيل الإنسان على قياس السلعة بينما ينبغي أن تقاس السلعة وفق حاجات الإنسان . وبالتالي ، بدأت التقنية تأخذ بعداً خطيراً عندما استهدفت خلق إنسان يتلاءم وحاجات الآلة ، وتقنعه بإسراف استهلاكي يضعه في نهاية المطاف في حالة استسلام تام أمام إرادة رأس المال وجنون المادة . أما من الناحية الإيديولوجية ، فإن التقنية تعلن تعطيل إرادة الإنسان الذي تمّ اختزاله في الفرد المستهلك ، وتحوله إلى سلعة ، كم . بحيث لا تكون المكننة مجرد ضعف إنسان أمام الآلة ، بل أيضاً قدرة هذه الأخيرة على تغليب الواجب على الإرادة ، إذا لم نقل نفي الأول للثانية . وهنا بالذات يكمن سر الاستلاب .

وهكذا يندرج الاستلاب في سياق تحول تاريخي أدخل الإنسان الغربي في علاقة دونية مع الآلة والنظام الفكري الذي أنتجها وبرّأ عظمتها . عملياً ، يمكن القول مع غارودي ، إن تاريخ العلموية الغربية تحديداً « تاريخ الإنسان المستلب »[2] وبالتالي ، فإن الاستلاب ليس مسألة نظرية ، إنّه الحالة النفسية لوضعية الاستهلاك ، أو بالأحرى هو نظام الاستهلاك برمته لحظة تحوله إلى نظام فكري أو إيديولوجياً . وليست هذه الأخيرة سوى انعكاس لتأثيرات التطور الاقتصادي والتقني على مجمل البنية الاجتماعية والذهنية للأفراد . بحيث تتحول قدرات وخصائص الإنسان إلى أشياء مستقلة عنه ومتسلطة عليه ، فتنقلب

(١) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ، انظر المرجع السابق ، ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) نداء الأحياء ، مرجع مذكور ، ص ٤٨ .

الظواهر والعلاقات إلى غيرها ، أي : إلى عكس ما هي عليه حقيقة . فالاستلاب ، بمعنى ما ، هو ذلك التشويه الذي أدخلته التقنية على العلاقات الإنسانية في الذهن والانفعال والممارسة اليومية ، هو سيطرة الطبيعة اللاإنسانية لنمط النمو الجديد على عالم الإنسان الداخلي .

لقد أغلقت التقنية أمام الإنسان أبواب الهرب من الاستلاب : فالانبهار أمام عظمة الآلة وسحرها والقبول بقدرتها على مدّ الإنسان بكل وسائل الراحة المعنوية والمادية ، يعني الاستسلام المفعم إعجاباً بها . والارتباك أمام الآلة والعجز عن فهم سر قوتها في تجريد الإنسان من إرادته وإنهاكه في مادية مسرفة يعني أيضاً الاستسلام أمامها ، ولكن بضعف الخاشع . وفي الحالتين يشكل الاستلاب نوعاً من الاعتراف بالعجز أمام التقنية والخضوع لنمط الحياة الذي تفرضه . باختصار ، وجدت التقنية في الإنسان ميزتين ، ميزة العامل الآلي وميزة المستهلك الشره ، « باعتبار أنّ هذا وذاك تحركهما المنفعة الواحدة ، فما يوجد هنا ليس علماً وإنما إيديولوجية تبرير . ولا سيما أنها مخاتلة بحيث أدخلت خلسة (ربما حتى بصورة لا شعورية) مسلمة خفية لما تعمل على اعتباره علماً : مبدأ المجتمع الرأسمالي نفسه »[1] .

إلى جانب ذلك ، تعني التقنية أيضاً أن الوجود برمته يمكن أن يتحول من علاقات مباشرة وأنانوية إلى مؤسسات تديرها مبادىء العقل وتنتظم حركتها كانتظام دوران الآلة ، بحيث يتحول البشر إلى آلات تأتي إليها الأوامر من نظام ، قانون ، هيئة ، دولة ، عقل إلكتروني . . . لافرق ، المهم هو انتظام الحركة : ديمومة التبعية لتفوق التقنية بأسرارها وأهدافها . وهذه الأخيرة هي التي تموضع مبادىء العقل . « فكل كائن مكلف بأن يأخذ علماً بوجوده ، بغية الدخول في « حسابات » ومعاودة الدخول لا « ودائع » في دورة الإنتاج والاستهلاك . والوجود المنسي لم

(١) مرجع سابق ، ص ٤٧ .

يعد ينظم الكائن : الإرادة لا تزيد القوة ، إنها لا تريد أكثر من رغبتها في أن تكون هي نفسها إرادة الإرادة . وهذه السيادة للتقنية كعدمية لا تتحدد في سيادة الآلات ، كما أنّ التيهان لا يطال العالم الصناعي وحده « إذا كان الأمر كذلك ، يمكننا إذن تعظيم علم البيئة بوصفه إجابة تقنية على المشكلة المطروحة بواسطة إفناء الأرض تحت فذلكة التقنية »[1] .

وما أن يستشف الإنسان حقيقة أهداف التقنية حتى يبدأ بتحسس أبعاد مأزقه الوجودي . ويكتشف أنّ الحياة لم يعد لها من معنى خارج رتابة الغائية الآلية ، ورغبات الإنسان وحاجاته المتعددة والمتنوعة تغدو مختزلة في دائرة السلعة ومشتقاتها . واستتباعاً ، يفقد الإنسان قيمة جانبه الروحي ويسير في كينونة ضاعت منها أهدافها المتعالية ، التي كان ينبغي أن تكون التقنية في خدمتها ، لا أن تكون هي أول وأهم ضحية لهذه الأخيرة . أمّا العقلانية فقد بلورت معرفة متناهية غير أنّ مبادئها لم تترك أمام الإنسان أي مجال للهرب : القبول بالأمر الواقع أو الانتحار البطيء . وهرباً من الخيار الثاني ، ينتقل الفرد الأوروبي من بؤس التراكم البضائعي إلى رفاهية الانتشار الاستعماري دون أن يخالجه شعور بأن شيئاً ما يحدث في العالم ! .

لقد كان شيئاً عظيماً بالنسبة إليه الاحتفاظ برفاهية أتقنت الرأسمالية والعلموية صناعتها وإن كانت هذه الرفاهية تخفي في أعماقها بشراً مطلقاً . سبق للتقنية أن مارسته قبل أن تقذف الغربي إلى الخارج في مسيرة عنف لا يطاق . فقد قتلت فيه معنى الوجود والأعماق والروحانية التي كانت تبقى بما تبقى من زهدية المسيحية وتفاني رسولها من أجل خلاص الإنسانية . لقد عزلته عن ذاته ، وعن حاجته الماسة للتماهي مع « الإلهي » ؛ وأكثر من ذلك ، طبعت في شخصيته وعياً مترسخاً يرغمه بطء وعناد على الانفصال والابتعاد عن الألوهية وما يتعلق بها من قيم

(١) هل تختصر التقنية الغرب من هايدغر إلى التوراة ، ص ٢٤١ .

ومعان ، ليدفعه فيما بعد إلى الاستقرار في أحضان السلعة وحدها وشهوة الجسد .

وكل ذلك لم يكن ممكن الحدوث لولا تحول الحضارة إلى مدنية ، أي : انحطاط الانفجار المبدع للطاقات الكامنة في الإنسان وبدء مسيرتها في انتظام تراجعي قلب عظمة الحضارة إلى علموية تنتشر كالوباء وتحيل الإنسان إلى « حيوان قائم بصلابة » ، كما يقول هايدغر[١] .

نخلص من كل ذلك إلى ملاحظة أساسية وهي أن العلموية والتقنية قد ساهمتا في إنتاج حضارة تستوي على قاعدتين : عزل المعرفة عن الحكمة ونفي روحانية الإنسان . بمعنى آخر ، أسفرت علموية الغرب عن نزوع مادي عبّر عن نفسه باستعداده الدائم لإزاحة كل ما يمكن أن يعرقل تحققه ، سواء كان ذلك المانع « إلهاً » أو إنساناً آخر . فإذا كان الإله أصلاً لدين محلي تصدر عنه القيم والعلاقات والغايات ، فهو عقبة أمام النمو وينبغي تهميشه وعزله ، وإذا كان ذلك الإله مصدر قوة تمنح للمغلوبين قدرة على البقاء ورفض الغرب ، فهو أيضاً عائق كبير أمام النهب والاستغلال وينبغي كذلك تصفيته . وإذا كان الإنسان الآخر غربياً يرفض منطق الحياة الرأسمالية فهو استثناء عن القاعدة ، ويفترض بإيديولوجية العلم والتقنية أن تطوعه . وإذا كان الإنسان الآخر شرقياً بماهيّته ووجوده وحضارته ورافضاً الذوبان في مادية الغرب أو الخضوع

---

(١) يقول هايدغر في كتابه الخاص عن نيتشه ، ص٢٤٥ ـ ٢٤٦ « منذ أن كانت حيوانية الإنسان موكولة إلى إرادة القوة بوصفها الجوهر الخاص لهذه الحيوانية ، فإن الإنسان يصبح « الحيوان القائم بصلابة » . بالمقابل فإن الإنسان الذي بحث لغاية الآن ، عن تعريف له في العقل وحده يصبح عبارة عن « الحيوان الذي لم يقم بعد » . لهذا السبب ومن وجهة نظر عدمية ، تعني كلمة « أنسنة » أنها تجعل من الإنسان بادىء الأمر الإنسان القائم بواسطة عكس أولوية العقل إلى أولوية الجسد » .

Martin Heidegger : Nietzsche. N.R.F. Paris 1371 .

له ولمصالحه ، فإنّ العلم أيضاً وبمساعدة التقنية ، ملزم بالقضاء عليه .
وأثناء ذلك كله يكون الإنسان الغربي قد تحدث مع الجميع إلاّ مع ذاته .
فالغرب يحاور الشرق ، والدول الصناعية تحاور الدول النامية ،
والشمال يحاور الجنوب . . . وإلى جانب كل ذلك يقوم « عدم الحوار
بين الإنسان وذاته ، الإنسان وروحه ، أي : الإنسان الديني ، الماقبل
غاليله ، الإنسان الغربي الذي بسبب سيطرته العالمية ، فرض فطرته على
مجمل الكرة الأرضية »[1] . صحيح تماماً أن حضارة العلم والتقنية قد
جعلت منه « سيداً ومالكاً للطبيعة » ، ولكن ما هو صحيح أيضاً أنّ هذه
الحضارة كانت مسؤولة ، منذ ما يقارب الخمسة قرون ، عن ذلك
« النمو السرطاني للقدرات العقلية للإنسان ، الذي كبت صور الروح
لكي يعزلها في كواليس اللاوعي . وهذا الكبت جعل منه إنساناً عصابياً
أحياناً مجامل ، وغالباً خطير »[2] .

قد يتبادر للذهن أنّ الصفحات السابقة قد تعمّدت تشوية الوظيفة
العالمية للعلم الغربي ، أو على الأقل رفضت رؤيته كأصل لحضارة تتربع
الآن على عرش الثقافات ، لكن ما يبدو لنا معقولاً وواقعياً هو أن ذلك
العلم ، بوصفه نظاماً للفكر وطاقة في الإنسان وأصلاً للحضارة ، كان
كذلك قبيل القرن التاسع عشر ، أمّا بعده فقد سار العلم شوطاً بعيداً
وبات يهدّد بصورة ما مستقبل الإنسانية . وبديهي أن لا يأتي التهديد من
العلم كنشاط ذهني وعملي وإنما من مساره وغايته التي سبق وتحدثنا
عنها . فالمسألة إذن ، لا تقف عند حدود العلموية والتقنية وما آلت إليه
نتائجهما على صعيد رؤية الغرب لذاته وللعالم ، بل تتعدّى ذلك إلى
موضوع أكثر شمولية وأهمية ، وأعني به علاقة العلموية مع الألوهية ومع
الحضارات التي شيدت حرصها على أساس متين من الروحانية

(١) ماهي الثورة الدينية ، مرجع مذكور ، ص ١٢ .
(٢) مرجع سابق ، ص١٢ ـ ١٣ .

والأخلاقية والإنسانية والألوهية في وحدة لا تتجزأ .

لذلك ، فالعلموية تندرج في سياق نسق حضاري يسعى إلى نفي الألوهية ، وفي أحسن الأحوال يعمل على تهميشها وفي نفس الوقت الذي يخلق في الفرد وعيه بأنّه أصل وسيد جميع العناصر سيد ومالك الطبيعة ، واستتباعاً ، منتج القيم الوحيد . أما التقنية فقد كانت بدورها شكلاً محترفاً للعلم ، بواسطتها تتعاظم ثقة الإنسان الغربي بنفسه وبقدرته المتنامية على حساب « الإلهي » وأي إنسان آخر . وهذا لا ينقص من قيمة العلم والتقنية بقدر ما يرصد الأبعاد الفعلية للنتائج التي وصلا إليها . فإذا كانت عقلانية الغرب قد استطاعت بواسطة العلوم والتقنيات من إبداع وخلق أنجح الوسائل للسيطرة على الأشياء والطبيعة والبشر ، فإن مأزق هذه العقلانية هو الهدف الذي انتهت إليه عملياً ، والذي من خلاله تحولت الوسائل إلى أصل وغاية قائمين بذاتهما . فقد جرت صياغة العقل العربي في كفاح من آلاف ومؤلفة من السنين من أجل الكينونة ، من أجل التحكم بالأشياء واستعمالها من خلال التجارب والأخطاء ، وقد كان وسيظل ضرورياً لبقاء الإنسان . « لكن مجتمعاتنا الغربية منذ النهضة قد أنقصت العقل إلى هذه الوظيفة الوحيدة . فمثل هذا الإنقاص ومثل هذه المسلمة يقودان لا مفر إلى استكمال الحتمية بإفراط ، التي لا غنى عنها لفعل مؤثر للعلوم والتقنيات على الطبيعة وإلى حتمية معممة تتجاوز الطبيعة والمقاصد التي يمكن أن تكون لنا فيها ، من أجل أن نسوسهما بعلاقتنا مع الناس الآخرين ومع مستقبلنا الخاص . كان ذلك أن يفيد وضع أنفسنا تحت نير قدر جديد ، حيث لا يعود في وسع شيء أن يبرز لا يكون المحصلة أو الناتج عن أسباب أو قوانين موجودة من قبل وتغض النظر ، كمسلّمة ، عن كل إمكانية مقبلة للإنسان في أن يبتكر ما ليس في امتداد الواقع المعتبر كمعطى ثابت ، فانطلاقاً من مسلمة هذه الحتمية المعممة كما قال مارتن بوبر : « لا يبقى للمرء الخيار

إلّا بين العبودية الطوعية والتمرد غير المفيد »[1] .

وهنا بالذات ، تظهر صعوبات كل محاولة معرفية تسعى للخروج عن النسق الذي تم تسويغه بإتقان من قبل العلوم والتقنيات ، كما تبدو كل معرّفة خارج هذا النسق وكأنها جهد في الفراغ ذلك أن أية معرفة لا تستطيع أن تنسجم مع هذه الصيغة إلاّ تلك التي جاهرت بانفصالها عن الحكمة ، أي : إنفصالها عن السعي الدائم نحو معرفة تضع مسيرة الإنسان في سياق تحقق الألوهية في العالم على شكل عدل ومساواة وتقدم بين البشر جميعهم . فالمعرفة التي تنفصل عن الحكمة هي التي تصبح غاية ذاتها وتبتعد عن « التفكير في الغايات » ، كما يقول غارودي[2] . أو أنها الوسيلة التي يتمكن بواسطتها حزب الرأسمالية من إعادة نظام العصور الوسطى عن طريق العلم كما يقول نيتشه : « كل القرن التاسع عشر ، لغاية ١٨٤٨ ، يختصر نفسه في محاولة لإعادة عصر وسطي مصطنع ، ونظام قديم خاطىء ، وذلك بجهد يعطي وقف الروح التيوقراطية (الإلهية) للسلطات الدنيوية . ولا تستطيع هذه الجهود المتأخرة أن تخدع . فالعلم الحديث قد قوّضها مسبقاً . وهو الذي أقام الإنسان في عالم أرضي لا يستطيع مغادرته ، بالأحرى ، وضع العلم الإنسان في هذا العالم بشكل نهائي ، لأنه تجهز بوسائل تجرد الإنسان من كل اهتمام شخصي وتسمح له بالنظر إلى نفسه من فوق الكواكب »[3] .

وفق هذا السياق يأتي الحديث عن العلموية والتقنية بوصفهما دائرة معرفية متعارضة مع الألهوية ، انحبس الغرب في داخلها وإنطلاقاً من سجنه بدأ يتطلع إلى العالم . فكل شيء أصبح خاضعاً لمبادىء العقل

---

(١) نداء إلى الأحياء ، مرجع مذكور ، ص ٦٢ .

(٢) مرجع سابق ، ص ٥٢ .

(٣) شارل اندلر : نيتشه ، حياته وفكره . مرجع مذكور - جزء ثاني ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

وحده ، وكل قيمة أو نظام أو مستقبل قد تقرر مصيره بشكل أولي وفق إرادة الإنسان ورغباته ، الإنسان الذي بدأ يشعر منذ هذه اللحظة ، أنه سيد العالم وأنه أصبح بالفعل أصل ذاته ومحدد نهايته وأنه لا إله في الوجود غيره هو ؟ وإذا تابعنا التسلسل هذا إلى نهايته المنطقية ، نصل إلى اعتبار العلم الغربي وقد سار باتجاه يضع النظام الإلهي موضع تساؤل ، ويبرّر للإنسان ظهوره بصورة حامل القيم الوحيد ، مبدع الأخلاق الجديدة التي خرجت من رحم التقنية والتي وضعت جانباً تلك القيم والمعتقدات التي تكرّر في التاريخ وصفها بالأخلاق النابعة عن إرادة إلهية أو المتوافقة مع مبادىء دعت إلى اتباعها رسائل الأنبياء . وبكلمة واحدة ، لقد قتلت التقنية الألوهية الكامنة في ذات كل فرد وتطمح لأن تلغيها من العالم .

ففي كل مرة توسّل فيها الغرب العلم من أجل السيطرة ، يكون بذلك قد وضع العلم والإيمان في صراع مكشوف . وكلما كان العلم ينتصر كلما كانت ثقته بالقضاء على الألوهية تزداد . فعندما زحف الغرب على الشرق متسلحاً بالمسيحية وساعياً وراء الفائدة المادية فحسب ، كان بذلك قد أعلن موت الله ، والنهضة التي تقنعت بالمسيحية كانت في الواقع ولادة متوازية للرأسمالية وللمغامرة الاستعمارية ، وهي التي ـ أي : النهضة ـ « دمرت الإنسان من خلال تعظيم إرادة القوة في الفرد ، الذي أصبح أكثر فأكثر غير مبال تجاه الله ، والتي عملت من العلم ، المنفصل عن الحكمة ، خادماً لقابليات السيطرة على الطبيعة والبشر في أميركا ، قتل المغامرون المصابون بحمى الذهب الرجال ودمروا الحضارات الخاصة بقارة بكاملها . والمغامرة الاستعمارية بدأت مع مجزرة الهنود . ولكنها تواصلت في أكثر المحاولات فظاعة ضد الوحدة الإنسانية : نخاسة زنوج إفريقيا . عشرة ملايين عبد جرى شحنهم إلى أميركا لكي يحلوا مكان العمل القسري للجنود المستأصلين . عشرة قتلى

مقابل كل أسير . أي مائة مليون رجل قد أبيدوا . وهكذا كان الله قد بدأ يموت في الغرب »[1] .

وقد تجلى موت الله بادىء الأمر ، بقبول جماعي بما توصلت إليه حضارة العلم والآلة ورأس المال . ثم لم يلبث أن تدعم بجهود المعرفة الإنسانية التي مهدت الطريق ليس فقط لتبرير موت الله في الغرب ، بل أيضاً لاقتناع الغربيين بضرورة مطاردة أي وجود إلٰهي في أية بقعة من العالم ، طالما أن هذا الوجود يتعارض مع هذه المعرفة باعتبارها خلاصة نظرية لإرادة رأس المال . وبينما تضفي العلموية والتقنية ونمط الحياة الصادر عنهما ، شرعية تاريخية لمحاربة الألوهية في الغرب وخارجه فإن موت الله يغدو نتاجاً طبيعياً لحضارة قامت على تعليم المادة ، سلعة كانت أم إنسان . وهذا يعني من وجهة نظر دينية ـ إسلامية أو مسيحية ـ أن الحياة قد فقدت علاقتها بما بعدها ، وبأنّ الوجود الإنساني لم يعد له في الواقع أي معنى . أي : الإثبات بأنّ لا شيء يسمح لنا « أن نفترض وجود عالم آخر ، أو أشياء في ذاتها ، يكون إلٰهياً ، أو يكون أخلاقاً مجسدة »[2] . إذا كان كل ما هو موجود بذاته مفتقداً للمعنى ، إنه لا يوجد من الآن فصاعداً أخلاق مجسدة في عالم آخر متعال عن عالم الصيرورة المحسوس ، فذلك يعني أن العالم المتعالي نفسه قد أصبح مجرداً من أي معنى ، وإن كل الأخلاق التي تأسست عليها حقيقة الدين والفلسفة أصبحت بالضرورة باطلة . إنّ غياب كل معنى بات مرتبطاً بالتالي بموت الله . تماماً كما لا يكون تاريخ الفلسفة تاريخاً للحقيقة ، ولكنه تاريخ البناء العضوي للأخطاء والتي تلتصق بالجسد والروح . وتنتهي بأن تسيطر على الانفعالات والغرائز » ، على حد تعبير نيتشه[3] .

---

(١) غارودي : من انفعال الغرب إلى حوار الحضارات ، مرجع مذكور ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٢) نيتشه : إرادة القوة ، مرجع مذكور ، ص٤٣ ـ ٤٤ .

(٣) مرجع سابق ، ص ١٨٩ ، وكذلك كتاب شايغان المذكور آنفاً ، ص ١٠٩ .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الغرب الأوروبي هو المنطقة الجغرافية الوحيدة في العالم حيث لم تولد أية ديانة كبرى[1] ؛ وأنّ أوروبا هي القوة شبه الوحيدة في العالم التي استخدمت الألوهية والمسيحية المعبرة عنها من أجل السيطرة فحسب ، فإن أية معرفة تصدر عنها لا بدّ وأن تصطدم في نهاية الأمر بالألوهية التي كانت بالنسبة إليها أداة لا أكثر . نفس الشيء ينطبق على الفرد فالإنسان الغربي الذي تماهى مع حضارته بشكل قوي وتمظهر بصورة إنسان أعلى على شاكلة الحضارة الأعلى ، لمْ يلبث أن قتل الله ليحتل مكانه : يبدع القيم ، ويعتقد أنّه الواقعية الوحيدة والإثبات الوحيد . . واستتباعاً فالغرب هو الذي يبدع القيم ويصدّرها إلى العالم ، وهو الواقعية وكل ما عداه باطل ، وهو الإثبات الذي يقابله سراب ووهمية العوالم الأخرى .

وهكذا ، تخرج « معرفة الغلبة » من رحم العلموية والتقنية ، تماماً كما تخرج منهما عظمة الأنا الغربية ، وبالتالي يتأسس منطق الحضارة على قاعدة إثبات هذه الغلبة على صعيد الحضارة والذات الإنسانية في آن واحد . لأنّ كلاً منهما تتماهى مع الأخرى ، وهما معاً يتنافيان مع الصيغة التي ارتأت الألوهية أن ترى بواسطتها مسار الحضارات والبشر . ويمكن القول أن منطق الحضارة الغربية يعلن في كثير من مظاهره ليس فقط أنّ الله قد مات وأنّ عقل الإنسان قد ناب عنه ، بل أيضاً أنّ كل فرد يحاول أن يعيد الله إلى هذه الحضارة إنما يكون عدواً للعلم وبالتالي « مجنوناً » .

في السابق كان « المجنون وحده يقول في قلبه ، في سريرته : ليس هناك من إله » ، كما يقول القديس انسلم[2] ، وعندما وصلت الحضارة إلى ذروتها التمدينية ، كان المجنون وحده هو الإنسان الذي

---

(١) يشير غارودي في كتابه : « وعود الإسلام » إلى أن أوروبا « هي القارة الوحيدة في العالم حيث لم تولد أبداً ديانة كبيرة » ، ص ١٨ نقلاً عن النص الفرنسي .
Roger Garaudy : Promesses de l'Islam. Ed. du Seuil, Paris 1981.

(٢) نقلاً عن غارودي ، نداء إلى الأحياء ، ص ٥٥ .

يبحث عن الله ويعترف بالبؤس الذي تعانية البشرية من جراء قتله . في الحالة الأولى كان العقلاء مؤمنين والكفرة مجانين ، وفي الحالة الثانية أصبح العقلاء كافرين والمجانين مؤمنين . ويختصر نيتشه في « المعرفة الفرصة » مفارقة المجانين هذه ، ويسود واقعة تعفي تعابيره الإنسان من التفسير والتأويل : فالحضارة الغربية بالشكل الذي استعرضناه أسفرت عن موت الألوهية ، والمجنون وحده هو الذي يبحث في الغرب عن ألوهية تنقذه من الحضارة النووية ، وقد يكون هذا المجنون العاقل الوحيد الذي قد يعيد للحضارة صوابها : « ألم تسمعوا بذلك الرجل المجنون ، الذي أشعل قنديله في صباح نهار مشرق ، ثم أسرع إلى ساحة المدينة ، وهو يصرخ بلا انقطاع : أفتش عن الله ، أفتش عن الله ! وبما أن في تلك الساحة ، وفي ذلك الوقت بالذات ، كان كثيرون تجمعوا واقفين ، من أولئك الذين لا يؤمنون بالله ، صار هذا الرجل عرضة لقهقهاتهم وضحكهم الكثير وسخريتهم . هل أضاع صوابه حقاً ؟ قال أحدهم : هل ضل طريقه كالطفل ؟ قال آخر : أم أنه يحاول إخفاء نفسه عنا ؟ هل هو خائف منا ؟ هل ركب السفينة مسافراً » . راحلاً عن بلدته ؟ هكذا كانوا يصرخون ويضحكون ، واختلطت أصواتهم ، مسببة تشويشاً وبلبلة . وقفز الرجل المجنون في وسطهم ، وأخذ يتفرس في وجوههم ، مصوباً نحوهم نظراته الحادة النافذة . أين هو الله ؟ إلى أين مضى ؟ صرخ فيهم . أريد أن أقول لكم : نحن الذين قتلوه ـ أنتم وأنا ! نحن جميعنا ارتكبنا جريمة قتله ! ولكن كيف فعلنا ذلك ؟ كيف كان في استطاعتنا أن نشرب البحر حتى آخر قطرة فيه ؟ من أعطانا الإسفنجة ، كيف نمحو الأفق كله ؟ ماذا فعلنا ، عندما أعتقنا الأرض من شمسها ؟ حول ماذا تدور الآن ؟ ونحن ، حول ماذا ندور ونتحرك ؟ بعيدين من الشموس ؟ ألسنا نتدهور في استمرار ؟ وإلى خلف وجانباً ، وإلى الأمام ، في كل الاتجاهات ؟ هل بعد ، ما هو فوق ، وما هو تحت ؟ ما

هو أعلى ، وما هو أدنى ؟ ألسنا نتيه ، وكأننا نسير من جانب إلى جانب ، وفي كل مكان عبر عدم لا نهاية له ؟ . لقد مات الله وسيظل ميتاً ونحن الذين قتلوه : كيف نعزي نفوسنا ، نحن أشد القتلة إجراماً ؟ أقدس ما كان العالم يقتنيه وأقواه حتى الآن ، نزف دمه تحت طعنات سكاكيننا ـ من الذي مسح هذا الدم عنا ؟ بأي ماء سيكون في وسعنا أن نطهر نفوسنا ؟ أية احتفالات تكفير وفداء وأية ألعاب مقدسة ، سيتوجب علينا أن نخترع ؟ أليست ضخامة هذا العمل كثيرة جداً بالنسبة إلينا ؟ ألا يجب أن نصبح نحن أنفسنا آلهة كي نكون أهلاً لهذا العمل ؟ »[١] .

د . علي الشامي[٢]

* * *

---

(١) F. Nietzsche : Le Gai savoir. Fragments pasthumes (1881-1882). Textes et Variaute, étables par G. colli et M. Montinari, Traduction. P. Klossowski, Paris, Ed. Gallimard, 1967, P.P. 137-138 .

(٢) د . علي الشامي / الفكر العربي / العدد ٤١ السنة السابعة ١٩٨١ بيروت .

القسم الثاني

قراءة في العلموية والألوهية

إذا أريد نسبة شيء إلى العلم قيل : علمي . إلا أن الدكتور « الشامي » نسبه فقال : علموي . ويبدو أنه يريد الجمع بين أمرين هما : العلم وفلسفته ، وينتج منهما « أيديولوجية » .

فهو مثلاً يذكر تعريف « جاك موندو » للعلم ، وهو[1] : (جملة الطرائق الرياضية والتجريبية ، التي أمنت للإنسانية سيطرة رائعة على الطبيعة) .

وأما « العلموية » فهي (جملة من الخرافات والمعتقدات الباطلة التي تدعي الإفادة من شرعية خطوة هذه الطرائق ، من أجل أن تفسر بها أو تنفي باسمها جميع الأبعاد الأخرى) فإذا قبلنا هذا الاصطلاح ، والتفريق بين « العلم والعلموية » فيكون العلم طريقة ، والعلموية حاصل جمع الطريقة والهدف معاً .

أسارع للقول : إن العلم بذاته ليس مؤذياً ، وإنما فلسفته هي التي حولته إلى « دين » ليس مساوياً للأديان ، بل فوقها . وإلى هذا التفريق يشير د . الموصلي بقوله[2] :(من الواضح أن «الأصوليين»لا يرفضون العلوم بحد ذاتها ، بل فلسفتها ، فالعلوم عندهم وسيلة وأداة ، وهذا مشابه لما دعا إليه « ستيورث مل » في قوله : إن العلم هو وصف وظائفي ، لحقائق ناتجة عن الملاحظة والتجربة . فآراء « الأصوليين »

---

(١) من العلموية إلى الألوهية ص ٦٤ (الأصل) .

(٢) مجلة الاجتهاد العدد ١٠ ـ ١١ ص ٢١٥ .

كآراء « مل وهيوم » ضد التنظير الفكري ، لأنها تشك في قدرة الإنسان على التوصل للحقيقة ، سواء أكان ذلك عن طريق الفلسفة أم العلوم ، أم فلسفة العلوم) .

جعل الغرب من « العلموية » تعبيراً نظرياً ، ومن التقنية تعبيراً عملياً ، والاثنان يشكلان « دين الحضارة » .

أما « المادة » فهي معبود العلموية ، والتقنية رسولها ، وقد رفعت « المادة » مهمشة الروح ، هكذا فعلت وتفعل حضارة الغرب .

نتيجة للجمع بين العلموية والتقنية ، تعاظم البعد عن الله ، فكل اصطدام بينهما يكون الدين هو الخاسر ، وفي هذا يقول راسل : (حينما تتعارض المبادىء الدينية مع نتائج البحث العلمي ، يكون الدين دائماً في موقف دفاعي ، ويتعين عليه أن يعدل موقفه ، لأن الأمر الطبيعي أن الإيمان ينبغي أن لا يتعارض مع العقل ، وكما كان التعارض يقع في ميدان الجدل العقلي ، فإن الدين هو الذي ينبغي عليه أن ينسحب دائماً)[1] .

وهكذا يعمم « الدين » ليشمل كل الأديان .

لقد درس شيخ الإسلام ابن تيمية في « درء تعارض العقل والنقل » الموضوع ليصل إلى أنه لا تعارض بين الاثنين ، فإن كان لا بد واقع أخذنا بالقطعي منهما .

إن العلم يدرس الظواهر ثم يضع فرضيات ويباشر الامتحان ، فإذا نجحت فرضية اعتمدها وأقام البرهان على صحتها ، ثم تعمم النتيجة كقانون ، ولكن الملاحظ أن الباحث يستعجل أحياناً فيعمم قبل « النضج » إنه يعمم النظرية قبل أن تصبح حقيقة علمية . وعلى هذا فليس كل نظرية علمية حقيقة مطلقة ، كما ليس كل خبر ديني حقيقة قطعية . فأغلب النصوص الدينية إما قطعية الثبوت والدلالة أو قطعية

---

(١) حكمة الغرب ترجمة فؤاد زكريا ، عالم المعرفة العدد ٩٢ ص ٣٢٢ .

الثبوت دون الدلالة أو هي ظنية الدلالة والثبوت .

فإذا جرى اصطدام بين حقيقة علمية ونص ديني قدمنا القطعي منهما وأولنا الآخر كما يقرر شيخ الإسلام .

تبقى قضية ينبغي أن لا تفوت ، فالقرآن كتاب الله والتوراة كتاب الله الذي لحقه التحريف ، كما تشهد بعض نصوصه ، وأحيل على أسفار « أرميا الكاهن » وعددها يزيد على الخمسين وفيها ذكر للتحريف صريح ، كما درس الدكتور « بوكاي » الكتب الدينية من زاوية مطابقتها للعلم فأثبت عدم وجود نص قرآني يتعارض مع العلم ، وعند دراسته للتوراة وجد العشرات من النصوص المناقضة للعلم ، فالتوراة مثلاً تتحدث عن « الحية » فتذكر « على بطنك تزحفين ومن التراب تأكلين » فهل الحيّات من أكلة اللحوم أم التراب ؟

لكن الغرب يعمم وتلاميذه يتابعونه بالنسبة للأديان ، بل ما حدث من صدام بين الكنيسة ورجال العلم ما يزال يعمم على جميع الديانات .

بالنسبة للعلماء المسلمين وقد يشاركهم المتدينون في الغرب يعتقدون أن العلم ينبغي أن لا يوجه بعيداً عن « الحكمة الإلٰهية » وإن مهمة العقل التفكر في الكون حتى يقود ذلك الإنسان إلى الإيمان بالله تعالى . هذا المنهج الإيماني أو التوجه في الحضارة الإسلامية يتناقض تماماً مع منهج الحضارة الغربية .

إن المعرفة البشرية ينبغي أن تقوم على التصالح والتفاعل مع الحكمة الإلٰهية ، لا أن تقوم على مناقضتها وهدمها . كما ينبغي الاعتراف بالخصوصيات الثقافية .

إن حضارة الغرب أو إنسانها راح يحتقر سائر الحضارات كما راح يعزل العلم كلياً عن الحكمة الربانية ، بل راح يحارب التدين ويعتبر كل دين لا يتصالح مع حضارته عدواً يستحق التدمير .

إن الشعور المتعاظم بالقوة والغلبة لدى إنسان الغرب جعله ينفي

حضارة الآخرين ، أو على الأقل خصوصيتها ، وحقها في الوجود والتطور والهوية المستقلة .

لقد أفرزت الحضارة الإسلامية « علماً » كان خادماً للإنسان باعتباره سيد الكون والخليفة على الأرض ، والذي كرّمه خالقه أما حضارة الغرب فأفرزت « علماً » أو « علموية » صارت الإنسانية من ضحاياه ، وصار مورداً « للربح » حتى لو باع الموت ، وسهل السرقة ، ونهب موارد الفقراء الضعفاء .

من الطروحات الغربية : أن كل ما هو ممكن تقنياً ، فهو مرغوب فيه ، بل ضروري ، يستوي في ذلك صنع السيارات والطائرات السريعة ، والقنابل الذرية والهيدروجينية ؛ وحرب النجوم ، أو حمل الأثقال ، وحتى طول الشوارب والغطس طويلاً تحت الماء ، أما جدوى ذلك فلا يسأل أحد عنه .

إن حضارة الغرب تحث إنسانها على « التفوق » على الأخرين في كل شيء ، أما جدوى هذا التفوق فلا ينبغي الوقوف عنده كثيراً لعدم الأهمية .

وبعد هذا وفوقه فإن حضارة الغرب تعمل للتفوق على كافة الحضارات ، بل مسحها والقفز فوقها ، وعدم الاعتراف لها بشيء من السبق والأفضلية ، ويظهر ذلك واضحاً أمام الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص .

فكل شيء من صنع حضارة اليوم ، وكل ما أنتجته يجب أن يعمم ، وكل من لا يقبل ذلك فهو عدو ، وكل من يؤمن بقيم أخرى ينبغي أن « يحجم » أو يركن في زاوية مهملة .

خلال هذا النشاط والتسابق راح يبرز وجه « العدمية » التي تنبأ بها « نيتشه » وقال بأنها ستعم الغرب ، ولا سيما بعد أن طردت العلموية والتقنية « الألوهية » ، وراحت تظهر تشنجات لحضارة الغرب ، فأفرزت

ـ فيما أفرزت ـ العنصرية والاستعمار .

كما راحت تروّج لسوق النفاق فتتحدث عن العدالة وحقوق الإنسان ، لكنها لا تقول أي إنسان تريد أو تعني ، وقد صاغ شاعر هذه المفارقة فقال :

قتل امرىء في غابة جريمة لا تغتفر   وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

يهود العالم يجب أن يهاجروا إلى فلسطين ، لأنها موطن الأجداد ، وتشريد الشعب الفلسطيني ووضعه في مخيمات مسؤولية عربية .

من هنا برزت « إشكالية » تتمثل بإعطاء الأولوية للعلم باعتباره أداة تقدم ، أما العقل فتجعله في انفصال وبُعد عن الحكمة الإلٰهية بحيث ينتفي دور « الإيمان » والذي كان بمقدوره أن يمنح العلم أبعاداً هو أحوج ما يكون لها اليوم ، وبسبب من هذا الانفصام تعيش دول الغرب ومجتمعاته في ثنائية غريبة هي « العلمانية » التي تدفع المقدس عن كل شيء وتنفيه وتبعده .

لقد كان بالإمكان أن يتطور العلم في عقلانية متصالحة مع الألوهية ، حتى تتوازن حاجات الروح والمادة ، الفرد والجماعة .

إن حضارة اليوم تشبه إنساناً نما عقله وكبر حتى صار يزن نصف جسمه ، كما نمت شهواته وحاجاته على حين تضاءلت روحه وأشواقه ، وربما عواطفه ، فلم يعد شخصاً متوازناً . إن حضارة اليوم تفتقد التوازن ذلك الذي حققته حضارات سابقة ، وبسبب هذا الخلل ، عظمت أحزان الإنسان ، حتى كثرت حوادث الانتحار ، ليس في المجتمعات الفقيرة بل في تلك الغنية المشمولة بالضمانات من كل لون .

منذ بضعة قرون ، والإنسان الغربي يتجه بقوة نحو إلغاء أي معرفة ، لا تصدر عن عقل الإنسان ، فهو الأصل أما « الوحي » فلا قيمة له ، وقد كان المستند في ذلك « العلم » الذي استخدم مع فلسفته لطرد

الحضور « الإلهي » .

ونتيجة لتظافر العلموية والتقنية فقد قامت في الغرب ديانة جديدة ، رمزها « الآلة » وقد أخضعت الحياة كلها لمنطق العلموية والتقنية ، وتحولت الوسائل إلى غايات ، عن طريق « العقل » تعالج المشاكل وبواسطة « العلم » يحل كل عويص ، وكل قضية لا يحلها العلم فهي إذن مشكلة لاهوتية ميتافيزقية ، وهي إذن مشكلة زائفة لا تستحق البحث .

هذا المذهب « الوضعي » أفرز ـ فيما أفرز ـ ديناً يبحث فقط عن كيف ؟ ويرفض قطعياً البحث في : لماذا ؟

ادعت حضارة الغرب ازدواجية مزعومة بين « المادة والروح » جاعلة من« المادة » الحقيقة الأولى في العالم ، وكل حديث عن الروح فهو لا يزيد عن ثرثرة وترف عقلي لا حاجة له .

لقد رفعت الحضارة الغربية « التقنية » إلى مستوى « إرادة الإرادة » نافية إرادة الله تعالى ، واضعة إرادة الإنسان محلها . وقد اعتبر « هايدغر » المرحلة الحاضرة هي مرحلة سيطرة « التقنية » .

إن التقنية تحول الإنسان إلى مجرد « مستهلك » ، يخضع وجوده كله لمقاييس الصناعة ، حتى نطفه وأجنته ، على حين كان المفروض حصول العكس ، بأن تخضع التقنية للإنسان وحاجاته وضروراته .

إن التقنية والإعلان يصنعان إنساناً يتلاءم معهما ، وعليه أن يسرف في الاستهلاك ، والسوبرماركات مهمتها أن تعلمه كيف يشتري ما لا يحتاج ، ويكثر من الشراء .

يرى جارودي أن تاريخ « العلموية » الغربية هو مجرد تاريخ استلاب ، والاستلاب هو ذلك التشويه الذي أدخلته « التقنية » على العلاقات الإنسانية ، في الذهن والعواطف والممارسة اليومية ، أو بعبارة أخرى : سيطرة الطبيعة اللاإنسانية على الإنسان الداخلي .

لقد صار الإنسان عاجزاً عن الهرب من هذا الاستلاب أو الانفكاك عنه ، فالانبهار أمام قوة « الآلة » وقدرتها على مد الإنسان بما يحتاج وما لا يحتاج ، يدفع به للاستسلام المشبع والمتسرع بالإعجاب ، وهو مندهش ومرتبك أمام قوة « الآلة » ، وكل هذا جرده ويجرده من إرادته ، ويدفع به إلى مدنية مسرفة ، حتى يستسلم أمامها بكل خضوع وخشوع ، لم يعرفهما الإنسان إلا أمام الكوارث الطبيعية .

لقد أفرزت « التقنية » قناعة مفادها : إن الوجود يمكن أن يتحول من علاقات إنسانية ، إلى مؤسسات تحكمها وتضبطها مبادىء عقلية وتضبط حركتها ، كمثل انتظام حركة « الآلة » ، وهذا ييسر « تحول » البشر إلى آلات تستقبل « الأوامر » من جهة ما مثل : نظام ، قانون ، دولة ، حزب ، عقل إلكتروني ، أو شيء مماثل ، المهم ضبط الحركة واستمرارها ، وهكذا يتأكد تبعة وديمومة الإنسان « للآلة » المتفوقة عليه بأسرارها وقوتها وأهدافها .

من الملاحظ أن رغبات الإنسان وأشواقه وحاجاته وتطلعاته تختزل كلها وتضغط في دائرة « السلع ومشتقاتها » ، وهذا التوجه يفقد الإنسان جانبه الروحي وأشواقه ، وبدلاً من أن تخدم التقنية ذلك أسقطته ، دافعة به إلى زاوية الإهمال والنسيان .

يشعر الإنسان في الغرب أنه مدين بدين كبير لكل من « العلموية والتقنية » بتفوقه على الآخرين ، فقد أمداه بأسباب القوة والسيطرة ، على الإنسان خارج القارة الأوروبية والأمريكية ، وسهلتا انتهاب خيرات الآخرين ، وجعلتاه سيد الأرض .

من مفرزات العلموية والتقنية ابتعاد الإنسان في الغرب عن الله تعالى ، إذ لم يعد إنسان الغرب يشعر بالحاجة لرب العالمين ، وهكذا اندفع بقوة نحو المادة وشهوات النفس والجسد ، حتى راح يتباهى أنه حرر العلاقات « الجنسية » من القيود ، فلما ضربه طاعون « الأيدز » راح

يترنح كمن ضرب على رأسه بقوة ففقد توازنه .

لقد أفرزت « العلموية والتقنية » ـ فيما أفرزتا ـ أمرين كبيرين هما :

١ ـ العزل بين المعرفة والحكمة .

٢ ـ نفي روحانية الإنسان .

وهكذا اندفع الغرب يحارب كل دين يشكل سنداً للمغلوبين ، أو يكون رافضاً للغرب واستعماره واستغلاله ، ومن هذه الزاوية يمكن أن نفهم جيداً سبب « معاداة » الغرب للإسلام ، إضافة إلى الأسباب القديمة ، والتحريضات المستمرة ، التي تقوم بها أكثر من جهة ، فالمسلم المتدين تجب محاربته لأكثر من سبب من قبل الغرب ، ومن تلاميذه أيضاً ، بعلم أو دون علم .

وهكذا كانت رحلة الغرب من الحروب الصليبية إلى الاستعمار الحديث . تعددت الأسباب والموت واحد كما يقال .

لم يكتف الغرب بذلك ، بل شجع ويشجع كل جهة تقف في وجه الإسلام ، أو أي : دين أو عقيدة لا ترضى بالاستعمار والاستغلال ، ونهب الثروات والخيرات ، ومن هنا نفهم سر الدعم « لإسرائيل » وقد فهمت هي السر فراحت تغازل الغرب بأنها السد أمام الأصولية الإسلامية .

كما راحت تذكر بمناسبة وبدونها برفض الإسلاميين ومعاداتهم لحضارة الغرب ، حتى دعت لعدم مساعدة الأفغانيين بحجة كونهم إسلاميين ، بينما الماركسية أقرب للغرب من الإسلام ، لكنّها تنسى أو تتناسى أنها دولة دينية توراتية ، ترى في كل شخص غير يهودي « رجساً » أي : نجساً بنص التوراة .

فإن كان المجتمع غير متدين ، ولكنه يرفض التسلط الغربي والذوبان في حضارته فعلى « العلموية والتقنية » أن تتكفل بتركيعه ، أو

القضاء عليه ، بالحروب المحلية أو الطائفية أو القبلية ، فإن لم يكن ذلك كافياً ، فلتكن الكلمة للقوة النووية ، كما حدث لليابان في هيروشيما ونكازاكي .

مرة ثانية لا ينبغي أن يفهم مما تقدم الكفر بالعلم ، وما قدمه وما زال يقدمه ، ولكن الأذى جاء من خلطه بالفلسفة أولاً ومن استعمالاته ثانياً ، وليس من العلم ذاته .

إن الخطر جاء من علاقة « العلموية بالألوهية » بل وبكل الحضارات التي تقوم على أسس إلٰهية وأخلاقية .

فحضارة الغرب تتجاهل ، بل تعادي هذه الحضارات وكل من يؤمن بها .

إن الإنسان الغربي لم يعد يحترم أو يقدس سوى « الآلة » وصانعها كما يقول أريك فروم في كتابه العالم بين المظهر والمخبر .

إن الغرب سجن نفسه في ذائرة « العلموية والتقنية » بوصفها دائرة معرفية متعارضة مع « الألوهية » ومن موقعه من هذا « السجن » راح ينظر للعالم من حوله ، ثم يرسم علاقاته بمن حوله ، فكل شيء خضع ويجب أن يخضع لمبادىء « العقل » فقط ، وكل نظام يجب أن يقرر مصيره وفق « إرادة الإنسان » ورغباته .

وأي إنسان ؟ ذلك الذي يعتقد أنه سيد الكون ، إن لم يقل لا إلٰه سواه ، هذا الإنسان حامل القيم ومبدع الأخلاق ، وأي قيم وأي أخلاق ؟ تلك التي أنتجتها وأفرزتها « العلموية والتقنية » والتي أزاحت كافة القيم والأخلاق التي جاءت عن الله تعالى ، أو على الأقل تلك التي تتوافق مع ما جاءت به الأنبياء والرسل .

لقد حطمت التقنية العلاقات والصلات الروحية للإنسان بخالقه ، ويبدو أنها تعمل بهمة ونشاط لإلغائها من العالم كله ـ ما عدا إسرائيل ـ فهذه لا يجرأ الغرب على التحرش بها . إن العلم كلما سجل انتصاراً في

قضية ، ازدادت ثقة الغرب بقدرته على القضاء على « الألوهية » وأن يكون بديلاً عن الدين ، أي دين وفي أي مكان .

إن الغربي وهو يستعمل العلم والتقنية صار يشعر بالقوة الكافية تجاه الآخرين ، يقول برناردشو[1] (كنت أعرف دائماً أن الحضارة تحتاج إلى دين ، وأن حياتها أو موتها يتوقفان على ذلك . . . إن الحضارات تسقط في اللحظة التي تكون فيها قوة الإنسان أشد من قوة الدين) اهـ .

الدين ضابط اجتماعي يضبط سلوك الفرد ، فإذا نُحّي جانباً عندها سيعمل الفرد ما يروق له ، وخصوصاً حين يكون قوياً ، سيستعمل قوته ضد غيره وضد الطبيعة ، وأحياناً ضد نفسه . من هنا نفهم السر في موقف الحاكم المستبد من الدين فهو عدوه الأول ، والمصادر الأكبر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

الدين يقول للناس يجب أن لا يستعبدكم أحد ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، والحاكم المستبد يقول « ما علمت لكم من إله غيري » ويقول « أنا ربكم الأعلى » لذا لن يسمح حاكم مستبد ظالم بتدين سليم ، ولن يرضى دين صحيح بحاكم يستعبد الناس ويستذلهم ويقهرهم .

الإنسان الغربي حين هاجر إلى أمريكا ، استعمل القوة للقضاء على الهنود الحمر يذكر الجنرال (شيرمان) أنه كان بين نهر الميسوري وجبال روكي عام ١٨٦٥ م نحو ٩ ملايين رأس من الجاموس ومعها ١٦٥ ألف من الهنود الحمر ، قام الأمريكان بالقضاء على الجاموس ليحل مكانه (بقر) وبدل الهنود الحمر الإنسان الأبيض ، والمبرر « الحضاري » لهذا الإفناء أن البقر أفضل من الجاموس ، والإنسان الأبيض أفضل ، لأنه يدفع ضريبة (الصهيونية حركة عنصرية ص ١٣٣ ،

(١) سقوط الحضارة (كولن ولسون) ص ٣٤١ .

من مقال للدكتور أدوارد سعيد) .

وفي أفريقيا نقل الإنسان الغربي ١٠ ملايين من الأفارقة ليعملوا في الزراعة واستصلاح الأراضي الأمريكية ، وكانوا يكدسونهم في البواخر دون أية عناية أو رعاية ، فمن مات قذف في البحر ، ومن بقي نقل إلى المصانع والمزارع .

وكان من نبل الإنسان الغربي ما حدث للباخرة « زيورنغ » حيث ألقى البحارة بالعشرات من الأفارقة في البحر أحياءً بحجة نقص الماء والطعام ، أما السادة فماذا كان اعتراضهم ؟ لقد أقاموا دعوى يطالبون فيها بالتعويض ، لأن البضاعة لم تصل كاملة ، نعم بضاعة ليس إلا !

ويتهكم « مونتسكيو » صاحب « روح القوانين » على الأفارقة ونقلهم ، فيقول : إنهم الوحيدون الذين حضروا إلى أمريكا بدعوة وأجور مدفوعة سلفاً . لكنه لا يقول لماذا نقلوا ولا كيف نقلوا ؟!

ينقل الدكتور عبد العزيز كامل حواراً بينه وبين أستاذ أمريكي جاء فيه أن العرب لا يفهمون الأمريكان وسلوكهم وموقفهم من « القوة » فيقول هذا الأستاذ : دخلنا أمريكا بالقوة ، وسيطرنا عليها بالقوة ، وانتزعنا استقلالنا بالقوة ، وتوحدنا بالقوة ، وقضينا على الهنود الحمر بالقوة ، وجلبنا الأفارقة ليزرعوا لنا بالقوة ، ولم ينتزعوا منا حقاً إلا بالقوة . ولم تزدهر عندنا كرة القدم ولكن ازدهرت ألعاب العنف من ملاكمة ومصارعة ، . . . افهمونا جيداً نحن لا نحترم إلا القوة . .[1] .

يطرح الدكتور الشامي تساؤلاً يتعلق بأزمة الإنسان الغربي الذي سجل تقدماً مادياً ، وخواءً روحياً أو انحطاطاً ، فما هو السر وراء ذلك ؟

وفي الرد يحيل على إنسان الغرب ، فتلك قضيته ، ومن الأفضل أن يناقشها هو ، وقد فعل ، فهذا اشبنجلر وكولن ولسن وأمثالهم كثير ، يرون هذه المفارقة تماماً ، ويحسون بالبعد بين التقدم المادي والهزال

(١) مجلة الخليج العدد ٧ السنة الثانية ١٤٠٣ هـ ص ١٢٦ .

الروحي ، ولا بد من ردم هذه الفجوة ، قبل فوات الأوان ، وقبل أن يتحول التفوق العلمي إلى كابوس كما حدث « لشارنوبل » .

إن الغرب المعجب ـ حتى العظم ـ « بعقلانيته » التي عجزت عن تحديد ماهية الوجود الإنساني ، فلماذا مثلاً تظل الحياة قصيرة وليست أبدية ؟

الغرب وضع مصطلحات كثيرة تتناول الإنسان ، ولكن هل يملك تعريفاً متماسكاً للوضع البشري ؟

كافة الحضارات السابقة كانت تعنى عناية واضحة بكل ما يتعلق بالإنسان ومصيره ، إلا الحضارة الغربية ، فقد أهملت ذلك إهمالاً مخيفاً .

فلماذا نولد ؟ ولماذا نعيش ، وأخيراً لماذا لا نجد مفراً من الموت ، وماذا يحصل لنا بعد الموت ؟

أهي كما قال القدامى : أرحام تدفع وأرض تبلع ؟؟ وإن كانت كذلك فهل تستحق كل هذا التصارع والتقاتل ؟

يرى الأستاذ « روجيه » هنا مفارقة كبرى لحضارة الغرب ، فهي تقدم نفسها حضارة « إنسانية » تعنى أولاً وآخراً بالإنسان ، فهو مبدأ وغاية لكل الأشياء ، ومع ذلك تعجز أن تقول له لماذا جاء ، ولماذا يموت بسرعة ؟؟

ويرى « روجيه » أيضاً أن الإنسان صار أشبه بدمية متحركة مهزوزة ، مفاصلها غير متماسكة ، بسبب آلية وضعيته في قطار ، لا يملك السيطرة عليه ، بسبب الحركة المتسارعة ، إنها عبثية حيث فقدت الحياة معناها وهدفها .

يزيد « روجيه » الصورة وضوحاً فيرى أن الحضارة الغربية تحتقر إنسانها وتخونه ، وهي التي لم تكف يوماً عن أن تصف نفسها بالإنسانية .

إنها تحتقره لأنها « تحصره » في الوظائف المادية والكمية ، وتخونه لأنها جعلته يصدق أنه بفضل التقدم والعلم وبفضل النظام الاجتماعي الجيد ، والتحرر من كافة الأحكام السابقة ، وأصناف القهر الموروثة ، بفضل كل ذلك يستطيع أن يبلغ السعادة ، بل ينتصر على الألم . . . وهي في ذات الوقت تقوم بتحطيمه ، وحرمان حياته من المعنى والأمل . .

إن النتيجة هذه هي محصلة الغايات التي طلبها الغرب من المعرفة بشكل عام ، وهي تدور حول ضرورة أن يتمكن الغرب من السيطرة ، أو توحيد نفسه حول هذه المهمة .

ولكن الذي حدث أن السيطرة أسفرت عن أزمات متلاحقة ، ابتداء من تصرفات الفرد وانتهاء بتصرفات المجتمع .

إن المعرفة القائمة على تمجيد « العلموية والتقنية » صارت وحياً جديداً ، وضع الإنسان مكان خالقه ، على حين احتجز الخالق في زاوية « العبادة » بدون فاعليه ، ولا تدخل في شؤون الحياة ، فتلك من نصيب الدولة ، وهكذا انفصلت الدنيا عن الآخرة ، والروح عن المادة ، فسادت الحياة « ظلامية وجودية » جعلت الإنسان يغرق في « عدمية » كالحة . وكل ذلك جاء من توظيف الإنسان الغربي للعلموية التي جعلها مناقضة للألوهية ، وروحانية الإنسان .

اجتمعت على إنسان الغرب « الظلامية والعدمية » فأفرزتا انفصاماً خطيراً بين « الإيمان والمعرفة » أو العلم والدين ، فالإنسان في الغرب يردد صباح مساء : (العالم لا يكون متديناً ، والمتدين لا يكون عالماً) .

ويرى « فرانز فون بادر » أن الظلامية وشقيقتها العدمية أفرزتا نتيجتين :

١ ـ نفي الله تعالى وإحلال الإنسان مكانه ، فاندفع باتجاه تطوير

غرائزه « التدميرية » التي ظلت حتى الأمس خامدة بفضل الدين والقيم ، فراح يهدد النظم بالتدمير والفوضوية ، وأقبل على المخدرات والمسكرات بشغف ونهم كبيرين ، ومن قبل هذا ظهر « الهيبز » بملابسهم ورفضهم حتى الاستحمام ، وكفرهم بجميع النظم ، أنه رفض تحت رايات الظلامية والعدمية .

٢ ـ لقد حاولت المسيحية ـ بدافع من الظلامية ـ أن تحمي نفسها من هجوم المعرفة ، فحملها ذلك على دعم علم « ملحد » يصارع الوحي ويدافعه ، بدلاً من التمرس بالإيمان والاحتماء بالقيم ، ومن العجائب أنها رضيت بالأدب الإباحي المكشوف ، والتماثيل العارية تماماً ، حتى نوادي العراة والشذوذ الجنسي لم تجد من الكنيسة ورجالها موقفاً صلباً ، ولو كموقف الكاثوليك من الطلاق والإجهاض .

لقد حث الإنسان الغربي خطاه وهرول نحو « التقنية » لكنّه سرعان ما صار من ضحاياها ، لقد أصبح خاضعاً « للسلعة والآلة » ففقد استقلاله بل ماهيته .

إن التقنية تفرض على إنسانها الغربي نظاماً شاملاً للأشياء والحياة والعالم ، وظهر الإنسان الغربي ، وهو يستسلم لهذه النتيجة ، وكأنه يسير بحتمية نحو « العدمية » أما السعادة الموعودة فبدت وكأنها مجرد « مأساة » أو ملهاة .

لقد عملت الأنظمة الغربية على إقناع مواطنيها بسمو حضارتهم ، ووجوب نشرها في العالم ، وإهمال خصوصية الحضارات الأخرى ، بل نفيها وإنكارها ، فكل الحضارات من صنع الإنسان الآري ، حتى كأن العالم لم يعرف حضارة من قبل سوى اليونانية وحضارة اليوم ، إن هذه الأنظمة تستهدف إقناع مواطنيها « بالرفعة » من جهة و« دونية » الآخرين من جهة ثانية ، ثم القفز إلى وجوب أن يخضع الكل لحضارة الغرب ومُثلها وقيمها ، ومن لا يفعل ذلك فلن يتقدم أبداً ، فكل الطرق تؤدي

إلى روما ، ولا شيء غيرها ، ومن يقرأ ما كتبه المؤرخ البريطاني « توينبي » يجده يكرر أن الحضارات كافة إما ميتة أو تحتضر ، وأن الحضارة الغربية توشك أن تلتهم ما تبقى من تلك الحضارات .

لقد أحصى ٢٦ حضارة ، سقط منها ١٦ والعشر الباقية ثلاث منها في النزع الأخير ، وما تبقى تهدده الحضارة الغربية بالقتل والامتصاص ، والعهدة على « توينبي » الراوي .

أطلقت الحضارة الغربية عنان الشهوات لإنسانها ، ثم صاغت نظاماً أخلاقياً يبرر الأنانية والفردية والحيوانية ، بحيث يصير الشوق إلى الرفاهية وجمع المال وتكديسه ، أقوى بكثير من السعي وراء تحقيق متطلبات الروح حتى قيل : اجمع اجمع ذلك هو الشريعة والقانون .

وقد جعل هذا المنهج الإنسان الغربي أكثر استعداداً لممارسة العنف ، ضد الذات وضد الآخرين .

لقد حددت حضارة اليوم بعداً واحداً للإنسان ، وهي تقوم ليل نهار بإقناع إنسانها باستحالة أن يبقى مرفهاً ، دون أن يقوم بنهب خيرات الآخرين وسلبهم ، فسعادته مرتبطة بذلك ، وبما أنه متقدم وهم متخلفون ، فحقه لا يجادل فيه أحد ، وقد تحدث « سارتر » عن ذلك عند تقديمه كتاب فانون (معذبو الأرض) فقال (إنكم تعلمون حق العلم أننا مستغلون ، سلبنا القارات ذهبها ومعادنها وبترولها ، وجئنا بكل ذلك إلى بلادنا ، وقد حصلنا من ذلك على نتائج رائعة : قصور وكاتدرائيات وعواصم صناعية ، ثم حين كانت الأزمة تهددنا ، كانت وظيفة أسواق المستعمرات أن تزيل الأزمة ، أو تحول مجراها ، وأتخمت أوروبا بالثروات ، وضمنت صفة الإنسانية لجميع سكانها ، فالإنسان في بلادنا شريك في الجريمة ، لأننا أخذنا جميعاً نصيبنا من استغلال المستعمرات) .

والسؤال فقط : متى يتوقف هذا النهب ، وإلى متى سيبقى الغرب

يشتري المواد الأولية بأرخص الأثمان ، ثم يصنعها ويبيعها بأضعاف أثمان الشراء ؟

إن الغرب يحول « رأس المال » إلى مشروع حضاري يضمن الرفاهية لإنسان الغرب ، والربح الوفير للمؤسسات ، والنفوذ للدول الصناعية الغنية .

وفي كل يوم تزداد ديون الفقراء ، ويزداد عدد الدول الفقيرة ، على حين تكبر وتعظم شهية الأغنياء . لقد غاب الاستعمار فخلفته البنوك والشركات الكبرى ، وهكذا راح السمك الكبير يلتهم الصغار ، ويسرق منه طعامه ، بل يسطو على أحلامه .

كنت أستمع لإذاعة لندن مساء يوم ٣/ ٨/ ١٩٨٨ فإذا وزير سوداني يقول أن بلاده استدانت مبلغ ٦٠٠ مليون دولار ، وخلال سنوات قليلة صار الدين ٢٠٠٠ مليون نتيجة تراكم الفوائد ، وكان يرجو ويأمل جدولتها فقط .

وخلال زيارة لجمهورية جنوب أفريقيا وجدت الفواكه واللحوم والخضراوات رخيصة جداً ، وبعد السؤال علمنا أن كل ما ينتجه الإنسان الأسود ، يباع بأرخص الأثمان ، بعكس منتجات الإنسان الأبيض ، وقال لنا أحد (البيض) أن العامل الأسود يكدح ويشقى فيكون أجره من ٤ ـ ٦ من عملة البلد ، أما الأبيض فهو مجرد مشرف ويتقاضى ١٠٠ من نفس العملة ، وهؤلاء البيض هم مهاجرون من الغرب كما هو معروف .

إن تطور أوروبا جعلها تتجه نحو الخارج ، ولكن ليس بدافع الحب ، بل بدافع السيطرة ، فانتشر الأوروبي في أكثر القارات ، ومن بقاياهم بجنوب أفريقيا ما يقرب من خمسة ملايين من البيض ، وسط بحر من السود يتجاوز عددهم ٢٠ مليون ، لكنهم لا يملكون شيئاً سوى الكدح والعمل في الأرض ، ولا يحق لهم سكنى المدن ، ومن يشتغل في مكان لا يستطيع أن يجلب عائلته ، وإذا أراد السفر للخارج فلا يسمح

له ، وانتقاله من مكان لآخر يجب أن يكون بإذن خطي وموافقة مسبقة .

يرى الدكتور الشامي بحق أن انتقال الإنسان الغربي من الصليبية إلى الاستعمار ، لم يكن أكثر من رغبة في السيطرة على الشرق الإسلامي ، كما لم تكن منتجات الحضارة الغربية سوى عامل مساعد على تكرار المحاولة . نعم تغير الغرب لكنّ نظرته للإسلام لم تتغير . ويذكرنا هذا بموقف (اللنبي) الذي وقف على قبر صلاح الدين في دمشق وقال : لقد عدنا يا صلاح الدين !

وما فعلته وتفعله دول الغرب من مساندة إسرائيل وزرعها في قلب الوطن العربي وتزويدها بالأسلحة الذرية ، لا يخرج بعيداً عن هذه الدائرة .

إن الغرب ما زال يحث الخطى نحو التوسع والانتشار في الخارج ، بالجيوش والشركات والتنصير ، ويمكن اعتبار « رأس المال » تعبيراً عن هذا النهج ، فهو القوة الجديدة واليد الضاربة للدول الصناعية ، وفي خدمته الدول وجيوشها وخبراتها ، وحتى الكنيسة ومبشريها .

ويقرر الدكتور الشامي أن السيطرة على الشرق الإسلامي ، يشكل ضرورة حيوية للصليبية والرأسمالية ، كما يظهر العداء للإسلام على صورة حرب أيديولوجية ، ذات فوائد كثيرة يمكن اللجوء إليها بعناية ، من أجل الاقتصاد أولاً ، وإدامة الغلبة ثانياً . ولا يعني ذلك أن الإنسان الغربي اليوم هو كما كان في تعصبه الصليبي ، ولكن الأهداف من إخضاع وإستثمار وجلب منافع لم تتغير كثيراً .

ونرى مصداق ذلك في تحالف التجار مع البابا ، ولكل هدفه ، التجار يريدون الكسب ، والبابا يريد التخلص من الإسلام . هذا من أوائل النهضة ، حتى الدول العلمانية الغربية كانت تحارب الكنيسة في الداخل ، وتصادر أملاكها ، وتتعاون معها من الخارج ، حيث وجدت

أن التبشير يربط الناس بالغرب ، ويجعل الولاء لدول الغرب ، لذا كان التعاون بينهما كبيراً في الخارج دون الداخل .

وقد أحسن الرئيس الكيني (جومو كنياته) تصوير هذه المفارقة فقال : جاء المبشر يحمل بيديه الكتاب المقدس ، وكانت الأرض بأيدينا ، وبعد مدة صار الكتاب بأيدينا ، لكن تحولت الأرض إلى أيدي المبشرين .

لقد كان التبشير طليعة الاستعمار ، كما كان الاستعمار يمكّن ويعاون المبشر ويحميه حيث حل أو ارتحل .

إن الغرب قدم نفسه وحضارته كشيء عالمي ، لكنه مرتبط بالقوة والغلبة ، وهذا أثمر المزيد من النهب والسلب ، وعمّرت المدن الصناعية ، وامتلأت البنوك بالأموال ، ولكن كل ذلك جاء من الفقراء وعلى حساب تقدمهم ورقيهم ، وكمحصلة نهائية فإن تقدم الحضارة صار شيئاً واستخدام الرأسمالية لها جاء شيئاً آخر .

ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا تخاف الشعوب الأخرى من الإنسان الغربي وحضارته ، وقد تعاديهما .

إن انتشار الحضارة الغربية يزامنه « قلق وتحدي » في العالم الإسلامي خصوصاً ، وفي العالم بشكل عام .

كما أن الفصل بين الحضارة وأهدافها يحوطه غموض كبير ، فالأوروبي ينظر للاستعمار على أنه تعبير عن حالة حضارية ، هي في طريقها لتحقيق خدمة إنسانية .

والإنسان خارج الغرب يرى نفسه وبلاده هدفاً للاستغلال والنهب ، دون أن يقدم له ما يأخذ بيده للتقدم ، إنه مطلوب أن يكون « سوقاً استهلاكية » أو مجرد منتج لمواد أوليه رخيصة ، وما فوق ذلك أو بعده ، فهو حقل تجارب من كل لون ، ولأكثر من هدف .

والأدلة كثيرة : استعمر الإنسان الغربي أفريقيا وسلب أهلها أفضل

وأجود أراضيهم ، فلما حان الرحيل لم يترك مدرسة ولا مستشفى ، ولا أية وسيلة حضارية خلفه ، اللهم إلا الحانات وما أكثرها في أفريقيا .

استعمر الغرب « جزر القمر » أكثر من قرن ونصف ، ولما رحل المستعمر ، لم يترك خلفه مدرسة واحدة ولا مستشفى ولا آلة لتوليد الكهرباء ، لقد عاش يحلب من هذه البقرة ، ويقدم لها علفاً كي تستمر على الحياة ، وإعطاء الحليب ، ولما رحل لم يترك شيئاً ذا قيمة .

هذا إذا تناسينا ما يحدثه من خراب ، وخفض أناس ورفع آخرين ، تقديم نكرات وتأخير أشراف إلى غير ذلك .

لقد انتدبت « عصبة الأمم » دولاً لترعى أخرى ، ومن بينها إنكلترا على فلسطين ، فسلمتها لليهود قبل أن تخرج ، وانتدبت جنوب أفريقيا على ناميبيا ، فهلكت عصبة الأمم وذهبت ، وقامت هيئة الأمم ، والكل يطالب جنوب أفريقيا بترك هذه المستعمرة فلا تفعل . أفهذا انتداب أم انتكاب ؟

إن الغموض في حضارة الغرب ، أو لنقل مخالفة السلوك لما يعلن ، جعل الفرد المسلم يقع في ارتباك شديد وازدواجية ، لقد قابل حضارة الغرب « باندهاش » ثم تحول إلى « استلاب » ابتدأ بالخوف لينتقل إلى التعصب .

وما زال بعض المسلمين بين « مندهش » حتى العظم ، ومن رافض لكل معطيات هذه الحضارة ، ما يزال هناك من يقول : (لن تكون مصر مصرية حتى تتأورب وتتغرب) كما يقول قاسم أمين : ومن يريد أن ينقل كل ما في الغرب حتى الجراثيم التي في البطون كما يريد ضياء الدين ألب .

البعض يراها جنة عدن ، والآخر يراها جهنم الحمراء .

حضارة الغرب جاءت بالرأسمالية التي تعتبرها من أكبر إنجازاتها ، أما انتشارها في الخارج ، فلم يصنع شيئاً لا في أسيا ولا

أفريقيا ولا أمريكا الجنوبية ، كل الذي صنع « تبعية » اقتصادية يتزامن فيها ويتوافق ، غنى الغرب المتزايد وفقر الآخرين المتعاظم .

الغرب يصنع ويبيع ، والآخرون يشترون ويستهلكون ، ومع الأيام يفتقرون ، الغرب يشتري من الآخرين المواد الخام بأرخص الأثمان ، ثم يعيدها مصنعة بأغلى الأثمان ، الغرب يستثمر أموال الآخرين فيدفع عنها أقل الفوائد والعوائد ، ثم يقرضها بدوره لآخرين بفوائد مضاعفة وشروط باهظة ، والأموال ليست أمواله ، والمستفيد الأكبر هو الغرب الغني ، على حساب الفقراء والمعدمين في العالم .

بعض دول الغرب تمنح معونات سخية وكبيرة إلى مزارعيها ، والهدف ليس الإنتاج ، بل تقليله حتى تحافظ على الأسعار العالية لمنتجاتها ؟ ومن المتضرر ؟ الشعوب والأمم الفقيرة .

حتى العلوم والمعارف يحتفظ الغرب منها بالكثير ، ولا يطلق إلا القليل .

الغرب ينفق ملايين الملايين على الصناعات الحربية والتجسس وغزو الفضاء ، وألوف البشر تموت جوعاً .

ورد في مجلة الأمة القطرية تحت عنوان « العنف الاقتصادي » : (العنف الاقتصادي هو الشكل « الصامت المرعب » للعنف الذي يجتاح العالم . . . إن ٨٠٠ مليون من سكان العالم يعانون من آثار العنف الاقتصادي ، وإن ٥٠ ألفاً يموتون جوعاً يومياً ـ هذا عام ١٤٠٦ هـ ـ والفروق بين الأغنياء والفقراء تزداد اتساعاً ، فالأمم الصناعية التي لا تشكل أكثر من ربع سكان الأرض ، تحتكر أربعة أخماس الثروة ، وتتحكم بـ ٩٠٪ من السلع الصناعية ، و٩٦٪ مما ينفق على الأبحاث العلمية والتنموية ، وتحتكر الشركات « متعددة الجنسية » في تلك الدول جميع البراءات العلمية . وتقدر أرباح (٢٠) شركة منها ما يعادل (مثلاً ونصف) من الإنتاج المحلي الكلي لأقطار العالم الثالث . . .

أما ديون العالم الثالث الخارجية فتقارب ٩٠٠ مليار دولار وهي تزيد على (ثلث) الإنتاج المحلي الكلي لأقطارها . لقد بلغ الإنفاق على التسلح عام ١٩٨٠ م حوالي ٤٥٠ مليار دولار ، ثم تضاعف عام ١٩٨٥ م .

علماً بأن ٩٠٪ من الزيادة السكانية المتوقعة في نهاية القرن ستكون في العالم الثالث)[١] . ا.هـ .

وقد درس البنك الدولي أوضاع العالم ونشر تقريراً تحت عنوان[٢] (الفقر والجوع مشكلات واختيارات) جاء فيه إن العالم لا يشكو من نقص الأغذية ، بل من الفقر ، أو النقص في القدرة الشرائية ، وفي العالم ٣٤٠ مليوناً من الدول النامية ليس لديهم ما يكفي أو يدفع المرض ، وإن ٧٣٠ مليوناً يشكون من سوء التغذية . وتقدر « دراسة » أن ما ينفق على طعام القطط في أمريكا بـ ١٠٦ مليارات من الدولارات سنوياً .

وتقول منظمة الزراعة الدولية[٣] (الفاو) إن ما ينفق على السلاح في نصف يوم لو خصص لمنظمة الصحة الدولية لتم القضاء على الملاريا كما أن ثمن دبابة يكفي لفتح فصول دراسية تكفي لتعليم ٣٠ ألف طفل . أما ثمن طائرة مقاتلة فيكفي لبناء صيدليات تخدم ألف قرية . أما ثمن صاروخ عابر للقارات فيكفي لغرس ٢٠ مليون شجرة أو ري « مليون » هكتار من الأراضي الزراعية أو إطعام ٥٠ مليون طفل .

إن المعلومات المنشورة قريباً تفيد بأن الولايات المتحدة أرغمت الاتحاد السوفياتي على الدخول في سباق التسلح ، حتى يضطر للابتعاد عن التنمية ، وإهمال حاجات شعبه حتى يفشل النظام وينهار ، وقد

---

(١) الأمة القطرية العدد ٧١ عام ١٤٠٦ هـ ص ٩٢ .

(٢) الشرق الأوسط في ١٤٠٦/٦/٢٩ .

(٣) مجلة الدعوة العدد ٨٨٣ في ١٤٠٣/٥/١٥ .

حصل ذلك بالفعل ، واليوم تحاول روسيا بيع هذا السلاح للحصول على المال وشراء الغذاء والحاجات الضرورية لمواطنيها .

ويتبنى غاندي[1] نظرية معاكسة في الحضارة حيث يراها لا تقوم على مضاعفة الحاجيات وإكثارها ـ كما يرى الغرب ـ بل من مهمات الحضارة تقليص تلك الحاجات بوعي وإرادة ، وهو يقرر بوضوح أن صنع عدد غير محدود من الحاجيات ، ثم القيام بالعمل على تلبيتها ليس سوى هراء ، ثم يقول ينبغي أن لا يوضع حد فاصل بين الاقتصاد والأخلاق .

فلا يُصنع إلا ما يحتاجه الإنسان ، وهذا عكس ما تفعله حضارة الغرب والإعلان والسوبرماركات ، فكلها تروج لما يحتاج وما لا يحتاج .

تروي كتب التراث أن الخليفة الراشد عمر رضي الله عنه رأى الصحابي الجليل « جابر بن عبد الله » يحمل لحماً فقال ما هذا يا جابر ؟ قال لحم طلبه الأهل . قال الخليفة : أكلما اشتهيتم اشتريتم ؟

أما اليوم فقد صار الأمر : أكلما رأيتم اشتريتم ؟!، وهذا ما تريده الشركات المنتجة ، فهي ترمي بما نحتاج وما لا نحتاج ، وبالمفيد وغيره ، المهم أن تصنع وتبيع وتربح ، وتجارة الأسلحة والمخدرات خير دليل .

وربما كان من المفيد أن أثبت هنا رأياً لصلاح الدين الجورشي يتحدث فيه عن الغرب وأهدافه في العالم[2] (إن الغرب هو هذا النظام الدولي القائم ، والذي قسم العالم قسراً إلى « مراكز وأطراف » ويستهدف مركزة « الثروة والقرار والمعلومات » ـ بيده طبعاً ـ وذلك من

---

(١) حوار الحضارات جارودي ص ١٢٣ .

(٢) هو صاحب مجلة (١٥ ـ ٢١) نقلاً عن الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية ص ١٢٤ .

خلال توحيد الأسواق ، وإلغاء الحدود والحواجز الاقتصادية ، في وجه الشركات متعددة الجنسيات ، والحفاظ على التوازنات العسكرية القائمة ، مع تنميط المجتمعات ، ونسخ القيم والثقافات التي لا تخضع للموازين الغربية .

لقد نجح الغرب أيما نجاح في اختراق مجتمعات « الأطراف » ، خلخل بنيتها وأسسها التقليدية ، لكنّه لم يستطع القضاء على قيمها التاريخية ، بل على العكس ، لوحظ وجود مقاومة شديدة ، لأنماط الهيمنة الغربية ، في مرحلتي الاستعمار المباشر وغير المباشر ، وقد تبين أن الثقافات والفضاءات الدينية القديمة والأصلية ، هي التي اعتمدت كأرضية شعبية لهذه المقاومة) ا. هـ .

إن تقسيم العالم إلى مركز أي : الدول الصناعية.وأطراف هي باقي العالم ، تقسيم جيد وموفق ، وجمع الثروة والمعلومات والقرارات كلها بيد أصحاب المركز ملاحظة ذكية ، وخلخلة الأطراف وإفقادها الثقة بالنفس كلها أهداف يتبناها الغرب عملياً ، وإن خجل أحياناً أن يذكرها باللسان .

إن الدول الغنية تسوق العالم بهذا الاتجاه مدفوعة بمصالحها الخاصة ، غير مبالية بما يصيب « الأطراف » من ضرر ، المهم أن تبقى أسواق الأطراف تستقبل البضائع والمنتجات ، وتدفع فيها من الأثمان ما تستحق وما لا تستحق ، من هنا نلاحظ أن المفاوضات بين الشمال الغني ، والجنوب الفقير تنتهي دوماً دون أن تصل إلى نتيجة ، فكل ما يريده الأغنياء أن لا تقفل الأسواق ، وأن تبقى للفقراء قدرة على الشراء ، وليس مهماً أن يكون المشترى نافعاً أو ضاراً (ادفع ادفع ، واجمع اجمع ، ذلك هو الشريعة والقانون) .

وفي ختام هذه القراءة ـ التي أحسبها طالت واستطالت ـ أجد من النافع أن أنقل شهادة « لهشام جعيط » ـ وهو كاتب مغربي يساري ـ فهو

يقول :(الإسلام لا يريد أن يستسلم ثقافياً أو حضارياً وهو يرى نفسه محور نفسه ، إنه يملك قوة ذاتية خارقة ، فهو يتحدى كل الثقافات الإنسانية والسياسية التي أفرزتها « الحداثة » ، قد يكون هذا نقطة ضعف ، لأنه يؤهله للجمود والنفي ، إن الإسلام قوة نفي في الحقيقة ، لكنْ لو تصفحنا ما في « الحداثة » من شرور مثل الفردية والعزلة والاستغلال والمادية الاقتصادية والبؤس النفسي ، صار من الممكن التفكير بأن الإسلام كقوة روحية قادر على أن يبث رسالة تجديدية لإنسان القرن الواحد والعشرين)[1] .

لقد وجدت الدكتور هشام شرابي ـ وهو فلسطيني من عكا ، أمريكي الجنسية علماني كما يحب أن يصف نفسه ـ وجدته يعترف بأن علومنا كلها غربية حتى معرفتنا لأنفسنا وتاريخنا ، كذلك وجدته يتفهم بشكل جيد رفض الإسلاميين للتبعية وتمسكهم بالهوية فهو يقول : (إن أنظمه المعرفة وأساليب البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، هي أنظمة غربية في أساليبها وأشكالها كافة ، حتى معرفتنا لذاتنا وتاريخنا ومجتمعنا في القرن العشرين هي معرفة غربية في صميمها . فالعلوم الإنسانية والاجتماعية في العالم الثالث كلها مستمدة من الغرب ، وهي تنتج وتعيد إنتاج المعرفة الغربية محلياً ، ومن هنا يمكننا تفهم أسباب الرفض المطلق للغرب عند الأصوليين ، وإصرارهم على العودة إلى الدين والتراث ، واستعادة الهوية الأصلية من خلال معرفة تراثية مستقلة عن كل الأطر والمفاهيم الأجنبية . . . .)[2] .

بعض أبنائنا يريد أن يجردنا من هذه « القوة » ويدفع بنا نحو التغريب . لقد حفيت منا الأقدام ونحن نركض خلف الغرب ، وفي كل مرة نعتقد أننا أوشكنا على الوصول ، يتبين أن ما نراه مجرد « سراب » .

---

(١) صراع بين عالمين / مجلة منبر الحوار العدد ٢٥ لعام ١٩٩٢ ص ٣٤ .

(٢) النقد الحضاري ص٣٦ مركز دراسات الوحدة العربية .

منذ أواخر العهد العثماني ونحن نسير في هذا النفق ، وحتى اليوم لم نعلم ما قطعنا منه ، ولا ما بقي لنا أو علينا أن نقطعه .

لقد صرنا كمن يداوي القروح بالجروح ، وكمن يشرب من ماء البحر ، فبدلاً من الارتواء والشبع يزداد عطشه ، ومن لا يصدق ذلك فليسأل الأتراك أين صاروا وماذا اكتسبوا ، ومتى سيدخلون السوق الأوروبية ؟ أو فليسأل الشعب الفلسطيني عمن شرده واحتل أرضه ، وهو يقتله ويطارده صباح مساء ؟!

أو ليسأل أهل البوسنة لماذا يقتلون وتحرق دورهم وتغتصب بناتهم ونساؤهم ؟!

* * *

الفصل الثاني

نحن والغرب وحضارته

القسم الأول : علاقتنا بحضارة الغرب

القسم الثاني : علاقتنا بالغرب

القسم الأول

علاقتنا بحضارة الغرب

ما علاقتنا بحضارة الغرب ؟

هذه القضية ظلت مطروحة منذ أواخر العهد العثماني وإلى اليوم بعض أبنائنا ومواطنينا يريد حضارة الغرب حلوها ومرها وزقومها ، على حين يرفضها آخرون جملة وتفصيلاً ، ويريدون الابتعاد عن الغرب دولاً وحضارة .

وقد ظل « خط السير » متعرجاً ولم يكن في يوم مستقيماً أو واضحاً وسوف أبدأ بتعريف الحضارة أولاً ، ثم البحث في طبيعتها وهل يجب أخذها كلها أو تركها كما ينادي البعض ، أم يمكن « الانتخاب » ؟

تعريف الحضارة :

١ ـ يعرّفها . . « تايلر »[١] بأنها : ذلك الكيان المعقد ، الذي يضم المعرفة والمعتقدات والفنون والآداب والقوانين والعادات ، وجميع القدرات والتقاليد الأخرى ، التي يكسبها الإنسان ، بصفته عضواً في المجتمع ا هـ .

٢ ـ يعرّفها د . زريق[٢] بأنها : حياة المجتمع المتمثلة في نظمه ومؤسساته ومكاسبه وإنجازاته ، ومن القيم والمعاني التي تنطوي هذه الحياة عليها .

---

(١) في معركة الحضارة / د . زريق ص ٣٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٣١ .

٣ ـ يعرفها جورج باستيد[١] الفرنسي بأنها : التدخل الإنساني الإيجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة تجاوباً مع إرادة التحرر في الإنسان ، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته ورغباته ، ولإنقاص العناء البشري ا.هـ .

٤ ـ يعرّفها مالك بن بني[٢] بأنها : جوهر الوجود للمجتمع ، ونقيضها الهمجية . ا.هـ .

٥ ـ ويعرّفها د . فتحي عثمان[٣] ـ بحسب ما تشتمل عليه ـ . . . تشمل الحضارة النشاط الإنساني في شتى مجالات الآداب والعلوم والفنون ، كما تشمل صور الإنتاج المادي والأدبي : من عمائر وطرق وجسور وقناطر وغيرها .

ومن مجالات الحضارة : العقائد والعوائد والأدب الشعبي ، وأدب الخاصة والنظم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية ، كما لا يخرج عنها تخطيط المدن والعمارة ، ووسائل النقل ، وأساليب المأكل والمشرب والزينة والترف . ا.هـ .

ويمكن القول بأن الحضارة خليط من أفكار وتصورات ومعتقدات وآداب وتشريعات ومنجزات مادية وسلوكية ، يجمعها زمان ومكان فتكون ما اصطلح عليه « حضارة » على أن هناك من يريد ردها إلى « جذر » لغوي بحيث تكون من الحضور وهو نقيض الغيبة[٤] ، وتتكرر هذه الأيام : فلان له حضور ، وفلان له حضور متميز ، ويعنون الشهود والوجود .

وعلى كل فهذا « الخليط » أهو كائن عضوي بحيث يلزم من يستعيره أخذه كاملاً ، أم يقبل « التبعيض » بحيث يمكن أخذ بعضه وترك البعض الآخر ؟

---

(١) المدينة ترجمة عادل العواص ص ١٢ .

(٢) شروط النهضة ص ٦٦ .

(٣) الإسلام والحضارة (الندوة العالمية للشباب) ١/ ٧٨ .

(٤) نظريات التنمية السياسية / د . نصر محمد عارف ص ٧٥ .

١ ـ أطراف القضية :

هنا نجد الشد والجذب منذ ما يزيد على القرن فلم تستطع اتخاذ موقف واحد . فهناك من ينظر للغرب كغازي جاء للسلب والنهب واستعباد الأمم والشعوب ، وحضارته مثله ، حضارة فساد وإفساد وإستغلال .

في الطرف الآخر هناك « عشاق » لا يرون في معشوقهم سيئة ، بل تحولت كلها إلى حسنات ، كما ينظر العاشق فلا يرى في الوجود أحداً أجمل من حبيبته ، حتى الأشياء القبيحة صارت جميلة ، وعلى رأس هؤلاء « المتغربة » من أبنائنا ، وأبناء الأقليات الدينية والعرقية ، فهؤلاء يستظهرون بالغرب وله عليهم فضل ، فقد رعاهم وقدمهم على جميع من سواهم ، فهم حلفاء الغرب ، وسماسرة حضارته ، ومجدهم مقتبس من مجد الغرب ومن تقدمه وسيادته .

وحين جاء الغرب غازياً يستعمر القارات ويفرض على أبنائها الاستعمار والاستعباد ، لا يتصور عاقل أن يرحب بالغرب أحد إلا إذا كان في قلبه مرض ولذا فقد كان رد الفعل الأول رفض الغرب كمشروع لا فرق بين إنسان الغرب المستعمر أو حضارته .

وحدثت مجابهات وقامت ثورات ، استوى في ذلك المتحضرون والهمج .

ولكن نظراً لتفوق الغرب مادياً وعسكرياً وحضارياً ، فقد كان النصر حليفه في كافة الميادين ، ومر على العالم عقود وعقود ، وأوروبا تستعمر كافة القارات ، وتنهب وتسلب خيراتها ، لمصلحة الإنسان الغربي وحضارته وتقدمه .

إذن في البداية كان « الرفض والاستغناء » ، ولكن من يتطلع لذلك فينبغي أن يكون بقوة الغرب عسكرياً واقتصادياً وحضارياً ، وإلا فالنتيجة محسومة لصالح الغرب سلفاً ، ومن حق الأمم والشعوب الأخرى أن

ترفض وترفض الأمة ذلك من حقها ، ومن طبيعة الإنسان الذي يراد فرض شيء عليه بالقوة .

ويبدو أن تقدم الغرب وسيطرته أفرز ـ فيما أفرز ـ الإجهاض لأمم ، كانت سائرة في طريق التحضر والنهضة مثل الصين ، ولكن سيطرة الغرب حالت دون ذلك أو لنقل عرقلت ذلك .

واليوم يقل الرافضون للغرب وحضارته ، خصوصاً بعد انهيار الامبراطورية الروسية وسقوط قيمها وأفكارها حول التنمية والتقدم وسقوط الاستغلال .

لقد انفردت قوة واحدة وحضارة واحدة ، فالويل ثم الويل للعالم من هذا الانفراد والاستفراد . فكل من يرفع رأسه سيجد « عصا غليظة » تهوي على رأسه حتى تقتله أو تفقده وعيه وتوازنه . فعسى الله أن ييسر قوة أخرى « معادلة » تستطيع أن تقول : لا دون أن يهوي على رأسها أحد .

إن هذا« الاستفراد»وهذا الاستهتار سيعجل بإذن الله بقيام كتلة تعيد التوازن للعالم ، وتحجم الغرب وحضارته . فلو جرى نوع « تحالف » بين المسلمين والصين واليابان لقدموا للبشرية كتلة كبيرة العدد ، تقودها اليابان بطاقاتها المبدعة والصين بملايينها الكثيرة ، والمسلمون بمواردهم الكثيرة ، ولكن هل يسمح الغرب بمثل هذا ؟

وإذا كان ما يزال هناك من يرفض الغرب وحضارته ـ بشكل أو بآخر ـ فهناك عشاق متيمون حتى برذائل الغرب ونواقصه وعيوبه ، وهؤلاء يدعوننا ليل نهار للقبول بالغرب وحضارته كقدر لا مفر منه .

٢ ـ القبول المطلق :

فهناك من يعتقد أن الحضارة لا تتجزأ ، فعلى المقتبس أن يأخذ الكل أو يترك الكل ، وعلى رأس هؤلاء المؤرخ البريطاني « توينبي » فهو لا يمل من ذكر القضية في كتبه .

ويمكن أن نضيف له د ٠ طه حسين والشاعر التركي ضياء الدين ألب كما يمكن أن نضيف الدكتور زكي نجيب ، وحتى لا أتهم بشيء فإني أنقل نصاً له دون زيادة أو نقصان ، فالرجل يقول بملء الفم : (لقد لبثت أعواماً لا أرى للحياة القومية المزدهرة إلا صورة واحدة ، هي صورة الحياة كما يحياها من أبدعوا « حضارة هذا العصر » ولقد شاءت تطورات التاريخ أن يكون هؤلاء المبدعون ، هم أبناء أوروبا وأمريكا ، فهناك ولد العصر بعلومه وفنونه ونظمه ، ولهذا فقد أصبحت سائر شعوب الأرض إنما تقاس بمقدار قربها أو بعدها من الطراز الغربي القائم ، هكذا كان الرأي عندي ـ حتى أواسط الستينات ـ حتى لقد بلغت فيه حدود التطرف ، الذي لم يعرف لنفسه حيطة أو حذراً ، وكان الأمر في ذلك يبدو أمام ذهني وكأنه من البدهيات التي لا حاجة بها إلى مزيد من تأمل وبحث . . .)[1] أما « سلامة موسى » فلا يعتقد بوجود حضارة سوى حضارة الغرب ، ولا مبادىء إلا ما جاءت من الغرب : (إن علة الأقطار العربية ، ورأس بلواها أننا ما زلنا نعتقد أن هناك مدنية غير المدنية الأوروبية ، فلا نتقبل مبادىء البرلمانية والديمقراطية والاشتراكية ، وهذه مبادىء لم تعرفها آسيا أم الاستبداد الأتوقراطي ، في الحكومة والدين والأدب والعلم ، مع أنها لب النجاح القومي . . . . ليس هناك حد يجب أن نقف عنده في اقتباسنا من الحضارة الأوروبية . . .)[2] .

وبمثل هذا الحماس ينادي لويس عوض وكثير من أبناء الأقليات الدينية والعنصرية ، فحيثما حل الغرب وحضارته ، فالمجد والرأسة من نصيب هؤلاء . فلا نعجب لحماسهم ، فهو حماس المستفيد المنتفع .

---

(١) في معركة الحضارة ص ٤٠ .

(٢) الخطاب العربي / فادي إسماعيل ص ٦٤ .

وقد حاول « صفوت حاتم »[1] إجراء نوع من الحصر لمن يؤمن بهذه الأفكار ، من مطلع القرن العشرين ، فوجدهم ثلاث جماعات :

أ ـ مدرسة العلمانية الإسلامية ، وشعارها التحديث والعلمنة ، وأبرز رجالها د . طه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، ولطفي السيد وآخرون .

ب ـ مدرسة التغريب ، الرافضة لروح التوفيق الإسلامي ، وروادها كلهم من النصارى منهم : سلامة موسى وشبلي شميل وفرح أنطوان ولويس عوض وآخرون .

ج ـ المدرسة القومية ومن رموزها ساطع الحصري ود . قسطنطين زريق وتلاميذه من الجامعة الأمريكية ببيروت .

والسؤال الملح : هل الحضارة ـ أي حضارة ـ كائن عضوي متماسك ، لا يمكن أخذ بعض مكوناته دون بعض ، أم هي كم متراكم من ماديات وغير ماديات جمعها المكان والزمان ، بحيث يمكن أخذ بعضها وترك البعض الآخر ؟ هذا جوهر القضية في نظري . وعلى من يقول بأخذ الكل أن يقنعنا بالحجة والدليل ، إذ الشواهد التاريخية تقول بأنه ما من حضارة لم تأخذ من غيرها ولدينا شاهدان :

١ ـ أن حضارة الغرب أخذت عن اليونان والرومان والحضارات الأخرى ، ومنها الإسلامية ، ما أعجبها أو أعجب إنسانها وتركت ما سوى ذلك . ورفضت هذه الحضارات في جوانب ورضيت بأخرى .

لقد نقل الغرب علومنا وترك ما يخص العقيدة والإسلام والتشريع .

٢ ـ بالنسبة لنا قمنا ابتداء من العهد الأموي بالترجمة عن اليونانية ، فترجمنا العلوم والفلسفة والمنطق ، لكنا تركنا الآداب والتشريع ، أما الآداب فكانت وثنية تؤمن بتعدد الآلهة وتصارعها ، وأما التشريع فقد

(١) الليبرالية العربية ص ٣٦ مجلة الوحدة العدد (٣) لعام ١٩٨٤ .

أغنانا الإسلام عن ذلك .

ترجمنا عن الهندية بعض العلوم والآداب ، وعن الفارسية كذلك فالقول بوجوب أخذ الحضارة كلاً أو تركها كلاً غير سديد ولا سليم وعلى سبيل المثال ألا يحق لنا أن نأخذ العلوم ونترك أو نتجنب فلسفتها كما يرى « هيوم ومل » ؟

أليس من حقنا أن نبتعد عن « القيم » التي تعارض قيمنا ؟

إن الماركسية ـ الطيبة الذكر ـ رفضت علم الاجتماع الغربي ، ووصفته بأنه علم استعماري استغلالي، وأقامت بدله ومكانه « المادية التاريخية » والماركسية هي بنت المادية الغربية البكر .

وأخيراً أليس من حقنا أن نتبنى القبول المقيد كما فعل البعض ؟

٣ ـ القبول المقيد :

وهو ما يناسبنا فنأخذ عن الغرب ما يناسبنا ، ونترك ما لا يناسبنا ، فالحكمة ضالة المؤمن ، كما جاء في السنة النبوية . وهذه اليابان تفعل ذلك ، فقد نقلت النظام السياسي ، حتى أدركتها « بلية » الإستعمار كما أدركت الغرب ، ودخلت الحرب العالمية الثانية كقوة كبرى امتدت جيوشها حتى وصلت إلى أندنوسيا ، ثم هزمت وضربت بالقنابل النووية .

كما أخذت النظام الاقتصادي ، لكنها ما زالت ترفض النظام الاجتماعي ، حتى نظم العمل لم تنقلها .

المرأة اليابانية ما تزال تعتبر وجودها في البيت عبادة ، ومتى تزوجت تركت العمل واستقرت في البيت ، وما زالت العائلة مجتمعة ، ولم تنقل النظام الاجتماعي الغربي ولا رسومه ، وما زال الياباني يعتز بنفسه وشرقيته ، ولا يريد أن يذوب في الغرب ، كما يريد « المتغربة » لنا ذلك .

يرى المفكر المسلم « جارودي » أن اليابان عمدت إلى التقنيات الغربية الحديثة فأخذتها دون القيم ، وبذا احتفظت منذ إصلاح « ماجي » عام ١٨٦٨ م بالعلاقات الاجتماعية وعلاقات الإنتاج كما ترى ، لكنها نقلت النظام الاقتصادي القائم على الرأسمالية ، ولذا جاء نظامها رأسمالياً جشعاً ، كما أخذوا الاستعمار حتى لحقت بهم هزيمة ١٩٤٥ ، ويبدو أنهم تابوا إلى الله من ذلك ، واستبدلوا القوة السياسية بالقوة الاقتصادية ، وهم اليوم يتطلعون إلى علم « اجتماع » عالمي ، لا علم اجتماع محلي قطري .

ويتساءل المستشرق « جاك بيرك » هل النموذج الغربي ضروري وحتمي بالنسبة لكافة الشعوب ؟ ويرد : ليس بضروري ولا حتمي ، بل يؤدي في أحيان كثيرة إلى أنواع من الفشل والقلق والتمرد .

ومنذ مدة قريبة تناقلت وكالات الأنباء أن رئيس وزراء اليابان وجه رسالة لشعبه يطالبه بتقليص ساعات العمل ، والزيادة في الإنفاق ، وجاء الرد على لسان الصحف بأن ذلك يخالف عقيدتنا التي تطالب دوماً بالعمل الكثير والإنفاق القليل . . المتابع للرفض المطلق والقبول المطلق لحضارة الغرب ، يجد الجماعة الأولى تركز على سلبيات الحضارة الغربية وقيمها التي لا تناسبنا ، والجماعة الثانية تركز على منتجات الحضارة وإيجابياتها ، ولا يختلف أحد في أن لكل حضارة إيجابياتها وسلبياتها ، ولا ينبغي أن يحجب قسم القسم الآخر .

أما القضية الثانية : فالحضارة أفكار وقيم ومنتجات ، فالذي يتصور أن أخذ منتجات حضارة ما يعني تحضر ذلك الإنسان لا يعرف شيئاً . يقول مالك بن بني : (لكل حضارة منتجاتها التي تتولد عنها ، ولكن لا يمكن صنع حضارة بمجرد تبني منتجات حضارة ما ، فشراء ما تنتجه الحضارة الغربية ، من قبل كافة دول العالم ، لم يجعلها تكسب حضارة أو قيماً ، فالحضارة ليست تكديس منتجات ، بل هي فكر ومُثل

وقيم لا بد من كسبها أو إنتاجها)[1] . ا.هـ .

وهذه قضية غائبة عن « المتغربة » فمن يشتري منتجات حضارة أخرى ، يتحضر شكلاً لا حقيقة ، وهو لا يزيد عن كونه « مستهلك حضارة » لا منتج حضارة .

بعد هذا سوف أستعرض بعض « الشهادات » لمفكرين تشغلهم أمور الحضارة وهمومها ، ويتطلعون لدور حضاري معين .

١ ـ سيد قطب :

يتحدث سيد قطب يرحمه الله ، عن الحضارة الغربية وما أنتجته ، وموقف المسلمين منها فيقول (لقد غابت أمتنا المسلمة عن الوجود والشهود دهراً طويلاً ، وقد تولت قيادة البشرية أمم أخرى ، وتصورات أخرى ، وأوضاع أخرى ، وقد أبدعت العبقرية الأوروبية ـ في هذه الفترة ـ رصيداً ضخماً من العلم والثقافة والأنظمة ، والإنتاج المادي ، وهو رصيد ضخم تقف البشرية على قمته ، غير مستعدة للتفريط فيه ، ولا فيمن يمثله ، وخاصة أن العالم الإسلامي ، يكاد يكون عاطلاً من كل هذه الزينة ، إن هذه الأمة لا تملك أن تقدم للبشرية تفوقاً خارقاً في الإبداع المادي ، تحنى له الرقاب ، ويفرض قيادتها العالمية من هذه الزاوية ، فالعبقرية الأوروبية قد سبقتها ، في هذا المضمار سبقاً واسعاً ، وليس من المنتظر ـ خلال قرون على الأقل ـ التفوق المادي عليها ، فلا بد من مؤهل آخر ، المؤهل الذي تفتقده هذه الحضارة .

وهذا لا يعني أن نهمل الإبداع المادي ، فمن واجبنا أن نحاول فيه جهدنا ، ولكن ليس بوصفه المؤهل الذي نتقدم به قيادة البشرية في المرحلة الراهنة ، وإنما بوصفه ضرورة ذاتية لوجودنا ، وكذلك بوصفه واجباً يفرضه علينا التصور الإسلامي ، الذي ينوط بالإنسان خلافة الأرض ، ويجعلها تحت شروط معينة عبادة لله تعالى ، وتحقيقاً لغاية

---

(١) شروط النهضة ص ٤٢ .

الوجود الإنساني ، لا بد إذن من مؤهل آخر لقيادة البشرية ، غير الإبداع المادي ، ولن يكن سوى « العقيدة » والمنهج ، الذي يسمح للبشرية أن تحتفظ بنتاج عبقريتها المادية ، تحت إشراف العقيدة والمنهج ، من تجمع إنساني ، أي : في مجتمع مسلم)[1] ا.هـ .

أعتقد أنها شهادة متوازنة منصفة لا عيب فيها .

٢ ـ د . رشدي فكار :

وهو من فرسان هذا الميدان ، وراصد من رواصد حضارة الغرب ، ومقدم جيد لها ، لا تخفى عليه سلبياتها ، ولن يطمس إيجابياتها . يقول رشدي فكار ـ كما قال سيد قطب ـ لن نستطيع أن نقدم للعالم طائرات أسرع ، ولا طرقاً أنعم ولا سيارات أجود ، ولا صناعات أفضل ، ولكن بإمكان الإسلام أن يقول (سأعطيكم إنساناً أكثر توازناً وإعتدالاً ، أكثر براً وإحساناً ، إنساناً يرتبط بمبادئه ، يهاب ويخشى خالقه .

الإنسان الذي يحترم الإنسان ، ويعمل لإسعاده ، لا الارتقاء بناطحات السحاب ، واستنزاف كل الخيرات ، في إطار التحايل والمكر والدهاء والكيد . بمعنى آخر : صياغة وبناء الإنسان ، يبني كل ما دمر)[2] ا.هـ .

إن صناعة أو صياغة الإنسان ما تزال هي الأصعب ، فالإنسان صنع العقول الإلكترونية ، وقد راحت تصمم ما يريد وما لا يريد ، صنع الإنسان المركبات الفضائية ، والطائرات السريعة ، والصواريخ عابرة القارات ، ولكن تربية الإنسان المتوازنة ما تزال في أول الطريق .

إن صياغة الإنسان « المتوازن » الذي لا تطغى أشواقه الروحية ونزعته العقلية وعواطفه المشبوبة ، وتوجهاته المادية الدنيوية على

---

(١) معالم الطريق ص ٨ .

(٢) رشدي فكار في حوار متواصل ص ٥٤ .

بعضها ، بل تتوازن وتتصالح ، هذا الإنسان هو المطلوب اليوم ، والحاجة له تفوق كل حاجة ، قبل أن يفلت الزمام ، وتتحول الكرة الأرضية إلى شيء « يشوى » في فرن ذري كبير .

٣ ـ الأستاذ « روجيه » :

وهو فرنسي الجنسية ، اشتغل أستاذاً في جامعة عين شمس بالقاهرة ، كما هو أستاذ في جامعة السربون ، وممن يعنى بالتراث الإسلامي ، وهو يدعو لإعادة قراءته والإفادة منه . ثم يتحدث عن المدارس الفكرية التي تملأ ساحات الغرب ، فيذكر منها « البنيوية » وقبلها كانت « الوجودية » ومن قبلهما سيطر فكر فرويد وماركس ، ثم يقول بأن هذه المدارس كلها لها وجود بارز في الفكر العربي المعاصر .

ثم يسجل ملاحظة ذكية إذ يقول : إن هذه بضاعة غربية الأصل والمنشأ ، والغربي لا يبحث عنها خارج القارة الأوروبية فإذا جاءته فتلك « بضاعتنا ردت إلينا » ولا جديد ويرى أن المفكرين العرب يهاجمون « الاستلاب » دون أن يدركوا أنهم واقعون فيه . ففكرهم مزيف ، إذ هو غربي المناخ ، منفصل ومنقطع عن أرضيته ، فلا هو قادر أن يضيف للفكر الغربي شيئاً ، ولا هو يمثل أصحابه ومنتجيه . ثم يطرح سؤالاً : هل العرب ـ قديماً ـ لم يتأثروا بغيرهم ؟ ويجيب : نعم لقد تأثروا إلا أنهم لم « يصطبغوا » لقد عرفوا علوم اليونان والفرس والهند ، إلا أنهم هضموا ذلك التراث أولاً ، ثم صهروه ، وبعد ذلك أنتجوا تراثاً جديداً متميزاً ، فالفكر العربي لم يكن مجرد نقل ، بل صاحب طابع خاص . ويطرح أخيراً مقولة مفادها : إن الفكر العربي إذا كان أصيلاً ، ووصل إلى الغرب ، فسوف يؤثر فيه ، فإن كان تابعاً ومقلداً فبمن يؤثر ؟

في كثير من بلادنا ضربتنا أمراض الحضارة ، قبل أن تصلنا الحضارة ، تزببنا قبل أن نتحصرم ، كما يقول المثل ، لم نكتف بما عندنا من إشكالات ، هي أكثر من الهم على القلب ، فرحنا نبحث قضايا

لمجرد أنها مطروحة على ساحة « السادة » .

وقد وجدت د . رشدي فكار يجأر بالشكوى من هذه الظاهرة إنه من المكتوين بنارها فهو يقول : (. . لقد غصت ساحتنا المعاصرة ، ببقايا موائد تجارب الغرب بشقيه « اللبرالي والماركسي » لإنقاذنا بالفتات ، وافتعال الإشكاليات ، تاركة جوهر ما حققه الغرب من تقدم علمي مكثف ، استأنسه تطبيقياً في تكنولوجيا التصنيع والعمران ، ومنهجياً في تنوع المعرفة وتخصصها وتخصيصها .

لقد اقتتنا هذا « الفتات » لنضيف إلى همومنا المزمنة هموم « الدخيل » ثم هموم حلول ما افتعلناه ، فأصبح لدينا إشكاليات أساسية نابعة من واقعنا « بفقره وجهله ومرضه » وإشكاليات دخيلة مفتعلة ، نتلهى بها ، وتمتص جانباً كبيراً من قدراتنا ، جسدياً وفكرياً .

لقد تعلقنا بالهوامش والفروع ، وتركنا الجذور والأصول . غرقنا في مشاكل « حلول المشاكل » ، فتعددت لدينا الحلول ، وليصبح الحل هو « غيبة الحل » ، وتوالت الهزائم على الإنسان العربي ، منطلقة من داخل ذاته ، قبل أن تتسع وتتشعب وتتداخل في هزائم الآخرين له ولأمته ، وهكذا دخلنا في عصر « العتمة » .

فكيف وقع هذا ؟ إن كل شيء معطاء في أمتنا : من مبادىء خالدة ، إلى تاريخ عملاق غني بالبطولات ، إلى خيرات تتدفق من تحت الأقدام ، إلى شريحة عريضة تشكل الأغلبية ، من ملايين مؤمنة متطلعة لغد أفضل ، لا تعرف كيف تفتعل الإشكالات ، ولا صوغ الشعارات ، ولا الصراعات ، إنما تعرف كيف تلتزم بالشهادة والجهاد والاستشهاد ، تعرف كيف تقدم بسخاء كل التضحيات . كل شيء معطاء في أمتنا لدى هذا العربي المسلم ، القابع بوجهه السمح المشرق ، ولكنه ما زال في حجرة الانتظار ، مترقباً لوثبة يختزل بها زمنه المتوعك والمتراجع . . .)[1] ا . هـ .

(١) نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع ص ٢٥ .

وأخيراً أجدني أصرخ ـ بأعلى الصوت ـ مع د . محمد عمارة حيث يقول : (المشكلة أن هذه الحضارة تريد منا أن نقبلها ، ونقبل قيمها وأنماطها في العيش والفكر والسلوك والحياة ، بل إنها تعمل على أن تفرض علينا هذا « الجانب » وحده ، في الوقت الذي تحجب عنا ما نحن بحاجة إليه فعلاً ، من مصادر القوة في العلوم المادية والحياتية[1]) .

وأخيراً أجدني أردد ما قالته زوجة صديق لزوجها : يا فلان نحن لا نستطيع أن نعيش بدونك ، كما لا نستطيع أن نعيش معك . ونحن لا نستطيع الاستغناء عن حضارة الغرب ، وما أنتجته من علوم ومعارف وتقنية ، ولا نستطيع أن نقبل أو نتقبل كل ما جاءت به حضارة الغرب من قيم ومُثل ونظام اجتماعي ، وسلبيات تقشعر لها الأبدان .

نتطلع لأخذ واع مشروط ، يعرف ما يأخذ وما يدع ولا يكون كحاطب ليل والله الموفق .

* * *

(١) جريدة « المسلمون » العدد ٤٢١ في ١٤١٣/٩/٥ .

القسم الثاني

علاقتنا بالغرب

حين اندفع الإنسان الغربي بعيداً عن بلاده ، منتشراً في كافة القارات ، من أمريكا إلى أستراليا ، ومن أفريقيا إلى آسيا ، غازياً وفاتحاً ، ناشراً من الأفكار والقيم ما يريد ، حصلت مقاومة ومواجهة في أكثر من قارة ، وأول المواجهات كانت مع السلطة « العثمانية » التي كانت تحكم البلاد العربية وغيرها .

حدث الاقتحام الغربي للجزائر ومصر والشمال الإفريقي بعمومه .

لم يستطع العثمانيون الصمود ، لأن « الاختراق » من جهة والضعف المتزايد من جهة ، كانت قد فككت وفسخت الكيان الداخلي ، فالمواجهة لم تكن متكافئة ، وهي أشبه ما تكون بمصارعة بين رجل كبير قد تناوشته الأمراض والعلل ، وشاب معافى بكمال الصحة ، فلا يعقل أن يكون النصر حليف الشيخ إلا إذا وقعت معجزة .

إن أوروبا التي كانت تنهض يوماً بعد يوم ، تبني قوتها وتجدد مؤسساتها ، كان يقابلها في الجانب العثماني جهل يزداد ، وخراب في البلاد سببته حروب وثورات ، مع فقدان للثقة بالنفس وإعجاب لا حدود له بالغرب ، وكل هذا يقضي على التكافؤ ويسارع بإنهاء الصراع لحساب الغرب وحضارته ، فمن يعجب بعدو كيف ينتصر عليه ؟!

ومع ذلك صمد الجهاز العثماني أكثر من قرن ونصف ، كان الغرب خلالها يحاربه بكل الوسائل الشريف منها وغير الشريف .

ولكن الملفت للنظر أن سقوط الحكم العثماني لم يتبعه انهيار كبير للمجتمع ولا سقوط المقاومة .

فسرعان ما رفعت حركات إسلامية هنا وهناك راية المقاومة ، بعضها أعلن الجهاد وقاتل والبعض تخندق وراح يحارب بالكلمة ورفض النهج الغربي ، مع قلة الوعي وشحة الوسائل .

فمنذ أن وصلت جيوش نابليون إلى مصر عام ١٧٩٨ م إلى احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ لم تهدأ المقاومة[١] .

في مصر كان الأزهر حامل راية المقاومة ، ومع أن نابليون حاول أن يقوم بلعبة بهلوانية ، معلناً أنه « حامي الإسلام » بل راح يفاوض ليعلن إسلامه وجيشه ، ومع ذلك لم يخدع أحد بذلك .

في الجزائر قامت حركات شعبية بتشكيل خط لمواجهة المستعمر الفرنسي ، والذي جاء بمشروع « إبادة » وجعل الجزائر جزءاً من فرنسا .

لقد قام المجاهد عبد القادر الجزائري بمقاتلة الفرنسيين ، وفي السودان قام المهدي بثورة ضد الإنكليز ، وحتى الهند وأندنوسيا وكذلك العراق ، كلها لم تستسلم رغم قوة المستعمر ووسائله الهمجية وأسحلته الفتاكة ، وإمكاناته الكبيرة .

وشمل هذا المد الإسلامي أقطاراً مثل فطاني (في تايلند) وثورات إسلامية ضد الروس والإمبراطورية الروسية .

تتابعت الثورات والانتفاضات مثل انتفاضة جامع الزيتونة في تونس ضد الفرنسيين ، وانتفاضة « التبغ والتنباك » ضد الإنكليز في إيران ، وثورة الأفغان ضد الإنكليز ، وثورة الأكراد في شمال العراق وأخرى في جنوبه ضد الإنكليز .

في المغرب جمع عبد الكريم الخطابي جمهوراً من المجاهدين

(١) الخطاب العربي المعاصر / فادي إسماعيل / المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن .

لمقاتلة الفرنسيين ، كما قاد الشهيد عمر المختار حرباً في ليبيا وأخيراً حملت الراية جمعية العلماء في الجزائر لتحارب أولاً في الميدان الثقافي ، محافظة على الهوية الإسلامية واللغة العربية ، ثم لتشارك في التحريض على الثورة ضد الفرنسيين ، حتى خرجوا .

ومع تمكن الاستعمار وفشل الحركات الجهادية ، تحول الرد من قتال إلى رفض مطلق للغرب ، ولكل ما جاء به ، رفضه كمحتل إلى جانب رفضه عسكرياً وسياسياً واقتصادياً ، وأسلوب حياة .

كان مستند الجماهير المسلحة هو الإسلام ؛ والاعتزاز بالتراث ، فذلك هو الذي يميزها عن المستعمر الغازي ، الذي احتل البلاد وراح ينشر ثقافته وقيمه ، لقد كان التميز واضحاً ، وكان الرفض قوياً وواسعاً .

ولما حاول بعض التجار في المغرب ـ فيما بعد ـ أخذ جوازات سفر وعقد صفقات تجارية مع الغرب جاءت الفتوى بعدم حل ذلك .

أما اليوم فالحصول على جواز سفر غربي أو جنسية أمر يسيل له اللعاب ، وتطير له القلوب فرحاً وبهجة ، وهو شرف ـ لكثير ـ من أبنائنا ليس بعده شرف .

وهنا يرد سؤال : ماذا حققت هذه الثورات الإسلامية ؟ أو الانتفاضات ؟ لم تستطع طرد المستعمر ، لكنها علمته أن ما فعله بالهنود الحمر في أمريكا لن يتكرر هنا أبداً ، وقد حفظت للشعوب الإسلامية هويتها ، وواصلت ـ بشكل ما ـ لحمتها الحضارية ، وشكلت سداً وحاجزاً أمام تغريب هذه الشعوب ، أو القضاء على هويتها أو ثقافتها .

إن الغرب يرفض كل حضارة سوى حضارته ، ويرفض كل تميز عنه ، إنه يعمل نحو إلغاء الثقافات الأخرى أو إذابتها في ثقافته ، ويقاتل كل دين أو عقيدة تعاديه ، أو لا تقبل بمشروع « الذوبان » من هنا فهو يمكّن لكل عنصر يتناغم معه ، ويقبل بمشروعه الحضاري ، في الهند

وضع الإنكليز قاعدة في التوظيف تقول : تعطى الوظائف للإنسان الغربي الفكر والسلوك فإن لم يوجد ، تعطى الوظيفة لغير المسلم ، فإن لم يوجد يفضل من المسلمين من يقبل حضارة الغرب وقيمها ، فإن لم يوجد تعطى الوظيفة للمسلم ويعطى له الحد الأدنى من الأجور .

في مواجهة الغزو الغربي الشامل وعلى كافة المستويات ماذا يفعل المغلوب ؟ إما أن يستسلم أو يقاوم ، وحين يقاوم لا بد أن يستصحب التاريخ ، ويتسلح بالتراث ، يتسلح بالعقيدة ، ويضغط على نقاط الخلاف ويتأنس أوجه الإتفاق .

من جانبه ماذا يطرح الغربي الغازي بعد أن ثبت أقدامه وراح يبحث عن حلفاء له أولاً بين الأقليات العرقية والدينية ، وثانياً بين « المتغربين » الذين هالهم قوة الغرب ، وما يملك من أسباب العطاء .

هنا راح يطرح مشروعاً « للتماثل والتصالح » والهدف هو إلغاء التمايز وإيقاف الصراع ، ودعوة المغلوب لأخذ منهج الغالب كاملاً غير منقوص ، ومن هذا الإطار نفهم شعار « الجزائر فرنسية » فطوال حكم الفرنسيين لم يكن ينظر للجزائري أكثر من مستعمَر ، ولن يكون يوماً مواطناً فرنسياً له نفس الحقوق .

يذكر « سارتر » في تقديمه لكتاب « فانون » معذبو الأرض هذه الحالة قائلاً : (. . . لقد جاء جيل جديد حاول أن يشرح لنا في كثير من الصبر أن قيمنا لا تناسب حقيقة حياتهم ، وأنهم لا يستطيعون نبذها كلياً ولا هضمها ، وكان معنى ذلك : إنكم تشوهوننا ، فالمذهب الإنساني الذي تأخذون به يدعي أننا وسائر البشر سواء ، ولكن أعمالكم العرقية تفرق بيننا وبين غيرنا . . .)[1] .

إن « التماثل والتصالح » بضاعة للتصدير فقط ، هي تعرض خارج

---

(١) من المقدمة لكتاب معذبو الأرض لفانون ترجمة الدروبي والأتاس دار الطليعة ، بيروت .

بلاد الغرب ، أما في الداخل فهناك مواطنون ورعايا ، ولكل حقوقه الخاصة وواجباته .

إنه يعمل فقط على (تشويه ممانعة المغلوب ضد السيطرة ، وهي ممانعة ترتكز في وعي المغلوب المباشر ، إلى رؤية العلاقة كتناقض تناحري وكتمايز حاد ، وهذا هو ما يسعى الغالب ـ الغربي ـ إلى طمسه . . . مع وعد المغلوب دائماً « بجنة المساواة » الوهمية خارج العلاقات الفعلية) كما يقول سهيل القش .

إن شعار التماثل والتصالح خدع الكثير من البلاد المغلوبة ، ولكنهم كانوا من المثقفين أو من النخبة ، ونجت جماهير الأمة من ذلك . يصور سهيل القش موقف مثقف النخبة قائلاً : (. . . يتحرر المثقف الحديث من عبء تمثيل الحركة الجماهيرية وممانعتها للغالب ويتجه ليصير ممثلاً « للغالب » و« خواجا » السلطة أو حاجب السلطان ، إنه يستند في وضعه « الوسيط » بين السلطة والشعب إلى سلطة شكلية ، يستمدها من « فوق » سلطة العلم والثقافة « العصرية » التي تحاول أن ترث وتنافس سلطة المثقف الشعبي)[1] .

وهذا هو المؤلم والمؤسف ، ولكن لا غرابة فيه ، فهذا المثقف المتعالي هو ابن الثقافة الغربية وتلميذها ، ولا بد أن ينحاز لها بشكل أو آخر ، ولو ضد أهله ومواطنيه .

بقي أن نقول مع علي أو مليل[2] بأن المجتمعات التي تجابه ضغطاً أجنبياً تحملها ضرورات الدفاع عن النفس للاحتماء « بالتراث » ، فيعطي الصدارة ، من هنا يقدم التوحيد على التعدد ، والانسجام على التمايز ، فالتراث هو ملجأ الكل ، كل يستثمره وفق الضغط والتحدي الذي يواجهه . .

---

(١) في البدء كانت الممانعة ص ٩٤ .

(٢) الخطاب العربي ، فادي إسماعيل ص ٦٣ .

العصبية :

طرح ابن خلدون « العصبية » ليفسر بها التاريخ ، وقد أخذها من الواقع السياسي الذي عاشه ، وذاق مرارته ، وأوشك أن يدفع حياته ثمناً لذلك .

ويتلخص الأمر بأن الخليفة الفاطمي في مصر ، أرسل من صعيد مصر عرب بني هلال وبني سليم في القرن الخامس للهجرة ٤٢٥هـ إلى شمال أفريقيا ، لمعاقبة المعز بن باديس ٤٠٦ ـ ٤٥٤ هـ الذي أعلن استقلاله عن الفاطميين ، وحين استقروا قاموا بحروب مستمرة ، وغزوات ، قام ابن خلدون نيابة عن أمير بجاية ، الذي كان يعمل حاجباً لديه ، بالتفاوض مع هذه القبائل ، ولكن لم يصل إلى نتيجة مع ما بذل من جهود وأموال ، حتى قضوا على الإمارة ، وأوشك ابن خلدون على الموت ، وقد وجد أن هؤلاء البدو بتماسكهم وعصبيتهم صاروا قوة فاعلة تسقط إمارات ، فصب نقمته على البدو عموماً وطرح نظرية العصبية ، ليفسر بها بقاء الحكم وزواله[1] .

يقول برهان غليون :(لا تكون الجماعة إلا بالعصبية والتلاحم الجماعي تجاه الجماعات الأخرى . . .) .

والعصبية درع نفسي يحمي وحدة الجماعة ويتكفل باستمرارها ، وتأخذ صوراً مختلفة من شعب لآخر ، وبالنسبة للمسلمين كانت تأخذ صور التعصب للدين حين جرى الاصطدام مع الحضارة الغربية ، وقد جمع الإسلام وما يزال شعوباً عدة ورصها ، بهدف الدفاع عن الأمة وحريتها واستقلالها وتراثها .

وقد ثبتت قدرة الإسلام على رص الصفوف ، ومواجهة الاختراقات ، بأكثر حتى من فاعلية الدولة المركزية ، في مواجهة

(١) مجلة الفكر العربي اللبنانية العدد ٤٣ عام ١٩٨٦ ص ٢١٠ .

المستعمر ، ولذا رأينا الكثير من الثورات ترفع شعار الإسلام ، حتى إذا انتصرت وتوطد لها الحكم ، أدارت وجهها عنه وتولت غيره ، أو راحت تحاربه ،وتقتل كل من يؤمن به .

رفع « لورنس » تقريراً إلى المخابرات البريطانية عام ١٩١٦ جاء فيه : أهدافنا الرئيسة هي تفتيت الوحدة الإسلامية ، ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها ، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب ، وهم الأقل وعياً للاستقرار من الأتراك ، فسيبقون في دوامة من الفوضى السياسية ، داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة ، غير قابلة للتماسك[١] .

أما المستشرق « برنارد لويس » فيقول :(منذ بداية التغلغل الغربي في العالم الإسلامي ، حتى يومنا هذا كانت الحركات الفكرية المتميزة التي قامت في وجهه حركات إسلامية ، . . . وأقوى الحركات الثورية التي قامت ، والتي اكتسبت أقوى التأييد وأثارت الجماهير ، كانت دينية شعبية ، من أصولها وشعاراتها ، وفي الأسلوب الذي عبرت به عن غاياتها ، كما كانت أول ردود فعل المفكرين المسلمين لواقع الانحطاط والضعف الذي أصاب المسلمين ، دينية أيضاً وليست قومية ، وعندما بدأ الهجوم لم يكن السلاطين أو الوزراء أو الجنرالات هم الذين يقودون معركة المقاومة ، بل كان الزعماء الدينيون الشعبيون ، هم الذين استطاعوا إيقاظ وتوجيه عواطف جياشه وطاقات جبارة[٢]

هذه شهادة رجل يعادي الإسلام حتى العظم ، فهل يقرؤها من يتكفلون للغرب بذبح الإسلاميين وبيع رؤوسهم ؟

بعد هذه الشهادة يدق « لويس » ناقوس الخطر محرضاً اليهود والنصارى على الإسلام وأهله فيقول : (الإسلام قوة جبارة جداً ، ولكنه ما زال بحاجة للتوجيه السياسي ، وإذا لم يلعب دوره في المجال

---

(١) لورنس العرب ، زهدي الفاتح ص ٦٤ .

(٢) الغرب والشرق الأوسط ص ١٤٨ .

الدولي ، فما ذلك إلا لفقدان « القيادة » التي تستطيع القيام بذلك ، إلا أن ظهور هذه القيادة محتمل جداً .

إن وصول الإسلام إلى مركز « القوة » أمر له خطورته . . . فإذا لم ينتبه إلى خطورة الإسلام ، فإن أمتي « السبت والأحد » سيعانون نتائج وخيمة)[1]

وهذا الإنذار تقرعه إسرائيل صباح مساء ، وقديماً قيل : سعادة الثعلب في نوم الكلاب وسكون الدجاج .

لقد أفلح الاستعمار الغربي في تسديد ضربات قاتلة للحياة الاقتصادية والسياسية للمجتمعات المسلمة كلها ، لكن لم يفلح في ضرب العقيدة ، وإن نجح في فرض قوانين وأنظمة مخالفة ، وجعل القاعدة : الحكم بغير ما أنزل الله ، إن تدخل الاستعمار المباشر في ذلك ظل يثير الحمية لدى الشعوب والجماعات الإسلامية ، مما أدى إلى الحفاظ على لحمة المجتمع وعلى قيام خط « جهادي » يحارب الاستعمار ويقاوم مشاريعه ، حتى أطلق عليه أحد الكتاب الهندوس « الإسلام الجهادي » .

لقد كان هذا الخط أصلب عوداً حتى من السلطات القديمة في المقاومة ، والجهاد الأفغاني خير دليل ، مع ما قام به الاستعمار ، وما يقوم به « تلاميذه » حتى الساعة .

لقد قام تحالف رائع بين العقيدة والجماعات في كافة الأوقات العصيبة والتهديدات الكبيرة ، وهذا التحالف ولّد ويولّد « العصبية الدينية » التي تأخذ صوراً متعددة من المقاومة والرفض لكل ما يريده الاستعمار والغرب .

من هذا التحالف تغدو العصبية الدينية « تعبيراً ثقافياً » يتجاوز العصبيات كافة من القبلية والوطنية والجنسية والقومية ، متجهاً نحو جمع

(١) مجلة الأمة العدد ٢٠ ص ٢٠ .

الأمة وحفظ كيانها ، من هنا رأينا المصريين يقاتلون في ليبيا والعرب في أفغانستان والبوسنة .

إنها مقاومة تستهدف إنقاذ الهوية ، ويلعب الدين والعقيدة فيها دوراً أساسياً .

لقد نقدت الجماعات الإسلامية الحكم العثماني ناعية عليه استبداده وجموده ، لكنها لم تسقط كما سقط القوميون بالتحالف مع المستعمر ، بل ظل همها الأول إنقاذ وجود الأمة الإسلامية من العدوان الخارجي .

إلا أن هذا التوازن افتقد إلى حد كبير في حرب الخليج ، حيث اختلطت الأوراق ، فانقسم الناس بين ناظر لعدوان عربي يقع على عرب ، ومن تدخل خارجي ، فكل فريق سلط الضوء على أحد أطراف المعادلة ، دون الثاني ، وغاب عن الساحة صوت العقل الذي يرفض العدوان والتدخل معاً .

والأمل أن يرص الصفوف مجدداً العدوان على المسلمين في البوسنة والهرسك ، فلا شيء مثل العدوان الخارجي يوحد الأمم ، وينفض عنها النعاس والتثاؤب . كما ستبقى قضية فلسطين تدفع بالأمة نحو الاجتماع وتناسي الخلافات ، تلك التي يشعلها العدو الصهيوني وحليفه الغرب .

لا يستطيع المتابع لمجريات الوقائع أن يتجاهل وجود تيار « وطني تصالحي » توفيقي يريد تحقيق نهضة تحت مظلة « الغلبة والتفوق » يحاكي النموذج الغربي ويسترشد بما لدى الغرب من مُثل ثقافية ، وحتى القيم والنظم والحلول ، وهذا التوجه يخشى أن يولد المزيد من الاختلال والتفسخ في المجتمعات « المغلوبة » ، وبالتبع المزيد من التبعية للغرب ، وهذا يشكل تهديداً لمصير الأمة ووجودها وتميزها ، ثم يأتي الرفض ، ولكن من موقع الضعف ، لأن الاقتباس من موقع القوة لا

يعارض فيه أحد . أما في حالة الضعف فالاقتباس يعني الخطر ، إذ يفكك بنية المجتمع ثم يعيدها وفق نسق الغالب وقيمه وتصوراته .

إن أوروبا اليوم تتوحد ، وتجمع دولها لتقف مستقلة ونداً للولايات المتحدة ، وهي لا تختلف معها في ثقافة ولا قيم ولا تصورات ، وغداً ستقوم اليابان بجمع الصين وكوريا وربما الهند ، لتكون كتلة لها حجمها ونظرتها للحياة ، ولتقف نداً لأوروبا الموحدة والولايات المتحدة .

إن المقاومة للاختراق الغربي والتي قادتها جماعات إسلامية والأزهر وبعض الطرق الصوفية ، فشلت لعدم التكافؤ بينها وبين قوة الغرب ، وعدم وجود دولة قوية تسند هؤلاء وتدفع بالمقاومين نحو النصر ، رغم البسالة التي أبديت والمكتسبات التي سرقت ، فقد ظل الإسلاميون وقوداً لكل ثورة ومقاومة ، فما أن تنجح حتى يكونوا أول الضحايا ، وأقل المستفيدين ، وربما كان الاستثناء الوحيد في أفغانستان .

لقد أفرزت الاختراقات الغربية وفشل الثورات الإسلامية قيادات ، تقبل الغرب وتحاول التوافق معه ومحاكاته ومع ما يريد من تحديث وتجديد .

أما المقاومات الوطنية وخصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد اختلفت عن الأولى إلى حد كبير ، فقد كانت غربية التوجه تصالحية ، تريد من الغرب حصة أكبر من الاقتصاد والاستقلال السياسي ، حتى أطلقت على الاستيلاء على السلطة وأجهزة الدولة إسم « الاستقلال » وإن بقي للغرب كل شيء .

المقاومة الأولى كانت رافضة لما عند الغرب عموماً ، أما المقاومة الثانية فتحارب حول « الحصص » لا حول المبادىء والقيم والهوية .

المقاومة الثانية قبلتها وهدفها الغرب ، لا البعد عنه أو الاستقلال

التام ، أو إقامة حكم إسلامي متميز .

وإذا كان (الأفغاني) ممثل المقاومة الأولى ، وهو الذي ظل يعلن حتى وفاته بأن التحدي الحقيقي يساوي ويكافىء الإسلام .

وإنه راح يبحث عن أجوبة سياسية تاريخية لتحديات الغرب ، وكان يعتقد بأن الإسلام يعني الذات والقوة معاً ، فإذا ضاع الإسلام فقدت معه عناصر بناء الأمة وأسباب تميزها واستقلالها ، أما رجال المقاومة الثانية (الوطنية) فاعتمدوا الغرب وثقافته وقيمه ، في الرد على تحدي الغرب ، فهم يقرون ضمناً بسيطرة الغرب وحتى التزام نهجه ووسائله ، فكيف يستقلون عنه ؟

المقاومة الأولى كانت ترى أن قضيتها « سياسية » بالدرجة الأولى ، وليست ثقافية أو إصلاحية جزئية ، لذلك تبنت المقاومة ورفضت الأخذ عن الغرب ، لأنها تريد التميز وتحتمي بالعصبية ، وتجعل من الإسلام درعاً لها يحفظها من الذوبان والضياع ، أما المقاومة الثانية فتقاتل على حصة أكبر في الحكم والاقتصاد مع مزيد من التبعية والاندماج ، إنه هروب ولكن إلى الأمام وباتجاه العدو المخترق ، لا ضده .

رفع رجال المقاومة « الوطنية » شعارات الاصلاح الثقافي والتربوي والاقتباس ، حتى الديني وفق النموذج الغربي ، وأعطوا الأولوية لتنظيم الدولة والمجتمع ، ومع ذلك وقعوا في مأزق (إن هذا المأزق هو الاعتقاد بأننا لو أخذنا نفس مبادىء الأوروبيين لتقدمنا ، إننا بهذا الاعتقاد ألغينا التاريخ والعلاقات التاريخية بيننا وبين الغرب ، وألغينا أيضاً كل صيرورة المسلسل التاريخي والاجتماعي الذي أدى في أوروبا إلى ظهور الثورة الصناعية والثورة السياسية)[1] .

ومع أن الحكم يتداول في أيدي « نخب التغريب » منذ نهاية

---

(١) برهان غليون ، الخطاب العربي ص ٥٩ .

الحرب العالمية الأولى وما زال ، فإنهم ألقوا بأسباب الهزائم والفشل على غيرهم . لقد حملوا الفكر التقليدي هزائمهم وفشلهم ؛ ناعتين هذا الفكر باللاعقلانية واللاتاريخية والظلامية ، والماضوية المعادية للتقدم والحداثة والعصرنة والعقل والعلم والحضارة .

يقول فادي إسماعيل : (إن الإسلاميين أو المنادين بتطبيق المبادىء والمعايير الإسلامية ، لم يكونوا في موقع القرار بل كانوا مهمشين مبعدين عن ساحة النخب السياسية والاقتصادية والثقافية ، إن كثيراً من الجرائم ارتكب في الفكر والواقع من قبل مجتمع « النخبة » في أقطارنا العربية والإسلامية ، باسم الحداثة والتقدم والتنمية . إن الحداثة والتقدم الذي ننقده ونرفضه ، هو تقدم التبعية وتحديث القمع والاستبداد والتسلط ، لأن التحديث من موقع الغلبة والضعف ، لا يمكن إلا أن يساهم في تعميق التفسخ والانقسامات ، وجعل مجتمعاتنا غير قادرة على هضم الجديد ، واستيعاب النظم العصرية ، والنتيجة واقع مسخ ومجتمعات « مفتونة » متعددة ومتصارعة ، تتعايش تحت سقف الدولة القطرية ، وفي النهاية مُررت تحت « عباءة » التقدم والحداثة والتنمية إجراءات وأفعال ، هي في النتيجة ضد الحداثة والتنمية والتقدم)[١] ا.هـ .

ومن فرسان الاتهام نديم البيطار ، فهو يربط بين بقاء الاحتلال الإسرائيلي والتقاليد ، حتى كأن في الأمر تلازماً (سيصبح العرب أكثر من أي وقت مضى أمام اختيار ، لا مهرب منه ، فإما التخلص من التقاليد ، أو الإبقاء على الاحتلال الصهيوني ، لأن التخلص من التقاليد هو شرط للتخلص من الاحتلال)[٢] .

والسؤال : من كان يحكم العالم العربي منذ قيام إسرائيل حتى

---

(١) الخطاب العربي ص ١٣ .

(٢) الخطاب العربي ص ١٤٦ .

اليوم ؟ هل يحكمها الإسلام وتقاليده أم القومية وتقدميها ؟!

والذي يحتار له الإنسان : لماذا يطلب إلينا وحدنا التخلي عن الإسلام والتقاليد ، وهذا جارنا الإسرائيلي يقيم دولته على الدين ووعود التوراة المحرفة ؟

لقد عقد مؤتمر في جامعة تل أبيب في ١٩/١٢/١٩٨٠ حول العلاقات المصرية الإسرائيلية ، شارك فيه من مصر رئيس وزرائها آنذاك مصطفى خليل ، وبطرس غالي وزير الدولة ، وقد نشر هذا الحوار في الصحف :

مصطفى خليل : أود أن أطمئنكم أننا في مصر نفرق بين الدين والقومية ، ولا نقبل أبداً أن تكون قيادتنا السياسية مرتكزة إلى معتقداتنا الدينية .

البرفسور دافيد فيتال : أنتم أحرار أيها المصريون في أن تفصلوا بين الدين والسياسة ، ولكننا في إسرائيل نرفض القول بأن اليهودية مجرد دين فقط ، إننا نؤكد لكم أنها دين وشعب ووطن . . البروفسور تقي بافوث (أستاذ علوم سياسية) يقول : أود أن أقول للدكتور خليل إنه سيكون على خطأ كبير إذا أصر على التفريق بين الدين والقومية ، إننا نرفض أن يعتبرنا د . خليل مجرد أصحاب دين ، فنحن نعتبر اليهودية ديننا وشعبنا ووطننا . !

فما رأي تجار « العلمانية » بهذا ؟ .

وما دمنا في اليهود واليهودية فلا بأس بأن نعرج على رأي طرحه « سارتر » في المسألة اليهودية ، إذ يقول بأن العالم يتهم اليهود بمحاربة الأديان ، وجمع الأموال ، ونشر العري بين الشعوب ، ولم ينكر هذه التهم ، بل راح يوجهها ويدافع عنها ، وبالمناسبة فاليهود يعتبرون كل شخص ولد من أم يهودية فهو يهودي ، وعلى ذلك فسارتر وغالي ـ في عرف اليهود ـ منهم . يقول شيخ الوجودية بأن أصحاب الأديان

اضطهدوا اليهود وعادوهم ، وقد توصل اليهود إلى قناعة ، أن اضطهادهم سيستمر ما دامت هذه الشعوب متمسكة بأديانها ، من هنا جاءت حربهم للأديان . ولو اقترح وهو الوجودي الملحد أن يتخلى اليهود كذلك عن دينهم لكان عادلاً ومعقولاً .

وقد قال أحد العلماء الفرنسيين إن اليهود يعلمون أبناءنا الإلحاد ، على حين يعلمون أولادهم التوراة .

بعض أبنائنا يريد منا أن نهجر الإسلام ، عسانا نندمج في الغرب ، ونهمس بأذن هؤلاء متسائلين عن مصير الأتراك بعد نصف قرن من علمانية يحميها القانون ، وما تزال تفرض فرضاً ، فهل قبلهم الغرب أم ما زالوا يطرقون الأبواب دون جواب ؟

بعد انتهاء الثورات الشعبية الكبيرة ، وقيام الحركات الوطنية وتسلم « النخب » لمقاليد الحكم ، سيطرت الهيمنة الغربية فسنت القوانين والدساتير ، وانتقل النمط الغربي للمنطقة بالشكل والصورة ، وطرح سؤال : كيف نسرع في بناء دولة حديثة ، أو بعبارة أخرى : كيف يمكن تحسين شروط انخراطنا في الغرب ؟ وكان السؤال قبل هذا : كيف نطرد الغرب ونفوذه عن بلادنا ، ونعيش مسلمين كما يأمرنا ربنا ؟

والغريب أن كل طرف ما يزال يصر على سؤاله ، الإسلاميون كيف نتخلص ؟ والوطنيون كيف نلحق ؟ كيف ومتى نندمج ؟

إن التمييز بين الدين والسياسة والحضارة والثقافة ، قضية غربية معروفة ، وأسبابها معلومة معروفة ، وحيثما ذهب الغرب حمل هذه البضاعة معه ، وسوّقها على من يرغب ومن لا يرغب ، وعلى من تناسبه ومن لا تناسبه .

وهاهم اليهود يرفضون التفرقة ، ونروّج لها نحن ، على حين هي إيمان ببعض الكتاب وكفر بأكثره .

تبقى قضية الاقتباس من الحضارات الأخرى ، وقد عرفناه فأخذنا

ونقلنا عن الحضارة اليونانية بعض علومها : من فلسفة ومنطق ورياضيات وفلك ، وعن الهند والفرس بعض علومهما ، وكنا إذ ذاك سادة أقوياء ، ولم تكن « الاختراقات » قد عرفناها ، لم ننقل التشريع ولا الآداب اليونانية ، فقد اعنانا الإسلام ، أما الآداب فكانت وثنية تؤمن بتعدد الآلهة وتصارعها فتركناها كلياً .

لقد كنا يومذاك كشاب قوي لا يخاف المرض ، ويستطيع أن يهضم كل ما يقدم له ، أما بعد الاختراق الغربي فكنا كشيخ تناوشته العلل والأمراض ، فلا يقدر على الكثير مما يقدم له .

ويمكن أن نتبنى تقسيم العلوم والمعارف الذي طرحه شيخ الإسلام ابن تيمية ، فعنده المعارف ثلاث :

١ ـ عقلية يستوي فيها مؤمن وكافر ، وهذه لا اعتراض على نقلها وأخذها .

٢ ـ معارف ملّية تختص بها أمم غير أمتنا ، وهذه نأخذ منها ما لا يتعارض مع شريعتنا وقيمنا .

٣ ـ معارف شرعية وهذه تخصنا . والإشكال يحصل في التصنيف ، فعلم الاجتماع مثلاً علم غير محايد ، وهو غالباً يحمل تصورات أصحابه ، وقد رفض الروس علم الاجتماع الغربي بحجة أنه قائم على الاستغلال ، مع أن الروس في اشتراكيتهم ـ التي انتقلت إلى دار الفناء ـ لا يختلفون كثيراً عن الغرب الرأسمالي إلا في القليل ، ومثل ذلك المذاهب الاقتصادية والفكرية . . .

كان بالإمكان الدعوة إلى اقتباس ما لا يتعارض مع عقيدتنا وقيمنا ، ولكن الغرب القوي المسيطر لا يرضى بذلك ، ودعاة التغريب لا ترضيهم « الجرعة » فهم كما يقول قاسم أمين (لن تكون مصر مصرية إلا إذا تأوربت وتغربت) والحقيقة فإن أي بلد مسلم إذا تأورب أو تغرب فلن يبقى مسلماً إلا بالاسم .

إن الغرب رغم سيطرته المحكمة على بلاد المسلمين ، وتسلم « النخب المتغربة » لمقاليد الأمور ، إلا أنه لم يكتف بذلك ، فهو يريد ضرب « القوة الباطنة » الكامنة في الإسلام ذاته ، وبما أن الجماعات الإسلامية ملتصقة بالدين ، لذا فإن تطويقه وتهميشه وعزله يكون نافعاً ، بل ضرورياً للغرب ولأنصاره وتلاميذه ، وقد أوكل للأحزاب العلمانية وتلاميذه بضرب الإسلام تشريعياً ، وضرب الجماعات الإسلامية بعنف يصل إلى التصفيات الجسدية ، والقتل تحت التعذيب .

إن الغرب يحاول بكل الطرق تمرير مشاريعه وتسويقها في بلاد المسلمين ، فإذا اصطدم ببعض الجماعات ، طلب من تلاميذه أن يتصرفوا ، فإذا تقاعسوا أو جبنوا ، راح يخوفهم أو يهددهم بمصير هذا الحاكم أو ذاك ، فإن لم يتحركوا فبالإمكان أن تتحرك قطعة من الجيش على رأسها حفنة من الضباط ، وهنا ينتهي فصل جديد ليبدأ فصل جديد ، بل قل لتسيل دماء جديدة ، وتفرض تشريعات جديدة ، واتفاقات جديدة ، وعلى بعد عشرات الكيلومترات قوات غربية ، ترابط في ثكناتها تلتزم الصمت أو تصفق للأبطال الجدد .

باشر « المتغربون » بتهشيم المرتكزات الإسلامية الفكرية منها والثقافية ، مع محاولة صياغة جديدة للعلاقات الاجتماعية ، وجعل التعليم علمانياً ، وهكذا ينقسم الشعب المسلم إلى شعبين ، وما يطرحه طرف يرفضه الآخر ، وما يعتبره طرف حقاً يعتبره الطرف الآخر باطلاً .

إن الغرب وتلاميذه أفلحوا في وضع تشريعات وقوانين خلخلت النظام العائلي ، وعلى الأخص علاقة الرجل بالمرأة ودور المرأة في الحياة وملابسها واختلاطها ، كما ضربت علاقات التضامن التي عرفها الإسلام وعمل على توكيدها .

أحد شياطين المستشرقين يعلق حول وضع المرأة المسلمة في كل من تركيا وإيران فيقول : في تركيا حرضنا المرأة على ترك البيت وأوجدنا

لها فرص العمل ، وحصّنا كل ذلك بتشريعات تمنع الزواج بزوجة ثانية ، وحددنا الطلاق ، ولذا لن تعود المرأة التركية للبيت أبداً .

وفي إيران قمنا بنفس الدور ، ولكن لم نهيىء فرص العمل ، ولا أفلحنا في فرض التشريعات الجديدة ، فسرعان ما رجعت المرأة الإيرانية إلى البيت.

وقبل مدة وقعت بيدي دراسة « غربية » تقول إن النساء في سامراء والكوفة ـ من العراق ـ ما زالت للأسف متحجبة . وقبل أشهر أراد دارس أن يطلع على محاضر « الكونغرس » الأمريكي في قضية تتعلق بالمرأة في الشرق ، فجاء الجواب : إنها مواد محجوبة .

إن دعوة الغرب للتمدن تقوم على فرض حضارته وقيمه وثقافته على مجتمعات مختلفة ، دينياً وثقافياً وتاريخياً . إن الغرب لم يكتف بالغلبة العسكرية ، ولا بالسيطرة السياسية ، ولا بالابتزاز الاقتصادي ، بل يريد أن تكون النتيجة غلبة حضارية كاملة شاملة ، وهو يجد من أبنائنا من يعينه على ذلك ويصفق له ، وجاءت ردة الفعل في عصبية دينية ، من موقع المدافع الذي يشعر بالخطر ، أو بخطرين واحد من الداخل والثاني من الخارج .

وكل شعب أو جماعة تشعر أن انقلاباً حضارياً يعد له صباح مساء ، وهو موشك على الوقوع ، فهنا يزداد شعورها بالقلق ، وبأن ما يحدث هو محاولة جادة لفرض بديل شمولي ، يشكل خطراً جاداً على شريعتها وعقيدتها وثقافتها وهويتها ، فلا يسعها إلا الحذر واللجوء إلى القوة الإلٰهية ، والاعتصام بحبل الله المتين . وهذا ما هو حاصل اليوم في أكثر من بلد وقطر .

قد يكون التخوف قد زاد عن حده ، وقد يدفع هذا الهاجس أهله لنوع من التقوقع أو التطرف ، ولكن المسؤول هو المتحدي الداخلي ، وظهيره الخارجي ، وغريزة الدفاع مشروعة لدى الإنسان ، والحيوان ،

وحتى النبات . فكثير من النباتات إذا فاجأها العطش وخشيت الموت ، سارعت إلى إنتاج البذور كي يمكن إعادة الدورة مرة ثانية .

من يدركه سيل جارف ماذا يعمل ؟ يأخذ ورقة ويكتب برقية احتجاج للدولة التي تماهلت في بناء سد ، أم يهرب بعيداً ، ويسب ويشتم كل من سرق أموال الدولة ولم يبن السد ؟

لا يجادل أحد أن العبادات والممارسات الإسلامية عملت باستمرار على بقاء المجتمع الإسلامي ككل ، وإن محافظة الأفراد والجماعات على الطقوس والشعائر الدينية ، التي ينعتها تلاميذ الغرب بالجامدة والمتزمتة ويطالبون بالتحرر منها ، ليست كذلك بل هي لون من ألوان المقاومة للزحف الغربي .

نسارع للقول بأن هذا الموقف ليس هو الحل ، ولكن وجود سد ولو ترابي أمام السيل أفضل من عدمه ، وكثير من الأمم مرت بمثل هذه المواقف .

لقد دمر الغرب الكثير مما نملك ، كما حاول وما يزال قتل قيم وإحلال غيرها مكانها ، وشطب تشريعات وإحلال غيرها مكانها ، وستبقى مجتمعاتنا تتخندق في خندق الإسلام ، وتحارب بما لديها من أسلحة ، حتى تستعيد قوتها وسلامتها .

في بداية القرن العشرين (أخذ الغربيون بزمام الحكم فتحقق الخطر ، وانزوى « الشرع » تماماً عن معظم مظاهر الحياة العامة ، لقد انعزل « الشرع » في الواقع اليومي عن العدل والعمران . . . إن السلوك الغالب في البلاد العربية ، كان يتميز بكثير من الحذر تجاه الإدارة الجديدة ، لأنها كانت إفرنجية أو متفرنجة ، أي : منفصولة عن عادات الأهالي ، فرغم الإصلاح والعدل النسبي ، والنمو العمراني ، لم تتحد القاعدة القانونية بالضمير الخلقي)[1] كما يقول الكاتب عبد الله العروري .

---

(١) مفهوم الدولة ص ١٣٥ .

إن الاختلال بين الدولة والمجتمع والشرع ، قد دفع حتى النهاية مع الزحف الغربي والدولة الوطنية ، بدلاً من معالجة هذا الخلل .
إن تغريب المجتمعات الإسلامية يهدف في الأساس إلى إبعاد الإسلام عن ساحتين : السياسة والقانون .

فالفصل بين الدين والدولة ، حجّم الإسلام من جهة وألحق الشعب بالدولة ، التي راحت تتوسع وتستحوذ على كل شيء ، حتى على عواطف الناس ومشاعرهم ، كان وجود الدولة حتى الأمس محدوداً ، لكن هذا الوجود والحضور تمدد في كل إتجاه .

لقد كانت الدول حتى الأمس القريب لا تخرج على الشرع ولا ترغب بذلك ، حتى جاء الغرب ليشجعها على الخروج ويحسن لها ذلك ، ويصوره كشرط للتقدم أو القبول في نادي الغرب ، ومن تباطأ أو عجز فعليه أن يرحل ، ليحل مكانه متغرب علماني ، أو عسكري جاهل لم يقرأ في حياته كتاباً ، فإذا وصل إلى السلطة تحول إلى فيلسوف ومنظر ، بل مؤلف كتب وناقد نظريات ، والكل يسأل كيف تزببت قبل أن تتحصرم[1] .

كيف انفصلت الحكومة الوطنية عن المجتمع ؟

الحكومة الوطنية الحديثة صورة لما يريد الغرب ويطلب ، وقد جرى إبعاد الشرع لتحل مكانه دساتير وقوانين ، يرضى عنها الغرب كما أبعد « العلماء » والفقهاء عن المجالات الحقوقية والإدارية لتحل مكانهم « نخب » تعلمت وتثقفت وفقاً لطرق الغرب ومفاهيمه ، لقد طبختها مؤسسات غربية ، وحكمتها نظرات الغرب وأهدافه في التربية والتعليم ، ثم أُهلت لقيادة مجتمعاتها وتحريرها من أصولها وعصبيتها التاريخية .

هذه النخب جعلت نصب أعينها إضعاف النخب التقليدية ومسح

(١) كيف صرت يا عسكري زبيباً قبل أن تكون « حصرماً » وكيف قفزت مرحلة الحلاوة والنضج ؟

تأثيرها في الساحة الاجتماعية والسياسية ، حتى تنسى وتذهب ، وبعد ذلك يتيسر لنخبة التغريب وضع اليد على الثروة والسلطة في البلاد .

إن التغريب الذي كان مرفوضاً حتى الأمس القريب ، صار في ظل الدولة الحديثة إيديولوجية من مهامها نشر التغريب وتصحيحه ، وذلك بتحويله إلى تربية ومؤسسات وفكر ، وبعبارة موجزة نقل الغرب وتحويله إلى داخل المجتمع ، بعد أن كان التغريب يعني نقل المواطن إلى الغرب بهدف تطبيعه وتدجينه .

لقد كان الغرب ممثلاً بالاستعمار وجيوشه ، لكنه انسحب من قواعده الأرضية ، ليقيم مكانها قواعد من « العقول والقلوب » وإذا كانت القواعد الأرضية تثير المشاعر والعواطف والعزة ، فإن القواعد الثانية كالمخدر لا يشعر صاحبها تجاه الغرب إلا بالحب والإعجاب . ونفسه تذوب أسىً وحزناً لأنه لم يكن مثل الغرب في كل ما لديه ! .

عظمت المصيبة وتنامى الخطر على الإسلام وأهله وأرضه ، من اللحظة التي تمكن فيها من الحصول على شرعية « محلية » صارت تقوم بكل ما يريد ، بل وبما يعجز التسلط الغربي عن تنفيذه ، وهكذا انقسمت مجتمعاتنا انقساماً حاداً بين إسلامي يريد تطبيق شرع الله ، وعلماني يرى أن سعادته وخير بلاده في التوجه الغربي ، وإبعاد الشرع تشريعاً وقيماً وأفراداً .

لقد ارتدى التغريب زياً إسلامياً وأسماء إسلامية ، كانت في كثير من الأوقات لها طنين ورنين ، بينما كان حتى الأمس يمثله المستعمر الغربي ، أو المندوب السامي . ولكن أبناءنا قدموا له أكبر هدية حين نابوا عنه وتكفلوا بدوره .

عمل الاستعمار بدقة متناهية لربط النخب ذات الثقافة والتوجه الغربي بأنظمة الغرب سياسياً وإقتصادياً وثقافياً وتربوياً ، وأوكل لها أن تتم ما بدأه السيد منذ أن وطئت أقدامه أرض المسلمين .

يقول « أدونيس » : المجتمع العربي يتحرك أيديولوجياً بقيادة أقلية « طليعية »[1] في اتجاه الحداثة ، إن ثقافة الجماهير ما تزال ثقافة تقليدية متخلفة ، لذلك يحتاج المجتمع العربي إلى تغيير جذري شامل لا يتم إلا بالثورة ، وهذا لا يتم بمجرد تغيير نظام الحياة حوله ، بل يجب أن يرافقه تغيير لنظام الفكر أيضاً[2] .

وإذا كانت أحلام القطط كلها تدور حول الفئران ، فإن كتابات سلامة موسى وأمثاله من أبناء الأقليات كلها تدور حول إبعاد الإسلام عن الحياة ، وليحل أي شيء مكانه ، يقول سلامة : (ليس هناك حد يجب أن نقف عنده في اقتباسنا من الحضارة الغربية ، إن في العالم العربي صراعاً بين المبادىء الآسيوية ـ يتهرب من الإسلام ـ التي ينصرها ويذود عنها « رجال الدين » والمبادىء الأوروبية ، التي تدين لها وتعمل على نشرها طبقة صغيرة عدداً ولكنها كبيرة حرمة وجاهاً ، لأن في يدها مقاليد الحكم ، فهذه الطبقة تستطيع أن « تحضّر العالم العربي » بسن قوانين كأن تعاقب مثلاً « المرأة المتحجبة » ولا قبل لنا بانتظار التطور الاجتماعي ، لأن العالم يثب نحو الأمام)[3] .

وهكذا لم يجد سلامة موسى في حياة العرب كلها شيئاً يستحق أن يسن له عقوبة إلا « الحجاب » ، أما الاتجار بالمخدرات وأما سرقة الملايين من الأموال العامة ، أما بيع المواد التموينية بعد تفسخها ، فكل ذلك لم يخطر بباله ، إنه مثل القطط لا تحلم إلا بالفئران . . .

لقد أفرزت الأنظمة التعليمية الغربية في بلادنا رجال فكر ـ منهم طبعاً أدونيس وسلامة موسى وإخوانهم كثير ـ وصار همهم الأول الاعتراض على التقاليد الإسلامية ، والسخرية بعلماء الإسلام فقط ،

---

(١) فات الكاتب أن يذكر الأحزاب الطليعية ، فهي من نعم الله التي لا تجحد !
(٢) صدمة الحداثة ص ٢٤٠ عام ١٩٧٩ .
(٣) الخطاب العربي ص ٦٥ .

وقد يضاف لهم أساتذة اللغة العربية ، والمسرحيات في هذا كثيرة و« الشيخ متلوف » صار علماً في كثير من وسائل الإعلام ، لكن لم نسمع أحداً يذكر القسس مثلاً أو الحاخامات ، فهؤلاء لهم « قدسية » والهجوم كله على « الشيخ مقلوف » ومدرس اللغة العربية المسكين .

جل « المتغربة » يحمل ثقافة هجينة بعضها غربي والبعض عربي إسلامي ، وهؤلاء يسيطرون يوماً بعد يوم على الساحة الفكرية والثقافية ووسائل الإعلام ، وهم يسبغون قدراً من الشرعية على عملية التفكيك والتجزئة والانسلاخ في مجتمعاتنا ، وتقدم لهم خدمات « مجانية » هنا وهناك .

أذكر أن شاعراً عربياً هوايته اللعب على الحبال ، قفز من الماركسية إلى « الوحدوية » وانتهى بالتصوف ، ونظراً لهذه « البهلوانية » فقد عين سفيراً في إسبانيا ، وله قصائد جلها من « المجترات » ولا جديد عنده ، ومع ذلك تترجم قصائده إلى (١٢) لغة من لغات العالم ، وتنشر في كل مكان ، على حين نجد شعراء جيدين لا يجدون صحيفة تنشر شعرهم ، ولا دار نشر تعينهم على طبع ديوان ، والسؤال : كيف يجتمع الشتاء والصيف تحت سقف واحد ؟ أفيدونا مأجورين ، وعلمونا يا مستأجرين !

يرسم المستشار طارق البشري : صورة لما تعانيه مجتمعاتنا من « ثنائية » غريبة فيقول : (... إلى جانب الفكر الديني قام الفكر العلماني ، وإلى جانب التعليم الديني قام التعليم الغربي ، وإلى جانب الحكم الفردي قام النظام النيابي الحديث ، وإلى جانب النظم التقليدية في الإدارة قامت الإدارة الحديثة ، وإلى جانت نظام الإنتاج الفردي والحرفي والعائلي والمهني ، قام نظام الشركات والصناعات الحديثة ، وهكذا الحال في الأحياء السكنية والمساكن والملابس والمآكل)[1] ا . هـ .

(١) نحن والموروث والوافد ، نقلاً عن الخطاب العربي ص ١١٦ .

قد يقول إنسان هذه ظاهرة صحية ، فكل المجتمعات تشهد اختلافات بينها ، وتعدد الآراء لا بد منه .

إن هذه الاختلافات ـ عندنا ـ تشق المجتمع عمودياً وتقسمه إلى مجتمعات متناحرة لا تتفق على شيء ، وكل من يستلم السلطة يحاول مسح الباقين والزج بهم في السجون والمعتقلات ، وهذا هو جل ما يقع اليوم في بلادنا العربية والإسلامية .

لقد انقسمنا يوماً إلى شيعة وسنة ، خوارج ومعتزلة ومرجئة وقدرية ، ولكن ظل هناك سقف مشترك ، وقدر يمكن التفاهم عليه والاجتماع حوله ، أما اليوم فالخلاف أكبر ، وأضرب مثلاً بنظام عربي يواجه معارضة من جماعتين كل واحدة تتهمه بنقيض ما تتهمه الثانية ، الأولى تقول إنه إسلامي في الشكل والصورة فقط وتطالبه بمزيد من التطبيق الإسلامي والالتزام .

المجموعة الثانية تعارض النظام وتقول بأنه يتجاوز الحدود في تطبيقاته للإسلام ، ويبتعد عن العصر ومتطلباته . ولا بد من البعد عن الإسلام ، والتوجه نحو التحضر والتحديث .

النظام واحد ولا يعقل أن تصدق فيه اتهامات الطرفين ، فهذا يتهمه بعدم الإسلامية وذاك يتهمه بالإغراق في الإسلامية . . .

وقل مثل هذا في بعض الأنظمة القومية ، فستجد من يتهم النظام بالتسيب واللاقومية ، والتنكر لكل المتطلبات القومية ، على حين يتهم نفس النظام بالشوفينية والتزمت القومي ومحاولة هضم حقوق القوميات الأخرى .

ولا يعقل صحة الاتهامين في وقت واحد .

يعلق المستشار البشري على هذه الثنائية الغريبة فيقول : (لا يقوم بها عصر مخالف للعصر الأوروبي وإن واكبه ، ولكن يقوم بها عصران مختلفان في مجتمع واحد ، وبها ـ أي : بالثنائية ـ يختل النسق

الاجتماعي وتتضارب معايير الاحتكام والشرعية)[1] .

أما سعد الدين إبراهيم فنظر لهذه الثنائية وماذا تعني بالنسبة للتقاليد الجديدة فقال : (كان بمثابة القتل البطيء ـ هذا للقديم ـ وإن لم يكن الاغتيال ، وولادة الجديد كانت بمثابة الولادة القيصرية المتعسفة لأجنة غير مكتملة النمو ، وإن لم تكن مشوهة عضوياً)[2] وإن العملية تبدو لي ـ على الأقل ـ أشبه بلعبة شد الحبل بين قوتين بينهما نوع تكافؤ ، والنتيجة ستكون صرف مجهود دون نتيجة ، اللهم إلا أن تنتهي اللعبة بقطع الحبل :

العالم من حولنا يتقدم ويتقدم ونحن نراوح ونراوح ، خرجت ألمانيا واليابان منهزمتين من الحرب العالمية الثانية ، ودمرتا اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً ، وخلال عقدين تجدد كل شيء ، وبعد عقدين آخرين تقدمتا على الدول الغالبة . ودفعتا بها إلى الدرجة الثانية أو الثالثة .

وهذه الهند وكوريا الجنوبية تزحفان إلى الأمام ولو ببطيء ، أما نحن فنراوح ، ونشتغل بلعبة الحبل أو شد « الشعر » ونكتفي في أحيان كثيرة بنقد الماضي وأهله ، كما يكتفي البعض منا بالتصفيق لسقوط الشيوعية ووفاة « الاتحاد السوفياتي » وكأن ذلك يعني بالضرورة نجاحنا وتقدمنا .

البعض منا يلبس « نظارات سوداء » ، فلا يرى في العالم إلا الفساد والنهب والسلب واستشراء الأمراض البدنية والنفسية والعقلية .

باختصار كنا أمة « تعبانة » فصرنا شعوباً « كحيانة » كنا بالأمس ننازل عدواً خارجياً ، واليوم نسيناه واشتغلنا ببعضنا ، كنا نحلم بالعزة والكرامة والهوية ، فصار حلمنا أن ينتصر بعضنا على بعض ثم يهمشه

---

(١) المصدر السابق

(٢) المرجع السابق ص ١١٧

ويقصيه بعيداً .

كنا نرص الصفوف لنحارب العدو الصهيوني الذي زرع ظلماً وعدواناً في وسطنا ، واليوم نهادن هذا العدو ونتقاتل داخل حدودنا وأوطاننا .

فيا أيها الحاكم الراكض خلف الصلح مع إسرائيل ، هلا تصالحت مع شعبك وأوقفت نزيف الدم ؟ أم أسد علي وفي الحروب نعامة ؟

يتحدث برهان غليون في « المسألة الطائفية » عن صراع العامة والنخبة الجديدة فيصورها مع دوافعها على الوجه التالي : (كانت العامة تراهن في سبيل فرض « الاستسلام » على الفئات الجديدة الممتازة ، والتي تهدد باحتكار السلطة والخبز معاً ، تراهن على إمكانية وقف تطور هذه الحركة « التغريبية » وتعلن من أجل ذلك ما يشبه الحرب المقدسة ، ضد أولئك الذين أصبحوا يمثلون حصان طروادة ، أو القناة التي يأتي منها الشر ، ولذلك ما كان للعامة وهي تشهد خيانة السلطة ، وانفراط عقد الأخوة إلا أن تلجأ إلى الأولياء والقديسين ، وتحتمي وراء النصوص المقدسة)[1] .

وهذا أمر عام في البشر لا يخصنا وحدنا ، فمن يشعر بالقهر وتسلط غيره عليه ماذا يعمل عادة ؟ يلتجىء إلى قوة تسانده وتحمي ظهره ، قوة من الدنيا ، فإن لم يجد ، طلبها من الغيب ، فإن لم يجد راح يحلم بمهدي يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت ظلماً .

لقد شعرت جماهير كبيرة في أمتنا ، وهذا الشعور يكبر اليوم ويتعاظم بالقهر والاقتلاع والسطوة ، من قبل من يدعون وكلاء للتمدن والتحضر ، هذه القسرية التي يحملها الغرب وينادي بها ، أو تحملها نيابة عنه مؤسسات وعقائد ومثقفون وعساكر ، في مقابل هذا قامت كراهية وسلبية لكل ذلك ، ولمن يحمل الراية ، ثم راحت جماهير كبيرة

(١) الخطاب العربي ص ١١٧ .

تنكفي على مقومات هويتها ولحمتها التاريخية ، من هنا رأينا العودة للحجاب وتوبة الفنانات ، وامتلاء المساجد بالمصلين ، وكثرة عدد الحافظين لكتاب الله . . . في بلد عربي منكوب بحزب طليعي هو والطاعون والإيدز سواء ، حاول الحزب أن يجس النبض ، وهو يعيد التجربة مرة ومرات ، حاول أن يتعرف على إيمان شعبه وحبه للإسلام ، فسمح بمدينة صغيرة بفتح مدرسة لحفظ القرآن ، فهاله أن يسجل أكثر من سبعة آلاف بين طفل وطفلة وامرأة ، في هذه المدرسة ، وخلال أيام فقط ، جاء الجواب بغلق المدرسة فوراً .

إن الغرب الذي حجم الكنيسة ، وفرض العلمنة ، وأقصى الدين ، جعل من الدولة كل شيء ، ولكنه خفف من الوطأة بتبني الديموقراطية ، والتعدد في الحزبية ، ومراقبة الحكومة ، عن طريق المجالس النيابية والصحافة ، ولكنّه حين نقل التجربة إلى عالمنا لم ينقلها كاملة ، فصارت الدولة عندنا غير الدولة عنده ، وصار من يصل إلى السلطة عندنا لا يتركها ، فمبدأ التداول مرفوض ، وهو جوهر الديموقراطية هناك ، حتى الأحزاب عندنا غير الأحزاب هناك ، أما المجالس النيابية فقامت عندنا على التزوير ، وأحياناً نستقدم خبيراً أو « خبيثاً » ليضع لنا نظاماً مفصلاً ، وليعلمنا كيف نزور الانتخابات ، وبعضنا لا يقبل أن يفوز بأقل من ٩٩,٩٪ .

فماذا عملت أو تعمل جماهيرنا في مثل هذا الوضع ؟ إنها غير قادرة على قبوله والاعتراف به ، ولكن وجود القوة العسكرية والمالية والتشريعية بيد الحكومة ، لم تكن تسمح بأكثر من الرفض « السلبي » مع الانكفاء نحو الماضي والتمسك بالتقاليد والقيم ، فهذا هو السلاح الوحيد الموجود والمسموح به ، فإن حاز بضعة أنفار مسدساً وبضعة سكاكين وقدراً من العصي ، أُلقي القبض عليهم وخرجت صحف الحكومة تلطم الخدود وتشق الجيوب ، وتنادي بالويل والثبور ، لا لأن

إسرائيل قتلت أطفالاً ، أو دفنت شباباً في الطين أحياء ، أو قتلت شاباً فلسطينياً تحت التعذيب ، أو اصطادته في شوارع نابلس أو القدس ، كما تصاد العصافير ، ليس هذا ولا قريب منه ، إنها « مؤامرة » ، ثم يساق الشباب وبعد حفلة مناسبة من التعذيب تفرج عنهم المحكمة لعدم وجود أدلة كافية ، تتكرر هذه العملية كل بضعة أشهر ، وفي كل مرة تتبرع الصحافة بتصوير أداة التآمر ، ويقول بعض الخبثاء إن الأدوات لا تتغير ، ولكن العرض والمكان يتغير .

وعلق بعض الفنانين على ظاهرة التآمر واكتشاف المؤامرات فقال : في العالم يكتشف الناس المعادن والنفط وعندنا لا نكتشف سوى المؤامرات . فإن تركنا « اللعبة » جاء الشيطان الغربي ليكشفها نيابة عنا ، والويل لمن لا يصدقه .

وما أجمل تلك الصورة التي يرسمها « حسن الضيقة » لمغزى الخروج على السيد المستعمر ، والرضوخ له (الخروج على المستعمر هو تاريخ التواصل مع « الشرع » وتاريخ الرضوخ والإذعان والتماهي بالمستعمر ، هو تاريخ الخروج على « الشرع »)[1].

والتاريخ ذاكرة وسوف يسجل - رغم كل التزويرات - من يقف إلى جانب السيد المستعمر ويمنحه الشرعية في نهبه وسرقته ، ومن يقف في المعسكر الآخر رافضاً أن يكون عبداً بعد أن ولدته أمه حراً ، رافضاً خدمة السيد وتسهيل السرقة والنهب ، في مقابل أن يكون وكيلاً لشركة أو مندوباً عن وكالة ولو دولية . . .

نعم لقد استنفر الغرب قواه وتعاون مع تلاميذه وعشاقه ، لكي يفصل بين السياسة والشريعة ، ولكي يحول دون التحام المغلوب بمصدر قوته ، وليقذف باليأس في النفوس فلا تتاوم مشاريعه .

إن المواجهة مع « التغريب » تنوعت واتسعت ، ويمكن القول

---

(١) المصدر السابق ص ١١٩ .

بأنها شملت كافة ميادين الحياة من الصغير إلى الكبير ، وليس أمام من لا يملك القوة إلا أن يتحصن ويتخندق ، والمغلوب قد تنمو ردة فعله مع الأيام ، فتأخذ شكل ممارسة نظرية أولاً ، وعملية بعد ذلك ، ومع الأيام تزداد المواجهة بين الغالب والمغلوب ، والله غالب على أمره .

إن المغلوب يبني في العادة فكرة أو عقيدة ، بهدف أن يتحصن بها مجتمعه ، ويحاول ما استطاع أن يتميز عن الغالب ، قد يأخذ الموضوع صورة تعصب ، فترفض حضارة الغالب وملابسه ، ونمط حياته وثقافته ، وكل ما يمت إليه بصلة ، والهدف التميز وإثبات « الغيرية » ، وقد يتعدى الأمر إلى حلفاء الغالب ومن يتعاطف معه ، وربما وصلت بعض مجتمعاتنا إلى هذا الموقف ، فهي لم تعد ترفض الغرب فقط ، بل كل حليف له أو ممثل لثقافته أو قيمه ، وقد يتحول الأمر إلى قطيعة ، كتلك التي دعا إليها غاندي في الهند ، والتي كان يتبناها بعض العلماء وتلاميذهم في الهند . وأختم هذا بقول الحق ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ المجادلة/ ٢١ .

فيا قوي ويا عزيز نحن نلوذ بك من قهر الجبارين ، ونبرأ من التحالف مع الأعداء ، نرفض أن تكون قبلتنا بعيدة عن مكة ، وأن تكون صلاتنا لغيرك ، وأن يكون حبنا وموالاتنا لأعدائك . سنبقى نذكر « الضالين » ولا ننسى أبداً « المغضوب عليهم » فكن معنا وثبتنا يا قوي يا عزيز .

* * *

الفصل الثالث

محاولة في تحديد مصطلحات

تمهيد :

يتضح لي مع الأيام غموض بعض المصطلحات أو عدم دقتها ، أو تحميلها « قيماً » ليست منها ، يحصل بعض ذلك بسبب اللغة حيناً ، وأحياناً بسبب من قصور في ثقافة المترجم ، لكن الأسوأ من كل ذلك أن تتدخل الأهواء والأغراض فتحرف المصطلح أو تبعده عن معناه أو تحمله ما لا يحتمل كنت أقرأ في قاموس « المنجد » فوقفت عند لفظ « الطُلقاء » ، فإذا هو يشرحها بقوله : (الذين أُدخلوا في الإسلام كرهاً) .

وفكرت في قوله عليه الصلاة والسلام ، وهو يخاطب أهل مكة (اذهبوا فأنتم الطلقاء) فإذا المعنى ينقلب معكوساً .

هنا لم تكن اللغة قاصرة ، ولا ثقافة الكاتب ، ولكنه الهوى والغرض وعدم احترام القارىء .

كثير من المصطلحات بحاجة إلى ضبط ، أو طرح لبعض المعاني التي ألصقت بها ، حتى يستقيم المصطلح ، فلا يحمّل مالا يحتمله .

إلا أن الأعجب من كل ذلك ، أن يكتب عربي إلى العرب فيذكر المصطلح كما هو في لغته الأم ، دون أن يكلف نفسه ترجمته أو شرح معناه .

وهذا (الفصل) محاولة لضبط بعض المصطلحات ، كثيرة الاستعمال والدوران ، فعسى أن أكون قد وفقت في ضبطها وتحديد معناها .

التنمية

هناك تنمية ، وهناك تنمية اقتصادية ، وتنمية سياسية .

والسؤال : ما هي التنمية أولاً وما المقصود بالتنمية الاقتصادية والسياسية ؟. الباحث لا يجد تعريفاً علمياً جامعاً مانعاً ، ولعل من الإنصاف القول بأن الكثير من المصطلحات تستعمل وتشيع وتتداول ثم يأتي تحديدها وتعريفها متأخراً .

إن مصطلح « التنمية السياسية »[1] قد ترجم ونقل فأفرز مباحث وآثاراً ، شأن كل منقول فكري ثقافي يولد في مكان وفي أحضان ثقافة ، ثم ينقل إلى مكان جديد وثقافة أخرى ، وعادة ما يتم النقل في إطارين لفظي ومعنوي ، ومن الأول مسميات الأشياء ، هذه طائرة وذاك هاتف وهكذا ، أما النوع الآخر فيأتي النقل محمّلاً بمضامين عقائدية وفكرية .

الأول يكون عادة لفظ بلفظ وجملة بجملة ، أما نقل المعنى فيشمل ما وزاء النص ، وما يحف به وبما يوحيه ، وهذا يتطلب معرفة جيدة ودقيقة باللغة المنقول عنها ، واللغة المنقول إليها ، مع الإحاطة بالفكرة ثم هضمها بشكل جيد ، ليتيسر بعد ذلك نقلها محملة بكل ذلك . وهنا تتدخل ثقافة الناقل والمترجم ووجود استعمالات لغوية مماثلة ، لقد ترجم البعض معاني القرآن إلى الإنكليزية فلما أراد نقل معنى قوله تعالى ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ والآية في الزوجات والأزواج وما يمثله كل طرف بالنسبة لصاحبه ، جاءت الترجمة (هن بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن) ولا أشك أن من يقرأ ذلك سيقول : لماذا

(١) نظريات التنمية السياسية المعاصرة / د . نصر محمد عارف / المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن .

البنطلونات بالذات ؟!

وعند نقل معنى قوله تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ جاء النص : (In the aftar noon) ومن يقرأ سيتساءل : ماذا حدث بعد الظهر ؟.

وقد حاول التركي أن يترجم معنى قوله تعالى ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً . . . ﴾ فلم يجد في لغته صيغة للنفي سوى (سز، يوك) تلحق بآخر الكلمة وتفيد النفي ، ولكن النص التركي جاء منافياً للأدب ، بل شتيمة حين يقال : (حياسز أو حيايوك) والمشكلة هنا في اللغة وليس في الفهم ، وقد ذكر العقاد أن مستشرقاً أراد تفسير قوله تعالى : ﴿ . . . فتيمموا صعيداً طيباً ﴾ فقال : تيمموا اقصدوا ، والصعيد جنوب مصر ، فصار معنى الآية إذا أردتم الصلاة ولا ماء عندكم فاقصدوا صعيد مصر ، فهنا الإشكال جاء من سوء الفهم .

وأقبح من كل ذلك هو سوء القصد ، ومثاله ما قاله مستشرق أن الرسول عليه السلام كان يلقب بالأمين ، ولكن ليس لأمانته ولكن لأن أمه اسمها (آمنة) .

وعند الترجمة من اللاتينية لنص في التوراة يقول الكاثوليك (خلق الله الحياة وكانت روحه ترف عليها) وذات النص ترجمه البروتستانت (خلق الله الحياة وكانت الرياح ترف عليها) والفرق بين : روحه والرياح كبير جداً ، ولكن كل طرف اختار ما يناسب معتقده .

إن النقل والترجمة من لغة إلى أخرى ، ومن محيط ثقافي إلى محيط مغاير ، كل ذلك يظهر الصعوبات فإذا أضيف لذلك قلة المعرفة أو سوء القصد ، أو قصور اللغة ، أدركنا طبيعة القضية .

إن الكتابات العربية في « التنمية السياسية » تابعة ومقتبسة من الغرب دون تحرج أو نقد ، ومع عدم الأخذ بنظر الاعتبار باختلاف النظم والقيم ، ولا مستوى التطور .

ويبدو أن التنمية الاقتصادية كانت سابقة على التنمية السياسية ، فالأخيرة ولدت ـي الستينات من هذا القرن ، ونظراً لحداثتها فلا نجد تعريفاً متفقاً عليه ، بل لكلٍ تعريفه ولكل تعريف منطلق وملحظ يختلف عن غيره .

ويمكن تعريف التنمية السياسية بأنها عملية تغيير اجتماعي متعدد الجوانب ، هدفها الوصول إلى مستوى الدول المتقدمة .

أو تحقيق نقلة حضارية تصير الأمة فيها قائدة لا مقودة ، وفاعلة لا منفعلة .

والسؤال من أين البداية ؟

من إصلاح المنهج ؟ أعتقد أن أحداً لا يجادل في أهمية المنهج الذي يختطه المفكر أو الكاتب لنفسه ، وكذلك الجماعة والأمة ومن ثم فإصلاح المنهج ينبغي أن يعتبر من الأولويات والمسائل الكبرى .

إن أمماً عدة وشعوباً كثيرة ضاعت في دروب التاريخ ، ومن أجل أن لا يصيبنا ما أصابهم ، فلا بد من وسيلة تنقلنا مما نحن فيه ، وتأخذ بأيدينا نحو التقدم والريادة .

والتنمية تشكل منطلقاً فكرياً هو من عداد المنطلقات « العقدية » التي تضبط وتوجه مسار الأمم ، في ميادين البنية الاقتصادية ، والثقافية معاً ، وفي كل ذلك يكون الاهتمام بالتطوير السياسي ، أما الهدف النهائي فهو التحول الحضاري المنشود .

وحيث أن السياسة تشرف على المصالح العامة ، وهي مرشد لها ، لهذا فهي إما نقطة إصلاح أو فساد ، فبصلاح السياسة تصلح الكثير من الأمور ، وبفسادها يتعاظم الفساد ويتسع نطاقه .

يلاحظ أن الترجمة والنقل في العلوم غير الإنسانية تخلو إلى حد كبير من الحساسية ، وبالتالي يسهل أو يقبل تبادل ألفاظ مثل تنمية البستنة أو تطويرها أو تحسينها أو تهذيبها ، ولكن هذا التساهل في العلوم

الإنسانية غير مقبول ، وذلك للحساسية ، لنأخذ مثلاً « التنمية » Development فإن مقابلها في اللغة العربية يمكن أن يكون عدة ألفاظ منها : الإنماء والتنمية والتطوير ، ولنأخذ الثقافة فهي في الأصل الإنكليزي تعني تنمية الأرض بالنبات ، وفي اللغة العربية تأتي بعيدة عن ذلك فهي تعني التسوية ومد العقل بالعلوم والمعارف ، وكذلك العلمانية فهي في الأصل الغربي تعني فصل الدين عن الدولة ، ولا علاقة لها بالعلم .

أمر آخر إن اللفظ في اللغة له إيحاءات خاصة ، فحين ينقل إلى لغة ثانية يفقد تلك الإيحاءات والظلال ، أو تكون حفت به بعد النقل ظروف تجعله يُقبل أو يُرفض ، فلو خيرت مسلماً بين (الحداثة والعصرنة والتغريب) لاختار الحداثة أو العصرنة ورفض التغريب ، لأنه حُمّل بمعاني أو ظلال صارت مكروهة أو غير مقبولة .

إن أمتنا وهي تتطلع للنهوض راحت تقتبس العلوم الإنسانية ، ولو فعلت كما فعل اليابانيون فتوجهت للعلوم الطبيعية والميكانيك ، وتركت العلوم الإنسانية ، لسجلت تقدماً كبيراً ، ولكنها ركزت على العلوم التي تدرس الظواهر الاجتماعية ومسارات التقدم ، حتى احتلت أغلب مقررات الجامعات الحديثة ، وربما كان الدافع التعرف على وسائل التقدم .

لكن الذي حصل عندنا هو تجريد هذه العلوم من ملابساتها الفكرية والسياسية والعقائدية ، وحتى الأحقاد والأطماع ، ولم ينظر إلى مدى اصطدامها أو موافقتها لما عندنا من عقيدة أو قيم ، وهي اليوم جل ما نختلف فيه بيننا ونفترق .

العلوم الإنسانية حمّلت عندنا أبعاداً يقينية ، ربما أكثر مما هي عند الغرب ، وصار ينظر إلى نتائجها وتوجهاتها نظرة تعظيم وإكبار ، وصار هم المشتغلين منا فيها أن يلم بالنظريات ، ويجتهد في شرحها وطرحها

وتحسينها والترويج لها ، بل صار التمكين لها وقبولها هو علامة التقدم والحداثة ، وتوشك أن تصير مقياساً للكفاءة ، وربما تحولت من وسيلة إلى غاية .

النخبة الحاكمة في أمتنا تبنت التنمية والتقدم ، والبعض يتكلم عن الديمقراطية ، وتبحث في سجل حياته ، فلا تجده من العلماء ولا من القراء ، ويعجب الإنسان من أين جاء له ذلك . ومثل هذا حدث لعسكر الانقلابات ، فبقدرة قادر صاروا فلاسفة ومنظرين ومؤلفين واشتراكيين ، وهم في الأصل عسكر فاشل ، لم يثبتوا لأنفسهم جدارة ، فمن أين جاءتهم هذه الإمكانات العجيبة ؟

إن التحديث في أمتنا أفرز تبعية عمياء في الخارج وتوسع لسلطات الدولة على حساب المجتمع ، فضاقت قنوات الحرية والحركة في مكان ، وربما انعدمت في آخر .

أما المجتمع فقد انقسم إلى نخبة متعلمة وعوام ، وصار المثقف عندنا أقرب للإنسان في الغرب من أبيه وأهله ، لفقدان الثقافة المشتركة والحوار ، بينما لا يفتقد ذلك مع إنسان الغرب ، لأنه قريب منه ومن ثقافته .

لذا فقد آن الأوان لمراجعة عامة ، بحيث تردم الهوة بين أطراف المجتمع الواحد ، وتسير التنمية سيراً ناجحاً ومفيداً للجميع .

إن العلم وسيلة وليس غاية ، فإن لم ينهض بالأمة فلا بد من مراجعة لمعرفة السبب .

هذه جامعاتنا العربية وهي كثيرة ، وطلبتها وهم عشرات الألوف ، ولكن ماذا أفرزت أكثر من جيوش الموظفين ؟

أين العلماء الأكفاء ، وأين المخترعون ؟

ألا يعجب الإنسان أن جائزة الملك فيصل في العلوم لم تقدم لفرد من أمتنا ، بل ظلت لرجال من الغرب يتميزون بعلمهم وإنتاجهم ؟

وعودة للعلوم الاجتماعية ، وجل نظريات التنمية والتحديث تدور في رحابها ، نجدها علوم تختزل المعرفة من جانب ، ثم تقوم بتصحيح أحكامها في المجالات الإنسانية ، من واقع تجربة محدودة ، فليس العالم كله أوروبا ، ولا كل ما حدث في أوروبا مثلاً ، يجب أن يحدث في بقية بقاع العالم ، وهذا ما سقطت فيه الماركسية ، حين تصورت أن تاريخ البشرية عبارة عن صراع للطبقات ، ابتدأ بالشيوعية الأولى ، وينتهي بالشيوعية الثانية ، وفق حتمية لا مفر منها ولا مهرب .

إن العلوم الاجتماعية نشأت في الغرب ، في أجواء حضارية ، همشت النقليات ، وضخمت وكبرت العقليات ، حتى قال نيتشه:إن العقل أكبر صنم في عالم اليوم (انظر مقال العلموية) .

لقد جعلت حضارة الغرب النقل في مقابل العقل ، وجعلت العلاقة تناقض وصراع ، وبالفعل طرد طرف ليسود آخر ، وجعلوا العلاقة بين الدين والعلم كذلك ، فقالوا :(العالم لا يكون متديناً والمتدين لا يكون عالماً) بدهية صاغها الغرب وطرحها على العالم الذي لا يسعه إلا أن يقول نعم وكفى ،

إن الغرب كان حتى الأمس يعبد الأقانيم الثلاثة : (الأب والابن وروح القدس) فثار على هذا الدين وطرح بدله أقانيم جديدة هي (العلم والتقنية ورأس المال) .

ثم صار يستعمل الثلاثة لخدمته ، فالعلم يمده بمعرفة أسرار الكون ، والتقنية تمده بوسائل القوة والسطوة ، ورأس المال يعبّد له الطريق أمام استعباد الفقراء ونهب خيراتهم ، وجعلهم سوقاً لبضائعه ومختبراً لتجاربه .

وكل من يرفع رأسه بالمخالفة يضربه بالتقنية ، ويحجب عنه المال ، ويحاصره حتى يركع . فإن كان معاكساً مشاكساً مثل اليابان ، فلا بأس بضربه بالقنابل النووية أو تهديده ليل نهار حتى يركع .

حاول الغرب تطبيق منهج العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية ، وكان الاعتراض هنا على هذا الخلط ، وقياس العلوم الإنسانية على منهاج تلك العلوم ، ومن المعترضين (اشبنجلر) صاحب كتاب تدهور الحضارة الغربية .

كما جرى الاعتراض على قياس كافة الأمم على النموذج الغربي ، نظراً لاختلاف البيئات الحضارية ، وكان اشبنجلر وتوينبي من أول من انتقد هذا القياس ، وشاركهم المفكر المسلم (جارودي) .

يؤيد توينبي اشبنجلر في رفضه اتخاذ حضارة الغرب مقياساً لسائر الحضارات ، ويعلل ذلك بثلاثة أسباب :

١ ـ حب الذات لدى الإنسان الغربي .

٢ ـ وهم فكرة « الشرق الراكد » .

٣ ـ وهم القول بالتقدم المطرد .

ويطالب توينبي بالتقويم الموضوعي لكافة الحضارات ، دون تفضيل لحضارة الغرب[١] .

لقد ساد منطق الصراع والاستقطاب والتعميم والتضخيم هذا القياس ، والهدف بسط مجموعة فكرية حضارية ، استخلصت من التجربة الغربية المحدودة نسبياً ، ليجعل منها منطقاً علمياً ، يحاول فرضه على كافة المجتمعات في العالم ، والتحكم في مساراتها وتطورها ، حتى كأن ما حدث في أوروبا يجب أن يحدث حرفياً في كل العالم ، وكانت الماركسية أكثر اندفاعاً في هذا حين قالت بالحتمية التاريخية ، ورسمت المراحل لتطور العالم حتى ينتهي بالشيوعية الثانية .

إن تحديد مدار العلوم الإنسانية ، وإعادة تأصيلها ، بحيث تستوعب الأبعاد الكلية ، لهذا العلم بحيث نكون أقرب لفهم الظواهر ،

---

(١) في فلسفة الحضارة / د . الشرقاوي ص ٢٠٦ .

كظاهرة التنمية مثلاً في واقع كواقعنا المعاصر ، وتكشف لنا عن مواضع التشابه والاختلاف ، في التجربة الحضارية للنهضة في أقطارنا العربية والإسلامية ، لنتبين مصادر القصور في تصوراتنا ـ من حيث المنهج ـ وليس بمجرد التطبيق فقط ، وهنا يمكن أن نضع اليد على الفجوات الكبيرة بين الأهداف والشعارات الجميلة ، والعواقب السيئة الوخيمة .

إن هذه المراجعة هي أفضل ألف مرة من تكريس الانفصام ، بين الأمة من جهة ومصادرها من جهة أخرى ، كما يمكن تلافي « الاستلاب » وعواقبه ، وذلك بالعودة إلى تراث الأمة وتاريخها ، لمعرفة القواعد العقلية والملّية والشرعية ، كما طرحها شيخ الإسلام ابن تيمية ، هذه المنهجية التي تؤمن بتنوع المسالك والوسائل ، مع الأخذ بعين الاعتبار بالتمايز والغايات والمقاصد .

وهذا المنهج يتميز بأنه يحافظ أولاً على القاعدة « الأخلاقية » لانطلاق الأمة من جهة ، فلا تستغرق في تكديس الآليات أو تضيع في الشكليات ، فتبقى كمن يجري وراء سراب .

إن التنمية في أمتنا قامت وما زالت ، وفق المنظور والنظريات الغربية ، ولا يجادل أحد في ذلك ، فإذا حصل فشل أو قصور فمن يتحمل ذلك ؟ المنهج أم المطبق ؟

إن المنطق والمصلحة يوجبان إعادة النظر : في جملة المفاهيم والقيم والنظريات المتداولة ، في الساحة الفكرية المعاصرة ، التي تصنّع وتؤصل ، ثم تلقي أو تلقن علناً أو سراً متخفية وراء مناهج تدعي العلمية والموضوعية .

إن هذه النظريات والمناهج نشأت وتبلورت على أيدي علماء أنجبتهم حقبة تاريخية معينة ، في غرب أوروبا وأمريكا ، وكانت أساساً تدرس واقعاً معاشاً ، وتحاول وضع الحلول له ، لكنّها عممت وتعمم ، لتشمل مجتمعات أخرى ومناطق في العالم ، لا يجمعها مع النموذج

الغربي جامع ، ومن هنا تأتي المفارقة .

قد يقول إنسان : هذه معارف عقلية ، يستوي فيها المؤمن والكافر ، كما قسم شيخ الإسلام ذلك ، لكننا نراها من الشق الثاني (الملّي) وليس من الشق الأول ، ولنضرب مثلاً بقضية إجتماعية واحدة ، فالإنسان في الغرب رضي منذ زمن أن يكون لابنته البالغة صديقاً يعاشرها ، وهو يعتبرها مريضة وشاذة إن لم يكن لها هذا الصديق أو العشيق ، وثانياً هو يقبل أن تعاشر ابنته هذا العشيق وتنجب منه الأولاد ، فإن شاء اعترف بها زوجة وإن شاء لم يعترف ، ثم يتركها إلى غيرها ، هذا النظام الاجتماعي أتراه يكون مقبولاً في مجتمع إسلامي ، ينظر إلى الزنا على أنه كبيرة من الكبائر ؟ .

قضية مماثلة اعتاد الأدب في الغرب أن يتحدث عن قضايا الجنس ، أو الأدب « المكشوف » بكل حرية ، وينشر الصور لنساء عاريات ، وجاء الفيديو ليجعل من ذلك بضاعة تنشر في العالم ، وقام التلفزيون بنشر عمليات جنسية حية إضافة للرسم والنحت ، كل هذا مقبول في الغرب ، فهل يمكن نقل ذلك إلى مجتمع إسلامي ؟ وأخيراً نوادي العراة ، أتراها مقبولة عندنا أيضاً ؟

إن العلوم الاجتماعية صُنعت في الغرب ، وهي في نظر أصحابها مطلوبة للتأثير على عمليات تحقق التغيير الاجتماعي ، ودفع عجلة التقدم للأمام ، ولو قال هؤلاء العلماء بأن هذه النظريات نافعة للغرب ، أو أثبتت جدواها ، لما ناقشهم أحد ، لكنهم يجعلونها من الحتميات التاريخية للمجتمعات البشرية كافة ، وهنا يحصل شيء غريب ، تتداخل الحجج ، وينقلب العلم من فرضيات ونظريات ، إلى أيديولوجية مطلوب نقلها وبسطها على العالم ، إن أحب أو كره .

بل يختلط العلم بالعقيدة وبالسياسة ، فلا ندري هل المطلوب أو المطروح نهضة علمية ، أم تنمية ، أم غزو ثقافي أيديولوجي ؟ كل هذا

يختلط ، وويل لمن يرفض ، إنه عدو التقدم ، رجعي يرفض النهوض ، جامد يرفض كل جديد .

هنا يبرز النقد والمنهج النقدي ليكون الحكم ، فهذا حق وذاك باطل ، وهذا نصفه حق ، ونصفه باطل ، وهذا مقبول دون شرط ، وذاك مقبول بشرط وهكذا .

البعض يريد أن يوهمنا بأن كل من يريد النقل والاقتباس ، لا يسعه إلا القبول التام ، أو الرفض التام ، وهذا ما روّج له المؤرخ البريطاني « توينبي » وقاله د . طه حسين وقاسم أمين وشبلي شميل ، وكثير من الكتاب غير المسلمين ، وهو ما يزال يلوكه البعض ، ساعة باسم التقدم ، وأخرى باسم الحداثة ، وثالثة باسم ضرورات النهضة والتنمية . . . الخ .

فإذا سألنا لماذا أخذ الغرب عنا بعض العلوم والمعارف والمناهج ، ورفض الكثير ؟ لماذا أخذت اليابان مثلاً النظم المالية والسياسية ، ولم تأخذ عن الغرب نظامه الاجتماعي ، أو حتى نظام العمل ؟ .

لماذا نعتقد ونتصور أن النهوض والتقدم والتنمية لا تكون إلا وفق نظريات الغرب وتجاربه ؟

ومنذ متى صارت النظم الاجتماعية الغربية ، هي ما أنزل الله ، وغيرها عاطل باطل ؟ .

على (كل طالب مسلم ، يتلقى العلوم الحديثة عن معلميها ، ليس بعقول متفتحة تصبو للمزيد فقط ، ولكن بقلوب مبصرة واعية يدفعها حسها الحضاري ، لتدرك ما فوق المدركات المادية والعقلانيات المجردة ، ولتفقه واقعها المتأزم . . . ولتجاوز واقع الأزمة ، وتحقق الدفع الحضاري لاستعادة موقع الأمة المسلمة ، أمة الشهادة والخيرية

والوسطية في خارطة العمران البشري، والحضور التاريخي . . .)[1] .

إن المشروع الحضاري الغربي الذي قُدم وكأنه قدر لا مفر منه ، ولا يسع أحد من أهل الأرض تجاوزه أو تجاهله ، هذا المشروع عندما التقى مع حضارات أخرى مغايرة ، ومجتمعات خارج أوروبا وأمريكا ثبت فشله ، وإن كانت هيمنته على العقول والقلوب قد بلغت حد السحر ، لقد ثبت فشل التغريب ولكن التلاميذ « النجباء » ما زالوا يبحثون عن أسباب ذلك ، ليس في المشروع ، ولكن فيمن طبق عليهم ، وهم في سبيل ذلك يدعون لمزيد من طمس الهوية ، واستدبار حضارتنا وقيمنا ، داعين لمزيد من الالتصاق بالغرب ، والأخذ عنه ، حتى للجراثيم التي في البطون كما يقول ضياء كوك ألب .

ومن عجب أن رجلاً مثل المستشرق الفرنسي جاك بيرك ، يشخص الأمر في منتهى الوضوح فيقول ـ مخاطباً الحكام ـ (استمروا في فبركة دول تقوم بوظيفة الشرطي في هذه المنطقة أو تلك ، وإقامة أنظمة تصنع في مختبراتكم ، حاولوا تطبيق الاشتراكية المستوردة أو الديمقراطية البرجوازية . . افرضوا أنظمة الحكم الغربية تحت شعار « العصرنة » أو أنظمة حضارة تحت شعار « التحرير » ، فستجدون الأفراد والجماعات يبحثون عن حقيقتهم بعيداً عن جميع محاولاتكم ، فالإسلام قريب جداً لمعظم هؤلاء ، بل هو أقرب إليهم من حبل الوريد . . . فكل سياسة ذات صفة « تبعية » مرتبطة بأي نظام سياسي يتجه يميناً أو يساراً أو بينهما ، كلها انتهت إلى الفشل ، وما نراه في العالم العربي والإسلامي ، هو خيبة أمل الجماهير الشعبية في الأنظمة ، ذات الصبغة اليسارية أو اليمينية أو اللبرالية ، لذا عادت الجماهير إلى ما تملكه من نظام أكثر ملاءمة لها وأكثر جذرية في نفوسها ، وأعني به الإسلام الذي لم يزده توالي العصور إلا تألقاً ورسوخاً . . . لقد فشلت الناصرية

(١) نظريات التنمية السياسية ص ١٩ .

وغرقت في البيروقراطية والخراب الاقتصادي ، كما فشل النظام اليميني الذي أقامه الشاه في إيران وقد غرق في الفوضى والطغيان ، وأمام فشل الأنظمة اللبرالية ، التي لم تكن سوى أقنعة لهيمنة الاستعمار الجديد ، أمام جميع هذه الحالات من الفشل ، وجدت الجماهير أن خلاصها لن يكون إلا بالعودة إلى ما هو أكثر خصوصية بها ـ وإن لم تذكر الخصوصية بالذات ـ بل ذكرت الإسلام ، كما أنها لم تذكر القومية .

والإسلام أقوى تأثيراً في النفوس من القومية ، لأنه أقوى خصوصية منها ومن غيرها)[1] ا.هـ .

هذا الوضوح نفتقده للأسف الشديد في صفوف « المتغربة » أحياءً وأمواتاً ، بينما نجده لدى مستشرق عبر البحار .

وقد سجل هذا الوضوح عدة أشخاص من خارج الدائرة الإسلامية ، وقد جمعت كل ذلك في كتاب « الصحوة الإسلامية في عيون الآخرين » .

وأستميح القارىء عذراً لأنقل له « نصاً » للمؤرخ توينبي ، يقوّم التجربة التركية الكمالية فيقول : (. . . هاهم الأتراك يحاولون ـ ولو متأخرين ـ إقامة صورة طبق الأصل لدولة غربية وشعب غربي ، وعندما ندرك هدفهم الذي رموا إليه ، لا نستطيع إلا التساؤل بحيرة ، هل يبرر هذا الهدف حقاً الجهد الذي بذلوه في صراعهم لبلوغه[2] ، من المؤكد أننا لم نكن نحب التركي التقليدي المسلم المتحمس . . . لقد استطعنا أخيراً أن نحطم سلاحه النفسي ، وحرضناه على القيام بهذه الثورة (المقلدة) ، التي استهلكها الآن أمام أعيننا ، والآن وبعد أن تغير « التركي » بتحريضنا ورقابتنا ، وبعد أن أصبح يفتش

---

(١) مجلة المجلة السعودية العدد ٥٦ عام ١٤٠١ ص ٦٠ .

(٢) خاضت الحكومة التركية حروباً ضد شعبها وفي معركة واحدة مع الأكراد قتل (٥٠) ألف شخص .

عن كل وسيلة تجعله مماثلاً لنا ، وللشعوب الغربية ، الآن نحن نحس بالضيق والحرج ، بل نميل إلى الشعور بالسخط والحنق . إن بإمكان التركي أن يجيبنا : إنه مهما فعل فهو مخطىء في نظرنا[1] ، وبإمكانه أن يردد مقطعاً من كتابنا المقدس : « نفخنا معكم في القرب فلم ترقصوا ، وحزنا معكم فلم ترقصوا ، وحزنا معكم فلم تبكوا » . . .

إن حركة المقلدين تكشف عن ضعف في :

١ ـ الحركة المقلدة متبعة وليست مبدعة ، لذا ففي حالة نجاحها ـ جدلاً ـ لن تزيد إلى في كمية المصنوعات التي تنتجها الآلة ، في المجتمعات المقلدة ، بدل أن تطلق شيئاً من الطاقة المبدعة في النفس البشرية .

٢ ـ في حالة النجاح الباهت ـ المفترض ـ وهو أقصى ما يمكن للمقلدين الوصول إليه ، سيكون هناك ـ مجرد خلاص ـ لأقلية ضئيلة في أي مجتمع تبنى طريق « التقليد » . . .)[2] ا.هـ .

أعتقد أن حديث توينبي صريح واضح ، وواقع المقلدين ـ حيث وجدوا ـ يشهد بذلك .

في القصص الشعبية أن « الغراب » أعجبته مشية الحمامة ثم رأى العصفور يقفز بخفة ورشاقة ، وحين حاول التقليد لم يحسن مشية الحمامة ولا قفز العصفور ، فجاءت مشيته قبيحة ، وكثير من المجتمعات ـ خارج الغرب ـ كانت « غرابية » الهوى والتطلع ، فخسرت ما عندها ولم تربح شيئاً مما لدى الغرب .

يتحدث الدكتور حسن حنفي عن فشل الثورة العربية والعلمانية

---

(١) ورغم كل ما فعله التركي بنفسه ورغم العلمانية المقدسة ودخول حلف الأطلسي فهو مرفوض ولن يدخل السوق الأوروبية أبداً .

(٢) الإسلام والغرب والمستقبل ترجمة نبيل صبحة ص ٥٠ دار العربية بيروت .

لأن التغيير ، أو محاولة التغيير كانت بقرارات من السلطة ، بينما ثقافة الأمة وذهنيتها لم تتغير ، وكذلك نظمها الاجتماعية (ربما كان من أسباب الردة في الثورات العربية المعاصرة ، هي أنها حاولت تخطيط دور في المجتمع ، بتغيير البنية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، دون إحداث تغيير مماثل في مستوى البنية الثقافية والقوالب الذهنية ، فانقلبت إلى ثورة حضارة ، دون تغيير سواء على مستوى البنية التحتية (العودة إلى الرأسمالية) أو على مستوى البنية الفوقية (الحركة السلفية) ، وأصبحت الثورة المضادة على المستويين معاً تقدم نفسها كبديل حتمي للثورة العربية كلها ، وظهرت الحركة السلفية كبديل حتمي مطروح ، بديلاً للحركة العلمانية كلها ، لقد وضعت الثورة العربية المعاصرة العربة أمام الحصان ، لدى شعوب تتحكم أبنيتها الثقافية وقوالبها الذهنية ، في نظمها الاجتماعية ، وأوضاعها السياسية ، فما كان أسهل من تغيير الأوضاع والنظم ، بقرارات من « السلطة » ، مرة شرقية ومرة غربية ، مرة اشتراكية ومرة رأسمالية ، والبنية الذهنية لم تتغير ، بل ازدادت رسوخاً ، كرد فعل على تهرّؤ المذاهب العلمانية وهزائمها)[1] .

من السهولة بمكان أن تصدر السلطة أوامر بالتغيير ، والقفز من الإشتراكية إلى الرأسمالية وبالعكس ، ولكن ما مدى قناعة الأمة بكل ذلك ، وما مدى استجابتها ؟

إنه من أواخر العهد العثماني ونحن نجرب ونجرب ، إلا الإسلام ، فهو خارج الدائرة ، لنجربه مرة فإن أجدى ونفع ، وإلا أضفنا تجربة فاشلة إلى عشرات التجارب ، التي مرت وما تزال ، أم هذا داخل في دائرة « الممنوعات » ؟

وأخيراً فإن أي مشروع حضاري يهدف إلى النهوض بالأمة فلا

(١) ندوة الفكر الإسلامي في الكويت عام ١٩٨٣ م .

بد أن يطير بجناحين اثنين : الأول معرفة دقيقة بهوية الأمة وثقافتها وقيمها ، ومعطيات الواقع الإسلامي ، مع ضغوط الهيمنة الغربية ومصالحها في المنطقة .

وأما الجناح الثاني فيقوم على معرفة جيدة بالمشروع الغربي ، وقدرة على تمحيصه ونقده ، كما فعل حجة الإسلام الغزالي في دراسته للفلسفة وكتابته عنها في (مقاصد الفلاسفة) أولاً ثم في (تهافت الفلاسفة) .

لا بد من العمل على جبهتين (جبهة التنقيب والتفنيد ، وجبهة التأسيس والتعمير ، وكل منها وجوه من عمليات التسديد والتمهيد والبناء ، وهي عمليات تنطوي على النفي والإقرار ، النفي لإزاحة المعوقات وتجاوز العقبات ، والإقرار لتثبيت قواعد البناء والتشييد)[1]

لقد شهدنا المد القومي ومشاريعه ، والمد الإشتراكي وحتمياته « وفرمانات » تصدر من أبراج ، لا يعرف صاحبها عن أحوال شعبه شيئاً ، وتقدمت أمم ، ونهضت شعوب ، وقامت حروب ، ونحن ما زلنا نراوح في مكاننا ، ولولا بعض النجاح في التنمية في الخليج ، لمات الواحد منا حسرة ، أو فقد كل أمل في النهوض وتغيير الأحوال . .

فإلى المزيد من التأصيل والنقد ، وإعمال الفكر ، وبهذا وحده تتقدم الأمم وتنهض الشعوب ، ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ﴾[2] .

---

(١) تظريات التنمية السياسية ص ٣٤ .

(٢) النجم / ٣٩ .

الأصولية

لقد شاع استعمال مصطلح « الأصولية »[1] خصوصاً في وسائل الإعلام ، والكلمة ترجمة FUNDAMENTALISM وقد أطلقت ابتداء على حركة بروتستانتية ، نشطت في الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الأولى ، ولكن جذورها تعود إلى بداية القرن ١٩ ، وكانت هذه الجماعة تدعو بقوة للعودة للأصول المسيحية الأولى ، مع التمسك الحرفي بكل ما ورد في الكتب المقدسة ، والتي تبشر بعودة السيد المسيح عليه السلام .

وقد أطلقوا على أنفسهم « الإنجيليين » بعد الحرب العالمية الثانية ، ولهم جمعياتهم وكنائسهم .

وإذا ما أطلقت الأصولية في الغرب ، فهي تعني تعضيد تعاليم الكنيسة ، مع التركيز الحرفي على ما ورد في الأناجيل ، وهي ضد الكنيسة الحديثة ، المتأثرة بالعلوم والمعارف .

وتتركز أفكار الأصولية حول ستة مبادىء أساسية في نظرهم :

١ ـ إن الأناجيل هي وحي الله المعصوم من الخطأ .

٢ ـ الميلاد النقي العذري ، أو ميلاد العذراء .

٣ ـ التكفير عن الذنوب .

٤ ـ الإيمان بالبعث والقيامة كما وردت في الأناجيل .

٥ ـ قوة الإعجاز في المسيحية ، أو قوة معجزات المسيح .

٦ ـ عودة السيد المسيح .

---

(١) الأصولية في العالم العربي / ريتشارد دبكجيان / ترجمة عبد الوارث ص ١٢ ، ٢١ ومجلة « منبر الحوار » العدد ٢٥ في ١٩٩٢ ص ٢٣ .

ومن الشائع في الغرب أن « الأصوليين » لا يدخنون ولا يشربون الخمور ولا يرقصون ، ولا يحضرون العروض السينمائية أو المسرحية ، ويرفضون الإجهاض ويحاربون نظرية التطور التي جاء بها « دارون » ، ويكفرون غيرهم . والكتاب الغربيون حين يذكرون « الأصولية الإسلامية » يصفونها بأنها حركة سلفية غامضة خرافية عدوانية ، تشبه أصولية البروتستانت . إلا أنهم لاحظوا أن لا أحد من الإسلاميين يطلق على حركته هذا المصطلح .

كما لاحظوا أنها صارت تطلق على جماعات مختلفة ، في المنهج والسلوك ، ولا يجمعها جامع ، ولا وصف واحد .

إن مصطلح الأصولية محمّل بمعاني ، يستذكرها الإنسان الغربي ، بمجرد أن تطرق سمعه ، وفيها الكثير من التحريض والإساءة ، فما وجه الشبه بين الحركات الإسلامية والأصولية البروتستانتية ؟ لا شيء سوى عودة كل إلى أصوله ومصادره .

وقد كتب د . إيان لوستك ـ علوم سياسية أمريكي ـ « الأصولية اليهودية في إسرائيل » فعرّف الأصولية بأنها (نمط من العمل السياسي يتسم بعلاقة وثيقة جداً ومباشرة بين عقائد الإنسان الأساسية وبين السلوك السياسي ، المصمم على تحقيق تغيير جذري في المجتمع)[1] ثم يتحدث عما أحدثته الأصولية اليهودية فيقول : (والحق إن الأصولية اليهودية قد أدت إلى رمي الدولة اليهودية في نزاع حقيقي ، بين السلطتين المدنية والدينية ، نزاع يضع تقاليد الاشتراكية الديمقراطية بالبلد في مواجهة مخاطر لا سابق لها . . .)[2] .

وذكر د . إيان أن بعض الأصوليين اليهود ومنهم رجل اسمه « يهودا عتسيون » اتهم بالاعتداء على رؤساء بلديات عرب ، وعلى

---

(١) الأصولية اليهودية ص (١٠) .

(٢) المرجع السابق ص (٧) .

الكلية الإسلامية بالخليل ومحاولة تفجير الأقصى ، وقد أقر بكل ذلك معتزاً ، وقد تحدى المحكمة في تجريمه قائلاً : إنه ورفاقه تلقوا تكليفاً شخصياً من الله بتعجيل عملية « الخلاص » وتطهير جبل الهيكل ، موقع قدس الأقداس ، ويعني قبة الصخرة[1] . هذا نموذج لأصولية يتعامى عنها الإعلام الغربي ، ومن ثمارها مجزرة الخليل في رمضان .

* * *

(١) المرجع السابق ص (١١٢) .

التقدم

التقدم : يقول ابن منظور : القِدَم : العتق وهو نقيض الحدوث والجمع قدامى وقدماء . وفي قول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : . . . الرجل وقِدَمه والرجل وبلاؤه أي : سبقه في الإسلام وأفعاله . وقدّام : نقيض وراء . والقُدُم : المضي أمام . وهو يمشي القُدمية والتقدمية : إذا مضى في الحرب ، ومضى القوم التقدمية : إذا تقدموا . ويقال مشى فلان القُدمية والتقدمية : إذا تقدم في الشرف والفضل ، ولم يتأخر عن غيره ، في الإفضال على الناس . والقَدْم : الشرف القديم ، ولفلان عند فلان قَدَم : أي : يد ومعروف ، ورجل مِقدام : جريء في الحرب[1] .

ويأتي التقدم على أربعة أوجه[2] :

١ ـ قديم مقابل الحديث .

٢ ـ متقدم على غيره ، أي : أشرف منه .

٣ ـ ما لا يصح وجود غيره إلا بوجوده ، مثل الواحد متقدم على العدد .

٤ ـ السبق بالقول أو العمل .

ويعتبر « التقدم » أحد المفاهيم الأساسية في نظريات التنمية السياسية ، ومع ذلك لا نجده يستعمل استعمالاً واحداً ، وقد ذكر فهمي جدعان[3] عدة استعمالات لهذا المصطلح منها :

١ ـ الحصول على أكبر قدر من اللذة الدنيوية .

---

(١) لسان العرب ١٢/٤٦٥ ، والمحيط ص ١٤٨٠ .

(٢) المعجم الوسيط ٢/٧١٦ .

(٣) أسس التقدم عند مفكري الإسلام / المؤسسة العربية للدراسات ص ٦٤ .

٢ ـ انتشار ديانة معينة وتحقيقها لإنجازات سريعة .

٣ ـ غزارة في الإنتاج الاقتصادي ، والتوسع في استغلال مصادر الطبيعة .

٤ ـ التحرر من قيود التقليد .

٥ ـ الاقتراب من حالة علمية للإنسانية .

٦ ـ الاقتراب من حالة مثالية ، يمحو فيها استغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

ومنذ العهد اليوناني تبنى بعض المفكرين فكرة مفادها أن الحضارة تسير في تقدم مستمر ، وكل مرحلة تأتي تكون أفضل من سابقتها وعلى ذلك فحضارة اليوم خير من حضارة الأمس ، وحضارة الغد ستكون أفضل من حضارة اليوم .

وقد تلقف « هيغل » (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) الفكرة ليجعل منها نظرية يفسر بها التاريخ وحركته ، وهو ما أطلق عليه « الديالكتيك » فكل فترة أساسية ، تنمي فكرتها إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها ، ويستمر الصراع هكذا حتى تتحد المتناقضات في وحدة عليا « الموحد أو الجامع » يكون أفضل من الفكرة ونقيضها ، ثم ينحل ليتولد عنه فكرة جديدة ونقيض ، وهكذا يستمر الحال حتى تصل الفكرة إلى المطلق » الذي يخلو من كل تناقض وصراع[١] .

وقد تبنى هيغل ـ بناء على ما تقدم ـ وتابعه الماركسيون ، بأن كل عهد يأتي ، ومثله الحضارة ، يكون أرقى وأفضل من سابقه ، ويشكل خطوة إلى الأمام ، بل ذهبوا : إلى أن الحضارة في رقي دائم ، لا سبيل إلى مقاومته[٢] .

والإنسان يتمنى صحة وصدق مقولة هيغل والماركسية في تقدم

---

(١) تاريخ الفلسفة / يوسف كرم ص ٢٧٥ .

(٢) في معركة الحضارة د . قسطنطين زريق ص ٢٩١ .

الحضارة ، ولكن الواقع لا يشهد بهذا ، فبعض مكونات الحضارة يتقدم ، والبعض واقف ، ومكونات أخرى تتأخر[1] ، ولتوينبي شهادة مشهورة معروفة في ذلك .

كما تبنى « بيكون وديكارت » فكرة التقدم . ففي أواخر القرن ١٧ عندما اشتعل جدل بين أنصار القديم والجديد ، ومن أجل أن يدعم أنصار الحديث موقفهم ، راحوا يقولون بأن أنصار القديم يقعون في وهم كبير حين يعتقدون أن من سبقهم كانوا أرجح عقلاً ، بينما نلاحظ أن الإنسان كلما كبر نضج وزاد حكمة ، وكذلك الإنسانية ، فهي تسير دوماً نحو « التقدم » . ابتدأت الفكرة أولاً « بالأدب » لكنها سرعان ما تحولت إلى السياسة وعلم الاجتماع ، والفنون والفلسفة والتاريخ وتفسيره .

وهذه الفكرة هي التي مهدت لفكرة « التطور » ، وقد ساعدت الكشوفات العلمية ، وما استقر ـ آنذاك ـ من قدرة العلم على حل جميع المشاكل ، وكشف جميع الأسرار ، ساعد على نمو الفكرة وانتشارها . وقد واجهت النظرية الكثير من النقد والتجريح وما تزال . كما طرح البعض نظرية معاكسة مفادها : أن التاريخ يسير بحركة ناكصة ، فالشرور تتعاظم ، والقيم والأخلاق في تدهور ، والحروب مشتعلة ، والحرية تذوب يوماً بعد يوم . ولعل « ألبرت شغيتز » أكبر المنادين بها .

كما نجد نوع تأييد لها عند اشبنجلر وتوينبي وآخرين . إن القائلين « بالتقدم » خصوصاً في مجال « التنمية » جعلوا من الدول الغربية مقياساً ومعياراً للتقدم والتأخر ، على أساس أن هذه الدول تمثل نموذج « التقدم » وبالمثل فإن الدول الآسيوية ـ باستثناء اليابان ـ والإفريقية ، ودول أمريكا اللاتينية هي النموذج « للتخلف » ولو وقف

---

(١) ناقشت القضية في كتاب (تفسير التاريخ) .

الأمر عند حدود « التقنية » والمنجزات الصناعية ، لهان الأمر ، ولكن القضية شملت حتى القيم والأخلاق والمكونات الشخصية ، فالمقياس في كل ذلك « النموذج الغربي » حتى بات مستقراً في الأذهان أن كل ما لدى الغرب خير وتقدم ، وكل ما لدى الآخرين شر وتخلف ، وكلما ذكر الغرب وحضارته سمعنا قصيدة غزل بالمنجزات والديمقراطية والقيم ، وكلما توجهنا لآسيا وأفريقيا سمعنا قصيدة هجاء ـ كهجاء الحطيئة ـ فهو حين لم يجد من يذمه ويهجوه هجا نفسه .

إن هجاء النفس والأمة ، وما لديها من قيم وتراث كلها صارت « صفراً » وكل آت من خلف البحر الأبيض فعلى العين والرأس .

لقد صار التقدم مسألة « شكل » وأفرغ من كل مضمون . فإذا لبست كذا ، وشربت كذا وتركت كذا فأنت متقدم وكفى !

حتى أن أديباً مثل قاسم أمين ليقول بملء الفم:(إن مصر لن تتقدم حتى تتغرب أو تتأورب) .

وأن رجلاً مثل الشاعر ضياء ألب يريد ويتمنى كل ما في الغرب حتى الجراثيم التي في البطون !

وقديماً قيل : من يهن يسهل الهوان عليه .

لقد مضى أكثر من قرن ونحن نجري خلف أوروبا ، حتى حفيت منا الأقدام ، فما هي حصيلة هذا الجري والسباق ؟

إننا مهما فعلنا فلن نكون أكثر من تابع يدور حول جرم كبير ، لا ينفك عنه ، هذا القمر يدور حول الأرض ويدور ، فهل سيكون يوماً أكثر من تابع ؟!

للمرة الألف : نعم للتقنية ولا وألف لا للقيم والأفكار المناهضة ، سواء أجاءت من الشرق أم الغرب ، فالإنسان العاقل لا يستدين شيئاً قبل أن يتأكد من رصيده وما عنده ، سيقول تجار

« التقدم » أنتم تمنعون شعبنا من التقدم بهذه الطروحات ، وتتحملون ويلات التخلف ، ونحن نهمس في آذانهم ، لا تركضوا خلف سراب ، اسألوا الأتراك ماذا جنوا ؟ اسألوهم لماذا يرفض الغرب دخولهم السوق الأوروبية ؟ اسألوا أهل البوسنة والهرسك لماذا يسمح الغرب بذبحهم واغتصاب نسائهم وقتلهم ، ولماذا يوزع السلاح هنا وهناك ويمنع في البوسنة فقط ؟

حتى الديمقراطية ، هذه البضاعة التي ينادي عليها الغرب في كل مكان ، لا يسمح بدخولها بلاد المسلمين ، ويشجع العسكر على أن يدوسوها بأحذيتهم .

* * *

التخلف

التخلف والمجتمعات المتخلفة تطرح دوماً في مقابل التقدم والمجتمعات المتقدمة ، وقد جرى تقسيم العالم إلى دول العالم الأول والثاني والثالث .

ولكن المصطلح يلفه الضباب ، ويطلق عدة إطلاقات من ذلك[1]:

١ ـ تأخر زمني عن مجتمعات الغرب ـ طبقاً لنظرية مراحل النمو ـ.

٢ ـ كل ما يخالف خصائص المجتمع المتقدم مثل سيادة الطابع الزراعي أو عدم التخصص ، أو سيادة ثقافة غير علمانية ، أو ارتفاع النمو السكاني ، أو اعتماد تقنيات بدائية ، أو انتشار الجوع والفقر ، أو سيطرة أنماط سلوكية مناقضة لسلوكيات المجتمع الغربي ، مثل الإيمان بالغيب وسيادة الثقافة الدينية .

٣ ـ التخلف ظاهرة شاملة تسيطر على المجتمع ـ غير الأوروبي ـ متعدد الأبعاد والجوانب ، تؤدي إلى محدودية النخبة الحاكمة ، ومركزية القرار السياسي ، وعدم عقلانيته ، مع سيطرة ثقافة غير ديمقراطية وغير علمانية . . . والتبعية الاقتصادية للخارج ، والاعتماد الشديد على القروض الخارجية ، وشيوع البطالة ، وضعف الميل للادخار ، وتفشي الأمية والفقر ، لدى الأكثرية الساحقة من السكان ، وانفجار النمو السكاني ، ووجود هوة عميقة بين الريف والحضر .

فإذا تفحصنا هذه المؤشرات فسنجدها عامة ، قل أن يخلو مجتمع

(١) نظريات في التنمية السياسية ، د . محمد نصر عارف ص ٢٣٦ .

منها كلها ، فالبطالة والديون ، وضعف الادخار ، توجد في الشرق والغرب . كما نجد العلمانية لدى الكثير . وأخيراً فإن مفهوم التخلف (تحكمي) غير ثابت ، وهو عادة ما يكون بالقياس للآخرين ، فمثلاً كوريا الجنوبية متقدمة جداً قياساً على الحبشة أو الصومال ، ومتأخرة قياساً على اليابان وهكذا . نريد أن نتقدم ولكن ليس نحو « التغريب » نريد تقدماً لا يسلبنا هويتنا بل يثبتها ، نريد تقدماً متوازناً مناسباً .

* * *

التطور

التطور : جرت عادة الكثير من الكتاب أن يقرن التقدم بالتطور فيقول : تقدم وتطور البلاد مثلاً ، وهكذا تختلط المصطلحات ، وبدلاً من الوضوح يسود نوع من الإبهام والغموض .

ويمكن لمن يتابع « التطور » أن يقول بوجود أكثر من اتجاه في القضية ، فهناك الكنيسة التي كانت تعتقد أن الله خلق الكون وأحكمه ، وهو سائر كلياً حسب هذه المشيئة ، فالثوابت هي الأساس ، والمتغير أو المتطور هو القليل ، وهو محكوم بالثوابت ، وهناك من يعتقد بأن كل ما في الحياة متغير متطور ، والقليل جداً هو الثابت ، وهو محكوم بالمتغير . وثمة من يعتقد بأن الحياة خليط بين ثوابت ومتغيرات .

وقد جاءت أكبر دفعة في اتجاه التطور من « دارون » ونظرياته يقول ديوي : (ونستطيع أن نحدد تاريخاً ملائماً نؤرخ به اكتمال هذه الدورة الانقلابية ، التي طرأت على الوقفة العلمية ، وذلك التاريخ هو ظهور مؤلف « أصل الأنواع » لدارون ، فعنوان الكتاب وحده كاف للدلالة على ثورة في العلم ، لأن فكرة الأنواع البيولوجية ، قد كانت مظهراً واضحاً للزعم بأن ثمة استحالة تامة على التغيير ، نعم كانت هذه الفكرة قد زالت قبل دارون في كل موضوع علمي ، إلا علم النبات والحيوان ، فقد لبثا الحصن الذي تحصن به المنطق القديم ، في مجال الموضوعات العلمية)[1]. وقد قامت حملة كبيرة بتكاتف بين أنصار دارون وأعداء الكنيسة ، للهجوم على الدين والتفسيرات التي يطرحها لخلق العالم ، وهذه الجهود وأمثالها تصب في تيار « التطور » وتباركه .

---

(١) الفكر المادي الحديث ، د . محمود عثمان ص ١٨١ .

وردت الكنيسة بهجوم مماثل فكتب أحد الكهنة البروتستانت (إذا صح مذهب دارون ، كذب سفر التكوين ، وتحطم كيان الحياة ، وكان وحي الله إلى الإنسان ـ كما يعرفه المسيحيون ـ هذياناً وأحبولة)[1] لم تبق نظرية دارون في نطاق الفلسفة ، بل انتقل المفهوم إلى العلوم الاجتماعية عموماً ، وعلم السياسة على وجه الخصوص ، وهنا زاد الغموض والإبهام ، فالباحثون في الفقه السياسي يطرحون التطور كعملية تتابع زمني متلاحق ، ثم راحوا يخلطون بين أمور كثيرة منها طبيعة التطور وأدواته ، فالتطور ـ كما هو معلوم ـ يعني الانتقال من وضع إلى آخر ، أو لنقل من نظام إلى نظام آخر وهناك أدوات تختلف من شعب إلى شعب ، ومن مكان إلى آخر كما تختلف من حيث الزمان ، لذا رفضت فكرة « أن التاريخ يعيد نفسه » كما رفضت فكرة دورة الحضارة ، إذ لكل حدث خصوصيته الزمانية والمكانية والشخصية .

إن مفهوم التطور يقوم ـ كما تقدم ـ على افتراضات كالمراحل المتتالية في حركة التاريخ والحضارة ، والتي نادى بها كل من ابن خلدون وفيكو واشبنجلر وتوينبي . بينما رفضها ويرفضها الكثير . أما القول بأن المجتمع أو الحضارة تسير بخط تقدمي تصاعدي ـ كما قال هيغل والماركسيون ـ فهو غير مسلّم[2] .

فإذا أراد « التطوريون » أن يقولوا بأن الغرب قد تقدم وعلى الآخرين السير خلفه ، وعلى نفس الخط والخطوات ، فهذا يعني انعدام الخصوصية للشعوب والحضارات ، والإيمان بالانصهار في حضارة واحدة ، وهذا أمر ليس بهذه السهولة ، ولن يكتب له القبول ، ولا من مصلحة الإنسانية أيضاً .

---

(١) الفكر المادي الحديث ، د . محمود عثمان ص ١٧٩ .
(٢) لقد ناقشت هذه المطروحات وغيرها في كتاب (تفسير التاريخ) .

ولا أريد أن أذكر بالخلافات الأوروبية الأمريكية ، أو الصينية الروسية ، أو اليابانية ـ الألمانية ـ الأميريكية ـ فلهذه مجالات أخرى ، نعم إن العالم صار « قرية » ، بفضل الاتصالات والمواصلات ، ولكن هذه القرية فيها حضارات ، وأمم وشعوب وأديان ومذاهب ، ولن يستطيع أحد أن يسوقها ـ بالعصا ـ باتجاه واحد ، ومصير واحد ، وحضارة واحدة .

إن الحياة فيها الكثير من الثوابت ، ومثلها من المتغيرات . وستبقى المتغيرات محكومة إلى حد كبير بالثوابت[1] .

وقد كذبت نبوأة « ماركس » بتحول المجتمعات الصناعية إلى الشيوعية ، فالكل قد « تخندق » في مكانه ، والشيء الوحيد الذي حصل هو انهيار الإمبراطورية الروسية ، التي ستعود إلى بعض الثوابت القديمة ، بعد أن « طلقت » المتغيرات الماركسية ، والتطلعات الخيالية الشوفينية .

وما أدري لو بعث اليوم « ماركس » وأعاد قراءة توراته « رأس المال » ، فماذا سيحذف وماذا سيبقي وماذا سيعدل ؟ إن بعض الأفكار تتاح لها فرصة تاريخية فتشرق كشهاب في السماء ، في ليل مظلم ، ثم يختفي وينساه الناس ، وكذا الحال في الحضارة ، تتاح لها فرصة فتتألق ، وتكون شابة قوية ، لا تظهر فيها العيوب والأمراض ، ولكن مع التقدم والإيغال في الزمن ، يبدأ « التألق » يخبو ويضعف ، وتأخذ الأمراض « الاجتماعية » في الظهور والانتشار ، حتى تسقط وتموت ، ولكنه في الحضارة يتطلب وقتاً طويلاً ، قد يصل إلى عدة قرون ، إلا أنه في الدولة يظهر بشكل أجلى وأسرع ، فمن منا لا يذكر قوة روسيا ، ووقوفها في وجه الغرب الرأسمالي ، وقفة الند للند ، وهي اليوم « تتسول » المال والطعام والدواء والخبرة . وأخيراً يبقى سؤال ملح :

---

(١) للكاتب بحث منشور تحت عنوان « الثوابت والمتغيرات » ١٤١٢ هـ .

نريد أن نتطور ، ولكن في أي اتجاه ؟ في اتجاه الاستقلال وتثبيت « الهوية » أم باتجاه الذوبان بالغرب ، والبقاء كتابع مدى الحياة ؟

نتطور باتجاه الاقتراب من الله ، أم باتجاه البعد عنه وعن هديه ؟
وأختم بنص للدكتور مرحبا ، فقد ذكر أن مؤتمراً لعلماء الاجتماع انعقد عام ١٩٥٦ م جاء فيه (تقرر استبعاد مفهوم « التطور والتقدم » من العلم الاجتماعي المعاصر ، لما يكتنفهما من « إبهام وغموض » ولشحنتهما الميتافيزيقية الواضحة ، التي تعبر عن نزوع الكائنات جميعاً نحو الأفضل والأكمل ، شبيه بذلك الذي نجده في الفلسفة اليونانية ، وقد رؤي الاستعاضة عنهما بمصطلح « التغييرات الاجتماعية » وهو مصطلح أكثر دقة ووضوحاً للتعبير عن الظواهر الحياتية في علم الاجتماع المعاصر ، في تميزه عن هذا العلم في القرن ١٩ ، حيث كان يقوم على فكرة « التقدم والتطور » فضلاً عن أن المصطلح الجديد لا ينطوي على أي عمق « ميتافيزيقي » .

فإذا قلنا ـ بعد اليوم ـ إن المجتمع يتطور ، وإن تطوره ذو طابع « تقدمي » فلا نقصد المعنى القديم ، وإنما نقصد مجموعة التغييرات التي أضافت إلى رصيد الإنسانية أشياء كثيرة جديدة ، لم تكن معروفة من قبل . ..)[1] ا . هـ .

أحس بأن التطور ـ عندنا ـ صار « تورطاً » كمن عطش فلم يجد أمامه سوى ماء البحر ، فراح ـ المسكين ـ يشرب فيزداد عطشه بدلاً من الارتواء .

إننا بدلاً من التقدم والنهوض أصابتنا أمراض الحضارة ، قبل أن تصلنا إنجازاتها ، وهذه الظاهرة لا تخصنا نحن فقط ، فهذا الإنسان الأفريقي مصاب بجل أمراض الحضارة ، من المخدرات إلى الإيدز ، دون أن تصله حتى الكهرباء أو سفلتة الشوارع ، لقد رأيت بنفسي عواصم

---

(١) أصالة الفكر العربي / د . عبد الرحمن مرحبا ص ٣١٩ .

أفريقية تفتقد السفلتة للشوارع والإنارة للشوارع الفرعية ، أما مجاري المياه القذرة فمكشوفة ، والبطالة عامة شاملة ، ولكن الخمور تملأ المحلات .

فبالله أهذا تطور أم تورط ؟!

* * *

التغريب

التغريب : مضى وقت كانت فيه كافة القارات مستعمرات لأوروبة ، ولولا اختلاف الدول الغربية وتضارب مصالحها ، ولولا مقاومة بعض الأمم ، لكان الاستعمار السياسي والاقتصادي ما زال حياً ، وقد سبق أن نقلت شهادة « سارتر » التي اعتبر شعوب الغرب شريكة لحكامها فيما حصل للمستعمرات من نهب وسلب ، كان من ثماره قيامَ عواصم وجامعات وكنائس وشوارع وعمائر ، كلها من أموال المستعمرات المنهوبة والمسروقة .

ولا نذهب بعيداً فحين استخرج النفط من بلادنا ، ظلت الشركات الغربية لعشرات السنين تدفع (٤) بنسات عن كل برميل نفط « تلهفه » ، وحين راحت الحكومات المصدرة للنفط تطالب بحصة عادلة ، بدأ مسلسل الانقلابات العسكرية .

وكما يقول د . عمارة[1] فإن الغرب يعمل جاهداً لنسخ حضارة « الآخرين » وطمس ملامحها الخاصة ، وتحويلها إلى هامش للمركز الأوروبي الغربي ، كي تستمر التبعية لهذا المركز ، فلا تبتعد عنه أو تنفصل .

وبحيث تصير الوظيفة الأساسية لهذه المجتمعات توفير المواد الخام ، واستقبال المواد المصنّعة ، مع تجريدها من كل أمل في تطور طبيعي أو اكتفاء ذاتي ، أو إقامة حضارة أو مشروع حضاري مغاير ، فكل ذلك ممنوع ، والويل كل الويل لذلك المشاكس ، الذي يتجرأ على مثل هذا ، فعندها ستقوم حروب ، وسيظهر قادة ، وربما تقوم ثورات

---

(١) إشكالات التغيير الاجتماعي ص ٧٢ .

وانقلابات ، حتى يكف المشاكس ويقول : اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم قنّعنا بالقليل ، أو الأقل من القليل .

بعض أبنائنا يعتقد أننا لو أخذنا مبادىء الغرب وقيمه لتقدمنا ـ كما تقدم ـ، ولكن الحقيقة تقول بأن هذا النمط من التصور والتفكير يلغي التاريخ ، كما يلغي ويسقط العلاقة التاريخية بيننا وبين الغرب ، ويتجاهل التسلسل التاريخي والاجتماعي والحياتي ، الذي عاشه الغرب ، منذ الإقطاع حتى الثورة الصناعية .

وأقرّب المسألة بمثل : فلو أخذنا أحد الطلبة الذي تخرج من الأزهر في قسم الشريعة أو العقيدة ، وطالب يهودي درس في اليمن دراسة توراتية فقط ، وطالب هندوسي تخرج من مدرسة دينية ، ونقلنا هؤلاء الثلاثة إلى جامعة كامبرج مثلاً وفي قسم الدراسات العليا فماذا يحصل ؟

وبالمثل لو أخذنا طالباً في الثانوية العامة من الولايات المتحدة ، وآخر من فرنسا ، وثالثاً ألمانياً ، وألحقناهم جميعاً في جامعة الأزهر ، في قسم السنة أو القرآن أو العقيدة ، فماذا ستكون النتيجة ؟

إن الأتراك كانوا من أكثر شعوبنا حماساً للتغريب ، وكانت السلطة الحاكمة لا تتوانى عن استعمال أقسى العقوبات لمن لا يسير بهذا الاتجاه ، وبعد مضي نصف قرن ، ولو حصل استفتاء حر فكم من الأتراك سيقبل التغريب ؟ والأهم من ذلك ماذا كسب الأتراك من ذلك[*]؟

أنا أعرف سلفاً أن هذا الكلام لا يعجب « المتغربة » ولا يقنعهم ، فقد امتلأت قلوبهم بحب الغرب ، حتى لم يبق مجال لغيره ، وعندي شهادة « لجاك بيرك »[1] عساها تكون مقبولة أو نافعة ، فقد طرح في كتابه (الشرق الثاني) سؤالاً : هل النموذج الغربي ضروري وحتمي بالنسبة

(١) مجلة البحث العلمي المغربية العدد ٢٠ ـ ٢١ ص ١٦٨ .

لسائر المجتمعات ؟ وأجاب : ليس بضروري ولا حتمي ، بل قد يؤدي في مجتمعات إلى أنواع من الفشل ، ويتمثل ذلك في حالة من القلق والتمرد ، خصوصاً القطاعات غير المرتبطة بالإنتاج في المجتمعات الغربية..

وهذا ما سجله في حواره مع مجلة المجلة ، فقد كشف ذلك بصورة جلية أكثر .

وقد تحدث « القش » عن المثقف الذي قطع صلته بمجتمعه ـ في الشرق ـ، وارتبط بالغرب ، من جهة وصار « خواجا » السلطة . بل هو هجر مجتمعه ، ليصبح ممثلاً للغالب ، أو وكيلاً وسمساراً لشركاته وأفكاره .

يقول القش : (المثقف يجد نفسه في قطيعة مع جذوره التراثية ، ومع مضامين الأيديولوجية العملية ، وذلك في سياق تكوينه ، كمثقف فرد ، بهذا المعنى يكون نشوء المثقف ملازماً لخروجه وانفصاله عن مجتمع المغلوبين ، كي يقدم نفسه ، بعد بلورة معارفه الجديدة ، كتقني في خدمة « السلطة » . إن هذه الحركة تضعه في قطيعة مع المجتمع التقليدي ، وكتل العصبيات من جهة ، كما تضعه على طريق تسلق معابر « السلطان الحديث » الذي يحتاج لأمثاله)[١] ا . هـ .

ويكمل هذه الصورة في مكان آخر فيقول : (. . . وهكذا يتحرر المثقف الحديث من عبء تمثيل الحركة الجماهيرية ، وممانعتها للغالب ، ويتجه ليصبح ممثلاً « للغالب » و« خواجا » السلطة أو حاجب السلطان ، إنه يستند في وصفه الوسيط الجديد ، بين السلطة والشعب ، إلى سلطة شكلية يستمدها من فوق : سلطة العلم والثقافة العصرية ، التي تحاول أن ترث وتنافس سلطة المثقف الشعبي العضوي)[٢]

(١) مجلة السفير في ١٩٨٧/٨/٢٩ .

(٢) في البدء كانت الممانعة ص ٩٤ .

هذا الإنسان أمل الأمة في النهضة والقيادة ، سرعان ما تحول إلى مجرد وكيل للغرب ، أو سمسار لبضائعه الفكرية ، وقيمه وحضارته .

وهذا ماركسي يتحدث عن بضاعته العفنة وما قدمته لنا فيقول : (قدمت الماركسية مشروعاً ثورياً شمولياً ، ينقض بلا هوادة ، البنيان المخرب الذي للمجتمع العربي ، ويعوضه بمجتمع حديث عادل وعقلاني)[1] ا. هـ .

وصدق الله العظيم ﴿ والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ . إن التغريب يتساوق مع التنمية والتحديث ، حيث المطلوب مضاهاة النمط الحضاري الغربي وتقليده ، بحيث تكون له الريادة والسيادة ، وطبع المستعمرات بطابع التابع الحضاري ، الذي يأخذ منتجات الحضارة فقط ، ولا يتطلع لأبعد من ذلك .

لقد امتد التغريب ليشمل نظريات التنمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فصار مصطلح « التغريب » قريباً من التحديث ، أو مرادفاً له ، على أساس أن حضارة الغرب هي الأم ، وهي القدوة ، وكل ما عداها فتابع ومتخلف ، وهو مهدد بالموت أو الابتلاع ـ كما يقول توينبي ـ.

وقد كانت سياسة التعليم في المستعمرات تستهدف توفير كوادر متغربة تخدم الاستعمار وأهدافه .

يقول جارودي[2] في سنة ١٩١٩ صرح وزير المستعمرات الفرنسي (هنري سيمون) : أن هدف التعليم في أفريقيا يرمي إلى تحويل العناصر من السكان الأصليين إلى فرنسيين ناجزين .

وفي سنة ١٨٩٩ م صدر بيان رسمي عن إدارة الاحتلال يحدد سياسة التربية والتعليم في « مدغشقر » يقول : نريد أن نجعل من أبناء

---

(١) الإيديولوجية المهزومة ص ٢٤ عام ١٩٧٩ .

(٢) القرآن والسلطان ، فهمي هويدي ص ٨٠ .

مدغشقر الأحداث رعايا أوفياء ، مطيعين لفرنسا ، فنقدم لهم تعليماً صناعياً وزراعياً وتجارياً ، يلبي حاجات المستعمرين والدوائر العامة في المستعمرة .

وأعتقد جازماً أن « المتغربة » من أبنائنا لن تقنعهم الحجج مهما كانت ، إلا إذا جاءت من وراء البحر الأبيض ، ومن السيد . وهذا يذكرني بالمراغي « شيخ الأزهر » فقد كان مسافراً ، وصادف أن كانت معه ابنة له ، وصادف وجود امرأة من « الخواجات » فراحت تذكر لابنة الشيخ إعجابها بكتب العقاد ، وخصوصاً « العبقريات » وهنا راحت ابنة الشيخ تطلب « العبقريات » فقال بحسرة : أنا شيخ الأزهر وابنتي لم تسمع لي ، ولو كلمتها عن العقاد وكتبه ، فلما حدثتها « الخواجة » استمعت لها وصدقتها ، ثم عقب بألم ومرارة قائلاً : (يبدو أننا سنؤمن ونصدق إذا آمن الخواجات بالإسلام) .

وهذه شهادة من خواجات أمريكا ، وهي اليوم الآمر الناهي في دنيا العرب !

لقد استقدمت الحكومة المصرية عام ١٩٦٢ م خبيرين ـ أو خبيثين ـ هما « لوثر جوليك وجيمس بولوك » لدراسة موضوع التنمية والإدارة في مصر ، وإعداد تقرير حولها .

ومما جاء في تقريرهما : أن التنمية والإدارة في أي بلد لا بد أن تتم أولاً وقبل كل شيء ، في إطار المعتقدات والقيم ، التي يدين بها شعب هذا البلد ، والتي تسيطر عادة على مسيرة دولته ، وتوجه حكومته ، فإذا لم تبتعث هذه المعتقدات والقيم ، وتصوغها وتشكلها في صورة نظم ، فإن التقدم الذي يحرزه الشعب لن يتحقق ، لأنه لا مجال ولا أمل منه في النجاح ، إلا إذا قام على القوى الأخلاقية والفلسفة الروحية[١] .

---

(١) ص ٥ من التقرير .

وقد قدم الخبيران تقريرهما بمقدمة جاء فيها :

١ ـ شرع الله إقامة الدولة كنظام أخلاقي واقتصادي وسياسي ، وللإنسان أن يشكل هذا النظام بفضل ما يتاح له من اتساع في الخبرة والمعرفة ، وذلك على أساس المبادىء الأخلاقية الأساسية المقررة .

٢ ـ الناس سواسية أمام الله ومن ثم أمام القانون .

٣ ـ ليس لحاكم ولا لرجل الدين ، ولا لأية طبقة أو فئة أن تحول بين الإنسان وحقوقه وواجباته ، أو تفصل بينه وبين الله[١] .

٤ ـ الاستغلال الشخصي للنفوذ أمر يأباه الخلق الكريم .

٥ ـ نظام القيادة ـ في الدولة ـ نظام مستحب من حيث المبدأ ، وكل راع مسؤول أمام الله عن رعيته . . .

٦ ـ الأخذ بالشورىعلى الصعيدين المحلي والقومي أمر لا بد منه ، في اتخاذ القرارات والأعمال الحكومية .

٧ ـ نظام الملكية الفردية حق مقدس ، ينطوي على ضرورة استخدام الممتلكات على نحو مثمر ، مع تخصيص قدر من الدخل لعون المعوزين ، وخدمة المجتمع .

٨ ـ للمجتمع وللحكومة ، التي يقيمها المجتمع على أساس الشورى أن يقرر مايدخل في باب « المعروف » و« المنكر » استناداً إلى المبادىء الخلقية والدينية المقررة .

٩ ـ العمل له نبالته الخاصة ، ويستحق العامل أجراً عادلاً على عمله .

١٠ ـ الإنسان مكلف بكسب العلم وإعمال العقل ، واستخدام المعرفة التي حصلها ، في نفع الناس ومرضاة الله .

هذه الشهادة أنقلها عن النص العربي الرسمي ، دون زيادة أو نقصان .

---

(١) ويستثنى من ذلك بعض الحكام العرب من رفاق (جاوشسكو) وتلاميذ ستالين .

الحداثة والتحديث

الحداثة :

ربما كان مصطلح « الحداثة » من أكثر المصطلحات دوراناً ، دون تحديد واضح لمعالمه ، فما هي الحداثة ؟

يراها هشام شرابي[١] : مجموعة من العناصر والعلاقات المكونة لكيان حضاري . أو هي نموذج ونمط فكري ، وجد فيه الغرب هويته ، للتفريق بين ما هو غربي وما ليس كذلك . أما النزعة الحداثية من حيث هي وعي فتمثل رؤية خاصة تنطوي على تغيير في الذات والعالم .

أما معن زيادة[٢] فيتصورها في المشاركة في التطور ، والتحول الكبير الذي تشهده الإنسانية اليوم .

وهو يتصورها عامة شاملة ، للاقتصاد والسياسة والنظام الاجتماعي ، والزراعة والصناعة ، والتشريع ومؤسسات الحكم والدولة ، والتجمعات البشرية ، والأحزاب والنقابات . . .

فهي تبدو حيناً وكأنها مرادفة للتطور ـ كما عند شرابي ـ أو نسق حضاري مرحلي ـ كما عند زيادة ـ.

أما عند « مارشال بيرمان »[٣] فقضية أوروبية صرفة فهي ظاهرة وجدت هناك ، وتفاعلت تاريخياً ، فهي غربية المنشأ والهدف والمحتوى ، وعلامة فارقة للغرب عن غيره .

إن الحداثة أو التحديث لا تحمل « حكماً قيمياً » ، فقد تكون نافعة

---

(١) البنية البطركية ص ٣٣ دار الطليعة ١٩٨٧ .

(٢) الطريق إلى الحداثة ، الأزمنة السنة الأولى العدد (٤) ١٩٨٧ .

(٣) الخطاب العربي ، فادي إسماعيل ص ٤١ .

أو ضارة ، بحسب الميدان الذي تستعمل فيه ، والهدف الذي تتوخاه ، وهي ليست نظرية ، أو ذات محتوى معرفي ، بحيث يمكنها تقديم أجوبة لمشاكل الأمة .

وأهل الحداثة لا يملون الحديث عن التخلف ، يلوكونه بمناسبة وبدونها ، وكأنهم الأعداء المحاربون له ، وقد أجاد برهان غليون رسم صورة لهذه الحرب « الدونكشوتية » فقد جعل « غلمان الحداثة » من « التخلف » جوهراً ثابتاً ، يفسر به كُتاب وصحافيون وساسة كل ما يعيشه المجتمع العربي ، وهكذا صارت « الحداثة » تغذي نفسها بالحديث المكرر عن التخلف ، عمقه وكثافته وآثاره المدمرة ، أما الحداثة فهي البديل لهذا « الغول » وهي غاية الاجتماع العربي ، ومصدر مشروعيته ، ومحور نشاطه وفعالياته ، وهكذا أزيح وهمش تدريجياً وبالقوة ، جزءاً كبيراً من قيم ومفاهيم وبنيات المجتمع التقليدي .

وعلى حين كان « جيل النهضة » الأول مضطراً ، لإعادة قراءة « التراث » وتأويله ، لتبرير استقبال بعض عناصر « الحداثة » ، صارت الدولة الحديثة هي التي تسن القوانين والتشريعات ، فتثبت ما تريد وتقمع وتمنع ما لا تريد[1] .

إن « النخبة » راحت تفرض التحديث فرضاً ، أما النتيجة فكانت مزيداً من التغريب ، والهروب نحو الغرب ، طرح الهوية ، وعدم اكتساب هوية الغرب ، لأن الحداثة « هوية غربية » أولاً وأخيراً .

(إن الاغتراب الثقافي ، الذي يتجلى لدى الأقليات الاستراتيجية المسيطرة ، في بلدان العالم « الثالث » ، هو المسؤول عن ديمومة « التخلف » . وترسيخه ، وعن نشر التبعية ، وفشل النخبة ، وعن نزيف الثروات ، وفشل الثورات ، وعن الاستغلال والنهب ، السائدين

---

(١) اغتيال العقل ، برهان غليون ص ١٩٤ .

لصالح مراكز العالم المصنع)[1] .

وقد تحدث د . هشام شرابي ـ أستاذ تاريخ الفكر الأوروبي بجامعة جورج تاون في واشنطن وعلماني حتى العظم ـ تحدث عن الحداثة فقال : (. . . هنا يكمن الصراع الخفي العنيف ، الذي تخوضه حركة « النقد العلمانية » في الوطن العربي ، صراع بين فكر يرمي إلى تجاوز اللغة التقليدية ونظامها ، ولغة ترمي إلى لجم هذا الفكر وتقييده ضمن حدودها الذوقية والمعرفية ، وهو صراع ضد لغة تأبى النقد وتصر على مدلولاتها الغامضة ، فيتجسد في هذا التوتر الداخلي ، الذي يميز الفكر العلماني الناقد : فكر « يفكر » بلغة أجنبية ، ويكتب بلغة عربية فصحى .

شئنا أم أبينا ، يستمد هذا « الفكر العلماني » الناقد مفاهيمه ومصطلحاته وأبعاده من التجربة الأوروبية للحداثة بمفهومها الشامل ، لنحدد هذه التجربة : تنهض التجربة الأوروبية « للحداثة » في مرحلتها الأولى عن موقفين :

١ ـ موقف تجاه الماضي ، ومحاولة استرجاعه ، وذلك بالعودة إلى النموذج الأغريقي الروماني ، ثم نموذج القرون الوسطى .

٢ ـ موقف تجاه المستقبل القائم على العلوم وحتمية التقدم الإنساني (فلسفة التنوير) وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر يتخلى مفهوم الحداثة شيئاً فشيئاً عن ارتباطه الزمني ويتجه نحو كل ما هو جديد . . . هناك من يقول إن مرحلة الحداثة قد انتهت في الغرب ، وبدأت مرحلة ما بعد الحداثة (POSTMODERNISM) غير أننا مازلنا ننظر إلى أوروبا وكأنها مازالت في مرحلة الحداثة على حين ينظر إلينا الأوروبي من موقع ما بعد الحداثة ، فلا هو يرانا على حقيقتنا ، ولا نراه على حقيقته . . . وقد يتم الخروج من سوء الفهم بتحديد معنى

---

(١) الخطاب العربي ، فادي إسماعيل ص ١٦٣ .

« الحداثة » و « ما بعد الحداثة » من منطلقنا ، فمعنى الحداثة يتجسد بالنسبة لدينا في اتجاهين :

١ ـ اتجاه عقلاني .

٢ ـ اتجاه علماني ، أي : عقلنة الحضارة وعلمنة المجتمع ، والحديث هو الجديد والطلائعي ، بمعنى المغامرة نحو المستقبل والانفلات من قيود الحاضر وماضيه . . .)[1] ا . هـ .

والسؤال : هل توجد لغة ترفض النقد أم أهلها ؟

والسؤال الثاني : بما أن الفكر العلماني يستمد مفاهيمه ومصطلحاته من « حداثة » الغرب والغرب سار في اتجاهين : استرجاع الماضي والتوجه نحو العلوم ، فلماذا هرب « علمانيونا » من هذا المنهج إلى عقلنة الحضارة وعلمنة المجتمع ؟

والسؤال الثالث إذا انتقل السيد لما بعد الحداثة ، فلماذا يصر التلميذ على الوقوف عند الحداثة لا يتعداها ؟

فما رأي فرسان الحداثة أو « دونكشوتية » التخلف ؟!

وننتقل من الحداثة إلى « التحديث » ، فإذا كانت الحداثة لها طابع العموم والشمول ـ كما تقدم ـ فإن التحديث ملازم ومواكب لمفهوم التنمية ، فهو إما مؤطر لعملية التنمية أو محدد للأبعاد الأساسية لها ، فما هو « التحديث » ؟

التحديث :

لا نجد [illegible] أو تحديداً لهذا المصطلح فهناك من يعرفه[2] :

١ ـ [illegible] القدرات المعرفية ، التي تشمل جميع فروع الإنتاج ، مما يؤدي إلى تحديث كافة الجوانب الاجتماعية والثقافية والنفسية ، مما

---

(١) النقد الحضاري للمجتمع العربي / د . هشام شرابي ص ٨٥ مركز دراسات الوحدة العربية .

(٢) نظريات التنمية السياسية ص ٢٣٨ .

يسهل تطبيق العلم في عملية الإنتاج .

٢ ـ التحديث ـ تاريخياً ـ هو عملية التحول من الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التي تطورت في الغرب بين القرنين ١٧ ـ ١٩ .

٣ ـ التحديث عملية ثقافية ، تشمل تبني قيم ومواقف ملائمة ، للطموح العملي ، والتجديد العقلاني ، بدلاً من الوقوف عند القيم التي تسود المجتمع التقليدي .

ويستنتج ـ أصحاب النظرية ـ أن التنمية ستحدث في العالم « الثالث » ، وذلك بواسطة نقل الأفكار والقيم عن الغرب ، وكذلك التصنيع ، الذي سيزيح العقبات الثقافية التقليدية ، وهكذا يجري « تحديث » العالم « الثالث » .

٤ ـ إن لعملية التحديث ثلاث خصائص هي :

أ ـ ازدياد مركزية السلطة في الدولة ، مع ضعف مصادر السلطة التقليدية .

ب ـ بروز وتميز المؤسسات السياسية وتخصصها .

ج ـ ازدياد المساهمة الشعبية في السياسية .

د ـ إن أهم عناصر التحديث مايلي :

أ ـ الاتجاهات العامة نحو المساواة في العملية السياسية .

ب ـ قدرة النظام السياسي على صياغة سياسة وتنفيذها .

ج ـ التمايز والتخصص في العمليات السياسية ، عن طريق التوسع والتكامل .

د ـ علمنة السياسة وذلك بفصل الدين عن السياسة .

٦ ـ التحديث هو تحقيق التكامل الوطني والاندماج وإقامة الدولة ، والمشاركة السياسية ، وتحريك الجماهير[١]

٧ ـ التحديث يعني تغيير كبير في « الهوية » حيث يجري الانتقال

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٠ .

من الهوية الدينية إلى الهوية المدنية ، ومن التفرد أو الفردية إلى الجماعية ، ومن المصادر الوراثية للشرعية إلى المصادر المكتسبة ، ومن النخبة إلى الجماهير ، ومن العائلة إلى الجماعة ، ومن التوزيع وفق الأوضاع الموروثة إلى القدرة والإنجاز .

وهناك من يعتقد أن تحطيم الثقافات التقليدية ، لا يؤدي آلياً إلى التحديث . وعودة الناس إلى « الدين » اليوم خير شاهد ودليل على ذلك .

إن « الغرب » راح يسوقنا ، كما يسوق الراعي قطيعه ، وسلط علينا حكام « النخبة » فلم يتركوا نظاماً إلا طبقوه علينا ، فعرفنا الدولة القومية ، ومارسنا اللبرالية والديمقراطية ، وطبقنا الاشتراكية والتأميم ، عرفنا التعددية الحزبية ، والحزب الطليعي الواحد ، والقائد الملهم ، ولكن الحصيلة هي ما نراه اليوم ، من خيبة أمل وإحباط ، ليس فوقه ولا بعده إحباط . وقد سبق أن نقلت حديثاً للمستشرق الفرنسي « جاك بيرك »[1] خلاصته أن الغرب راح يفرض على العالم الإسلامي أنظمة تحت شعار (العصرنة والتحديث) . لكنها فشلت جميعاً ، لا فرق بين يسارية عبد الناصر أو يمينية شاه إيران ، وما هو قائم في العالم الإسلامي هو عبارة (عن خيبة أمل الجماهير الشعبية في أنظمتها ، ذات الصبغة اليسارية أو اليمينية أو اللبرالية ، لذلك عادت الجماهير إلى ما تملكه من نظام أكثر ملاءمة لها ، وأكثر تجذراً في نفوسها ، وأعني به الإسلام ، الذي لم يزده توالي الأيام والعصور إلا تألقاً ورسوخاً) ويشارك « فيليب روندو »[2] جاك هذا الرأي فالتحديث ما زلنا نمارسه منذ أواخر العهد العثماني ، ومع ذلك لم نجده سوى سراب ، فالغرب الذي أغرانا وما زال « بالتحديث » لا يريدنا أكثر من سوق لبضائعه وبقرة يحلب منها

---

(١) مجلة المجلة العدد ٥٦ لعام ١٤٠١ هـ .

(٢) مجلة كل العرب العدد ١٣٠ لعام ١٩٨٥ ص ١٣ .

المواد الخام ، بأرخص الأثمان ، ثم يصنّعها ويعيدها ، لندفع فيها أبهظ الأثمان . حتى الذين يتطلعون منا لزرع ما يأكلون ، يحاول الغرب بكل السبل صرفهم عن ذلك ، بحجة أنه مستعد لتقديم الحبوب وغيرها بأثمان رخيصة ، فإذا بدأنا « التسول » راح يفرض علينا شروطه السياسية والاقتصادية ، يبيع علينا السلاح حين لا نكون بحاجة له ، فإذا احتجناه منعه عنا وحجبه .

وأطرح سؤالاً بسيطاً ساذجاً : من أين يأتي السلاح للمليشيات في الصومال ، ولماذا يمنع السلاح عن البوسنة ؟ لماذا يجد كل طالب شرقي مسلم مجالاً لدراسة العلوم السياسية والإدارية ، وعلم الاجتماع والقانون ، وحتى التصوف في الغرب ، بينما لا توجد فرصة لطالب في علوم « الذرة » ؟!

ألا ترى معي ـ أيها القارىء ـ أن التحديث هو مجرد « تتبيع » ؟! أي : محاولة لصنع « تابع » يحيى ويموت وهو « تابع » ! إن علماءنا منذ قرون وضعوا قاعدة تقول : (التابع تابع ولا يفرد بحكم) وهذا ما يريده الغرب قلباً وقالباً . تابع مطيع لا يعرف « لا » حتى في تشهده !

وأجد الكثير من الصحة والصواب في قول الجرياوي : (الغرض الأساسي وراء هذا الفهم « للتحديث » هو الإبقاء على الدول النامية متخلفة إلى الأبد ، فاعتمادها تحديث نفسها على النموذج الغربي يربط العملية بما تمنحه إياها المجتمعات الغربية ، وبالطبع لا تمنحها إلا بالقدر الذي يحافظ على تبعيتها)[1] .

ويبقى السؤال : ما هو الحديث وما التقليدي ، وما الضابط لكل منهما ؟ وقد اطلعت مؤخراً على محاضرة للدكتور علي شلش ، ألقاها

---

(١) نقد المفهوم الغربي للتحديث / مجلة العلوم الإجتماعية / الكويت العدد ٤ عام ١٩٨٦ .

في النادي العربي في لندن[1] ، تحدث فيها عن تأخرنا في النقل والاقتباس - ويشاركه في ذلك د . علي شريعتي - ويهمنا رأيه في الحداثة والأدب والنن ، فهو يقول بأن الحديث عنها انتهى في الغرب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ ، ولكنا أحييناها بعد عقود من الزمن ، وما زال البعض يلوكها ، في الوقت الذي أخذت فيه أوروبا وأمريكا تتحدثان عما « بعد الحداثة » .

ثم يقول بكل وضوح إن الحداثة عندنا بدأت بقرار « سياسي » وكانت البداية في مصر والشام .

والذي أعتقده أنها ماتت بقرار شعبي ، فغلمان الحداثة كمن يؤذن في (مالطا) لا يجدون من يقرأ لهم ولا من يستمع لهم ، وهم اليوم نشاز ، يقولون ويلوكون نشازاً ، وقد سبق أن نقلت نصاً لهشام جعيط - وهو كاتب يساري - يتحدث عن قوة الإسلام وتحديه للثقافات الأخرى فيقول : (. . . من جهة أخرى لو تصفحنا ما في « الحداثة » من شرور : الفردية والعزلة والاستغلال والمادية الاقتصادية والبؤس النفسي ، لصار من الممكن التفكير بأن الإسلام كقوة روحية ، قادرة على أن يبث رسالة تجديدية لإنسان القرن الواحد والعشرين)[2] ا . هـ .

هذه هي الحداثة بوجهها الكالح ، كما يراه كاتب يساري ، وقد سبق أن نقلت نصاً عن « الخطاب العربي » يقول فيه صاحبه:إن كثيراً من الجرائم ارتكبت في الفكر والواقع باسم الحداثة والتقدم والتنمية ، وكل ما قبضناه المزيد من التبعية والكثير من الهزائم .

(١) جريدة الشرق الأوسط في ١٤١٣/١/٦ هـ .

(٢) عن مجلة منبر الحوار العدد ٢٥ ص ٣٤ لعام ١٩٩٢ .

العلمانية

العلمانية[1] : وهي ترجمة غير دقيقة ولا أمينة لكلمة SECULARISM التي تعني رؤية للحياة تعتمد على استبعاد الدين وقيمه ، أو عدم اعتماد الدولة لدين رسمي لها ، أو فصل السلطة الروحية عن السلطة السياسية . والعلماني شخص لا يعتمد الدين ولا تعاليمه ولا قيمه في حياته ، وهو قد يؤدي العبادة أو لا يؤديها .

ويعد « إلياس بقطر » أول من أطلقها في العربية ١٨٢٨ م ، لكنه جعلها عالمانية والشخص عالماني ، واستعملها كما هي في أصل لغتها ، لكن المصطلح لم ينتشر إلا مع نهاية القرن(١٩).

وحين أعدت المعارف المصرية ـ على عهد الاحتلال البريطاني ـ قاموساً للتلاميذ من قبل « الفريد هندية » ١٩٢٧ م وردت فيه الكلمة بمعنى الشيء المختص بالأمور الدنيوية ، وبعد ذلك شاع ، حتى أن « المعجم الوسيط » الذي أعده مجمع اللغة العربية أدرج المصطلح بمعناه المخالف للدين ، ثم نقل إلى معجم العلوم الاجتماعية ، الذي أعدته الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م ، وكتب مادة العلمانية (حنا رزق) .

وكان المفروض بمجمع اللغة العربية أن يكون دقيقاً ، فيرفض المصطلح العربي ، لعدم مطابقته لأصل الكلمة .

ومن المفارقات أن بعض الكتاب راح يبحث « للعلمانية » عن أصل ، فمن يردها للعلم ، ومن يردها للعالم ، ونسي الكل أن هذه

---

(١) نظريات التنمية السياسية المعاصرة ، د . نصر محمد عارف ص ٣١٤ ودائرة المعارف البريطانية ٢/٦٦٧ .

ترجمة غير سليمة ولا سديدة ، لكلمة غير عربية ، والواجب بحثها في لغتها الأصلية ، من حيث الجذر والاستعمال ، فالعلمانية نبات وجد في الغرب ونقل إلى العالم ، بل هناك محاولات واضحة لفرضه بالقوة على شعوب العالم كافة وعلى الأقطار الإسلامية بشكل خاص .

وإذا كان الغرب قبل العلمانية فهذا أمر يخصه ، أما في العالم الإسلامي فهي إيمان ببعض الكتاب وكفر بأكثره .

وتحميل العلمانية بعض القيم ، يشبه إلى حد كبير ذلك الاكتشاف في تحميل القومية العربية الاشتراكية .

فالقومية دعوة لجمع العرب ، والاشتراكية مذهب اقتصادي ، ومن هنا فلا علاقة بين الاثنين .

إن الغرب يفهم العلمانية على أنها اقتسام للسلطة بين الدولة والكنيسة ، فالكنيسة مسؤولة عن العبادة والميراث والأحوال الشخصية ، والدولة مسؤولة عما وراء ذلك من سياسة وتعليم واقتصاد وصحة ، على أن لا يتدخل أي طرف في مهمات الطرف الآخر .

كما ترك للفرد الحرية في اختيار ما يحب ، فإن أراد الزواج فأمامه الكنيسة ، فإن لم يرد ذلك ، فعنده البلدية توثق العقد ، فإن لم يرد هذا ولا ذاك أخذ المرأة وعاشرها وأنجب الأولاد ، فإن شاء اعترف بهم وإن شاء لم يعترف .

أما العلمانية خارج الغرب ، فتعني تسلط الدولة على الدين ومؤسساته كافة ، بل تحول الكثير من الرؤساء والساسة إلى مجتهدين ، يفتون بما يحلو لهم ، ويريدون حمل المسلمين على ذلك ، وقد احتوت كثير من الدول المؤسسات الإسلامية ، وراحت تفرض على بعض العلماء فتاوى معينة ، ولعل ما حصل للأزهر ، ولجامع الزيتونة في تونس خير دليل .

وأنصح لمن يرغب بالزيادة أن يقرأ مقالاً لبرهان غليون تحت

عنوان « فلسفة التجدد الإسلامي » مجلة الاجتهاد الأعداد ١٠ ، ١١ لعام ١٩٩١ الصادرة عن دار الاجتهاد ببيروت .

فهو يرسم غارة الدولة على الدين والعلماء والمؤسسات .

ويتحدث « الفرد كانتويل » عن طبيعة الحضارة الغربية ، وسبب ظهور العلمانية فيها فيقول : (إن المدنية الغربية منفردة بين حضارات البشر العظمى ، فهي حضارة « ازدواجية » فهي مركبة من مجموعتين من التقاليد ـ لم تندمجا أبداً ـ أولاهما عن اليونان وروما والثانية من فلسطين . لقد عاشت المجموعتان من التقاليد وتطورتا جنباً إلى جنب عبر تاريخ أوروبا كله ، تتناقضان أحياناً ، وتشدان إلى بعضهما أحياناً ، وتنسجمان أحياناً أخرى ، لكنهما لم تنصهرا أبداً . ومع أن كلاً منهما أثرت في الأخرى إلى حد بعيد ، إلا أنهما بقيتا متمايزتين . لقد حملت النصرانية إلى عالم تام التنظيم ، وانقضت القرون التي كونت النصارى تحت حكم غيرهم . ومع أن العقيدة النصرانية كانت في وقت ما عقيدة الجماهير العمالية في الإمبراطورية الرومانية إلى حد بعيد ، إلا أن الدين النصراني قد ابتدأ في عالم له شرائعه الدنيوية الخاصة ، ولغته الخاصة ، وحكومته وبناؤه الاقتصادي .

وبينما شغل النصارى أنفسهم بحياتهم الخلقية الخاصة ، نجد أن مهمة إيجاد نظام اجتماعي قد نمت منذ عهد بعيد ، وإن مهمة استمراره وقعت على عاتق آخرين . وفي الواقع فإن مجتمع الكنيسة لمدة ثلاثة قرون ، كان لديه القليل ليقول : (كيف يجب على التاريخ أن يسير) ولم يكن تشكيل المسيرة التاريخية جزءاً من مخطط النصرانية ، وحتى بعد انتهاء عصور الاضطهاد ، وعندما أصبح النصارى أنفسهم يشكلون المجتمع ، لا أقلية تتطلب الحماية منه ، وأصبحوا بمرور الأيام في مراكز السلطة والقوة ، فقد اتخذوا النظام الاجتماعي الموجود كما هو ، لقد أبقوا عليه وكأنه شيء عرضي بالنسبة لعقيدتهم ، ولربما رأوا أن من

واجبهم كنصارى أن يصلحوه ، لا أن يستبدلوه بشيء جديد)[1] ا.هـ .

هذه الثنائية بين وثنية اليونان والرومان ، وتعاليم السماء هي التي أفرزت « العلمانية » لأنها رغم القرون لم تمتزج ولم تتحد .

(١) الإسلام في النظرية والتطبيق ، مريم جميلة ص ٢٤ .

الفهرس

هذا الكتاب

هذا الصديق اللدود مولع بإيذائنا مهما تقربنا إليه، وهذه صورة من «البوسنة والهرسك» يرسمها بعض الناس هناك في الغرب.

لقد قتل ربع مليون شخص، وجرى إغتصاب خمسين ألف امرأة، وتدمير ٨٠٠ مسجد وإحراق ٤٠٠ بلدة، هذا ونحن نتحدث عن القيم الغربية وحقوق الإنسان.

عمدة سربنتا (الصنداي تلغراف)

إننا نسمي أنفسنا مسؤولين وديمقراطيين، ولكننا في الواقع أنانيون وبرابرة ومعدومو المسؤولية، إن مئات الأبرياء والمدنيين العزل قتلوا في (سربرنتا) بمدفعية الصرب المتوحشة... ونصر في نفس الوقت على إستمرار حظر السلاح الذي هو في الواقع يساعد الصرب على تحقيق أهدافهم، إن أسوأ مجرمي الحرب في هذه المأساة هم قادة الغرب الذين يشاهدون المجازر مستمرة ولا يفعلون شيئاً لإيقافها.

إن مأساة البوسنة عار على حضارتنا... إذا تحول الدم إلى بترول أو تحول المسلمون إلى مسيحيين أو يهود فكلنا نعلم أنه سيكون هناك تدخل وفعل.

عن اليوروبيان العدد ١٩٩٣/٤/٢٢

هل يمكن لأي شخص أن يصدق بجدية أن القوى الأوروبية لم تكن لتتدخل لو كان مسلمو البوسنة هم الذين يمارسون التطهير العرقي ضد الكروات الكاثوليك؟ هل يمكن لأحد أن يصدق بجدية أن أمريكا، ما كانت لتتدخل لو كانت السلعة الأولى في البوسنة هي النفط.

روبرت لتيل من فرنسا وأوتومايستر من ألمانيا